

العدد الثاني (المحرم سنة ١٣٥٥ هـ - أبريل سنة ١٩٣٦ م) الجزء الرابع

صحيفة دار العلوم

مجلة الأذب واللغة والعربية والانفتاح

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

أبو الطيب المتنبي

بعد ألف سنة

الجزء الأول

٨
«سنة الثانية» (المحرم سنة ١٣٥٥هـ - أبريل سنة ١٩٣٦م) الجزء الرابع

صحيفة دار العلوم

بجمله الأذيت واللغة والتربية والاجتماع

نصرتها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديرية «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب حياينة

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي يوصى

المدرس بدار العلوم

المراسلات الخاصة بالتحرير

ترسل إلى مساعد التحرير

محمد مهدي عزم

المفتش بوزارة المعارف

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشا

لغير الطلبة

١٢

للطلبة ومدرسي المدارس الأولية

٦ شللات انجليزية

٥ قروش

في القطر المصري

س خارج القطر

ثمان العدد

الطبعة الخامسة بغير

أبو الطيب المتنبي

بعد الفسنة

الجزء الأول

إِنْ سَاحَا مَدَقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَسْرِفَ أَنْ يَمُوتَ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَنْ يَحْيَا الْوَجْدُ هَا يَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَارٍ
وَيَحْيَا فِي أَمْرِ الْعُلُوفِ
الأنثى والأناث الشيخ محمد بن عبد الله

الخطب الجليل

فزعت مصر، ورُوع الوادى الأمين، وجزع الشرق؛ حين نعى
الناعى الملك العظيم، حامى حمى النيل، وسليل إسماعيل، وفرع الدوحة
العلوية المباركة، المغفور له «فؤاد الأول» ملك مصر.

لقد وقف فى ساح القصر، وجلس إلى المذيع، خلق لا يحصى
عددهم، واجفة قلوبهم، خاشعة أبصارهم، يبتهلون إلى الله فى ضراعة
وذلة، أن يمن على الملك المحبوب بالشفاء، وأن يسبغ عليه نعمة العافية،
وارتقبوا البشير يطل عليهم من شرفات القصر، والمذيع يذيع البشرى
فى الملأ، وطال على هذه الحال ارتقابهم، ولاحت لهم بارقة الأمل،
ولكن ما كادت هذه البارقة تملأ أرجاء النفوس، والقلوب تستقر بين
الجوانح، حتى أعلن الطب عجزه، وصاح الناعى: «مات صاحب الجلالة».
وانتشر الخبر فى الآفاق، فذهل الناس، وشملهم جوى الحزن،
وغشيمهم من هول المصاب ما غشيم؛ فذابت نفوسهم حسرة، وتفتت قلوبهم
أسى؛ وجفت المآقى، وتقرحت الأجفان، ثم رجعوا إلى الله، فخفضوا
لقضائه، ورضوا بحكمه وتلفوا حولهم، علّهم يجدون ما يخفف لو عتهم
على الملك الراحل؛ وإذا صوت يدوتى فى الفضاء، ويخترق طباق السماء،
ينادى فى الناس: «يحيا صاحب الجلالة الملك فاروق الأول» فسكنت
نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، ونادوا جميعا من أعماق صدورهم:
«مات الملك!... فليحي الملك!».

محمد على مصطفى

دمعة دار العلوم

على الفقيه الكريم، والملك العظيم، المغفور له
صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول
للشاعر الكبير الأستاذ على الجارم بك

جَلَلْ هَزَّ كُلَّ رَكْنٍ وَهَذَا وَمَصَابُ رَمَى الْقُلُوبَ فَأَرْدَى
كُلُّ صَدْرِ بِهِ أَيْنُ وَوَجْدُ مُرْسِلٌ خَلْفَهُ أَيْنَا وَوَجْدَا
عِبْرَاتٌ مِنْ سَاكِبٍ لَيْسَ تَرْقَا وَوَجِيبٌ مِنْ خَافِقٍ لَيْسَ يَهْدَا
وَنَشِيجٌ أَقْضَى مِنْ مَضْجَعِ اللَّيْلِ، وَمَا جَتَ لَهُ الْكَوَاكِبُ سُهْدَا

فَزِعَتْ مَصْرَ فَزَعَةً طَارَ فِيهَا كُلُّ عَقْلٍ عَنِ الرَّشَادِ وَنَدَا
هَرَعَتْ سَاعَةَ الْوَدَاعِ تُفِيضُ الدَّمَّ مَعَ بَحْرًا، وَتُرْسِلُ الشُّوقَ وَقْدَا
أُمَّةٌ هَالَهَا الْمَصَابُ، فَهَامَتْ تَسْتَحِثُّ الْخُطَا شِيُوخًا وَمُرْدَا
خَرَجَتْ مِنْ خِبَائِهَا كُلُّ خَوْدٍ لَمْ تُقَنَّعْ رَأْسًا، وَلَمْ تُخَفِ خَدَا
أَعْجَلَتْهَا مَصِيبَةُ الْوَطَنِ الْمَفْجُوعِ أَنْ تَحْتَسِبِي وَأَنْ تَتَرَدَّى
زُمَرٌ تَلْتَقِي عَلَى الْحُزَنِ وَالْيَأْسِ، وَحَشْدٌ بِكَ يَزَاحِمُ حَشْدَا
وَبِحَارٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّاتِ مَا جَتَ مُزِيدَاتٍ، يَبْجِشْنَ جَزْرًا وَمَدَا

وجبالٌ تسير في يوم حشر كلٌ فندٍ تراه يتبع فندا
 فوقَ سطح البيوت كالنمل ، فانظر ثم إياك أن تحاولَ عدداً
 كل بيت قد عاف أحجاره الصُّم ، وأضحى دما ولحماً وجلداً
 والمبادينُ كلها أم تُزْجى كما تُكْدَسُ السحابُ رُبداً
 فإذا شئتُ أن ترى الأرض أرضاً كنتَ ممن يحاولُ الأمرَ إذاً
 نفسٌ واحدٌ جميعاً ، وقلبٌ لِقَوَادِرٍ يَزُفُ شوقاً وصهداً
 ودعاؤه يمر بالصدر برقاً فإذا انسابَ منه أصبحَ رعداً
 بخشوعٍ من الجلال تراءى وجلالٌ من الخشوع تبدي
 حملوه ، وإنما حملوا آ مالَ شعبٍ بزهرها النضُّ تندي
 حملوا حامى الحقيقة والدِّى ن كما تحملُ الملائك عهداً
 مآوا كوكباً أشع على مص رَ سنى مُبْصِراً وهدياً وسعداً



ما على الدهر مرةً لو تَوَانَى أو على الدهر مرةً لو تَهْدَأ ؟
 انفتحت ریحُهُ أَزَاهِيرَ آمَا لِي مَلَأَنَ الْوُجُودَ مِسْكَاً وَنَدَاً
 وَعَدْتُ كَفَّهُ عَلَى دَوْحَةٍ كَا نَت تَّمُدُّ الظَّلَالَ فِي مِصْرَ مَدَاً
 وَجَدْتُ مِصْرُ فِي ذَرَاهَا سَلَامَا وَطُوتَ فِي ظِلَالِهَا الْعِيشَ رَغْدَاً
 قَدْ نَعَيْنَا فَرْدَاً بِهِ كَانَ عَصْرَاً وَفَقَدْنَا عَصْرَاً بِهِ كَانَ فَرْدَاً
 دَوْلَةٌ أَهْدَتْ الْكَوَاكِبَ نُورَاً وَأَنَافَتْ عَلَى الْكَوَاكِبِ بُعْدَاً

عَلِمَتْ كُلَّ مَالِكٍ : كَيْفَ تُرْعَى أُمُّ حَاطِهَا الْمُلُوكُ وَتُهْدَى

رفع الشرقُ رأسَه بفؤادٍ ونضاً عنه يأسَه ، فاستَجَدَّ
ومضى بسبقِ الخواطر وثباً وجرى يُجهد الأمانى وَخَدَا
وأنت كلُّ أمة ترتجى مص رَ وِدَاداً ، وتنهل العلمَ وَرِذَا
كعبة حجت الوفود إليها تستحثُّ الرِّكابَ وفداً فوفدا
حفزتها لعرشِ مصرَ أمانٍ بنشيد الولاء والحبِّ تُحدِّى
فراّت حزمَ جاهدٍ لن يُبارى ورأت جُهدَ حازمٍ لن يُحدَّا
أبصروا الملكَ في جلاله معنا ه يباهى السماءَ عزّاً ومجداً
أبصروا دولةً ومُلكاً كبيراً ومِراساً يُعي الزمانَ وجُهداً
همةً تفرّغُ النجومَ وعزمٌ سلبَ السيفَ حدّه والفرنداً
ومضاه في الحادثات برأى فضحَ الصبحِ نورهُ وتحدِّى
يستمدُّ الإلهامَ من عالمِ الغيب ، وأجدِرُ بثله أن يُمدَّا

دفع الشعبَ للسبيل فكانت من سنا هديهِ أماناً ورُشداً
مُلهباً عزمه إذا اجتاز غوراً مستحيثاً إذا تسلق نبجاً
كلما خار أجزاء بَسْمَةٍ مِنْهُ ، فمدَّ الخطأ حثيثاً وجدداً
ومضى كالقضاء يهوى لمرما ه جريثاً ، مجع القلب ، جَلداً

يَبْهَرُ الصَّخْرَ أَنْ يَرَى مِنْهُ صُلْدًا آدَمِيَّ الرُّوَاهُ يَقْرَعُ صُلْدًا
لَا يُبَالِي - إِذَا سَعَى لِلْعَالِي - خَبَطَ الشُّوكَ أَمْ تَوَطَّأَ وَرْدًا !
وَفُؤَادُ أَمَامِهِ خَيْرُ هَادٍ قَادَ لِلغَايَةِ الْبَعِيدَةِ جُنْدًا
كَانَ لِلْمُقَدِّمِينَ رُوحًا وَقَلْبًا وَلرَّكِبِ السَّارِينَ كَفًّا وَزَنْدًا
لَوْ دَعَاهُمْ إِلَى النُّجُومِ لَسَارَوْا خَلْفَهُ يُزْمِعُونَ لِلنَّجْمِ قَصْدًا
وَإِذَا الْيَأْسُ مَسَّهُمْ كَانَ عَطْفًا وَسَلَامًا عَلَى الْقُلُوبِ وَبَرْدًا
نَظْرَةً مِنْهُ تَبْعَثُ الْأَمَلَ الْوَا نِي وَتُحْيِي مِنْهُ الَّذِي كَانَ أَوْدَى



كَانَ دِرْعًا لِمِصْرَ إِنْ جَارَ خَطْبُ وَصِيَامًا لِأَمْنِهَا إِنْ تَمَدَّى
سَاسَ بِالْحِكْمَةِ الْبِلَادَ ، فَكَانَتْ مِنْ عَوَادِي الْخُطُوبِ دِرْعًا وَسَدًّا
فَهُوَ إِنْ شَاءَ صَيَّرَ الْغِمْدَ سِيفًا وَإِذَا شَاءَ صَيَّرَ السِّيفَ غِمْدًا
قَدْ أَعَدَّتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْحَكِّ مَ كَرِيمًا مَبَارَكًا ، فَاسْتَعْدًّا
وَرَعَى اللَّهُ فِي الرِّعْيَةِ وَالْمُلْكِ لِكِ ، فَوَفَّى حَقَّ الْإِلَهِ وَأَدَّى
أَيْنَمَا سَرَتْ مَشْرِقًا تَلَقَّى شُكْرًا أَوْ تَوَجَّهَتْ مَغْرِبًا تَلَقَّى حَمْدًا
وَإِذَا اللَّهُ رَامَ إِصْلَاحَ شَعْبٍ سَلَكَ الْقَائِدُ الطَّرِيقَ الْأَسَدًا
إِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ، وَأَعْلَى مُلْكٍ شَأْوًا مَا كَانَ حُبًّا وَوُدًّا



رَدَّ بِالْجَزْمِ كُلَّ خُطْبٍ سِوَى الْمَوْ ت ، وَلِلْمَوْتِ صَوْلَةٌ لَنْ تُرْدَا

والفتى في الحياة رهْنُ عَوَادٍ لا يَرَى دُونَ مُلتَقَاهُنَّ بُدَاً
حَكَمَ المَوْتُ فِي الأَنَامِ فسَوَى لَمْ يَدْعُ سَيِّدَاً، وَلَمْ يُبْقِ عَبْدَاً
يَنِمَا يَسْحَقُ النَّـلَّـلَ تَرَاهُ بَاسِطَا كَفَّهُ لِيَقْنِصَ أَشَدَاً

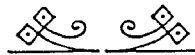
يَا مَلِكِي، وَالْحَزَنُ يَطْعَنُ نَفْسِي كَمَا قُلْتُ: خَفَّ، قَالَ: سَأُبْدَا
أَيْنَ عِزُّ المُلْكِ الَّذِي كَانَ لِلآ مَالٍ فِي سُوحِهِ مَرَّاحٌ وَمَغْدَا؟
أَيْنَ تِلْكَ الهَبَاتُ لِلْعِلْمِ تُزْجِي كُلُّ رِفْدٍ فِيهَا يَزَاحِمُ رِفْدَا؟
أَيْنَ أَيْنَ القُصَادُ فِي سَاحَةِ القِصْ رَ، وَأَيْنَ الصَّلَاتُ تُعْطِي وَتُسْـدِي؟
أَيْنَ ذَاكَ الجِبِينُ يَنْضَحُ نُورَاً أَيْنَ ذَاكَ الحَدِيثُ يَقْطُرُ شَهْدَا؟
قَدْ فَقَدْنَاهُ وَالمُصَابُ جَلِيلٌ وَجَمِيلُ العِزَاءِ بِالحُرِّ أَجْدَى
نَحْنُ لِلَّهِ رَاجِعُونَ، وَكُلُّ بَالِغٌ فِي مَجَالَةِ العُمُرِ حَدَا
غَيْرَ أَنَّ الفَتَى يَغَالِبُهُ الدَّمْعُ، فَلَا يَسْتَطِيعُ لِلدَّمْعِ صَدَا
كُلُّ مَهْدٍ يَصِيرُ مِنْ بَعْدِ حِينٍ - قَصُرَ العُمُرُ أَوْ تَطَاوَلَ - لِحْدَا

قَدْ مَلَأْتُ الوجودَ شِدْوَاً بِمَدْحِي لَكَ، وَهَلْ غَيْرُ مِزْهَرِي بِكَ أَشْدَى؟
خَالِدَاتٌ مِنَ الجَلَائِلِ أَوَّلَتْ شِعْرِي المُزْدَهِي بِوصفِكَ خُلْدَا
كُتِبَ اللهُ أَنْ يَمُودَ رِثَاءُ وَبُكَاءُ يُذْنِي العِيُونَ وَكَمْدَا
قَدْ نَظَمْتُ العُلَا قِلَادَةً دَرٍ فَنَظَمْتُ الدُمُوعَ أُرْثِيكَ عِقْدَا



أملُ الشَّعبِ في خَلِيفَتِكَ الفَا روقِ أحيًا آمالَه وأجدًا
 قرأُ الشَّعبُ في مَلاحِجِه العُرْمَ سطورَ الثُّمَنِ ، وأبصرَ جَدًّا
 ورأى فيه نَبْعَةَ المَجدِ والنُّبِّ لَ أبًا مُفَرَّدَ الجَلالِ وجَدًّا
 لم يَجدِ للعلَّا سِواهُ مِثْلًا . ولبدرِ السَّماءِ إلَاهُ نِدًّا
 رَحْمَةُ اللهِ لِلْمَلِيكِ المُسَجِّى ورعتْ عِنهُ المَلِيكُ المُفْدَى

على الجارم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم لمدير الصحيفة

نحمد الله الذى بيده ملكوت كل شىء، ونصلى على نبيه الكريم، ونستمد منه (تعالى) المعونة على ما سنضطلع به من واجب فى إدارة الصحيفة، ونستلهمه الصواب فيما يجرى به قلبنا، ويفيض به قوادنا، ويتجه إليه أملنا، فى خدمة الثقافة واللغة وآدابها، وفى تحقيق الغايات النبيلة التى مهد أبناء دار العلوم السبيل إليها، وفى إتمام بنائها بمعونة الله وتوفيقه، وصدق العزيمة، والإخلاص فى الحق، والتعاون على جليل المقاصد. ونسأله (جل شأنه) أن يسد خطانا، ويوثق عرا التآلف بيننا، ويرشدنا إلى أقوم سبيل.

(وبعد) فإنا نقدم لدار العلوم وأبنائها وجماعتها، وسائر شعبها، وجميع قراء الصحيفة، أجمل العزاء فى فقيدها ورئيسها المرحوم (أبو الفتح الفقى) ونضرع إلى الله أن يتغمده برحمته، وأن يحجزه الجزاء الأول فى، على ما بذل من جهود فى سبيل الخير والإصلاح، وما انطوت عليه نفسه من كريم الخلال، فقد كان - رحمه الله - قوى الإرادة فى هدوء، شديد البأس فى تحمل وتلطف، نشيطا فى حزم وروية، دؤوبا فى أناة وهوادة. فلم يدخر وسعا فى النهوض بأعباء جماعة دار العلوم، وكان فى حله وترحاله داعيا إلى الحق، حافزا همهم إخوانه إلى صالح الأعمال. وكان لهذه الصحيفة عمادا فى الإدارة والتحرير، فاحتمل أعباءها، وغذاها برأيه وقلبه، وسار بهمة فنية، ونفس قوية، فى طليعة العاملين

من إخواننا ، يضرب لهم المثل في النشاط والإخلاص ، حتى أثمرت الجهود ، وخطت الصحيفة خطوات مباركة ، وأصبحت من أعذب مناهل الثقافة في البلاد .

تسلم - رحمه الله - زمام الصحيفة في مراحلها الأولى ، فدعم أساسها ، ووطد أركانها ، وسنتبع خطاه ، ونترسم أثره - إن شاء الله - مطمئنين . وقد ظل الفقيد عماد الجماعة ، ومحور شعبها المختلفة ، حتى وافته منيته ، فكانت الفاجعة أليمة ، وشمل الأسى الجماعة ورجالها ، ودار العلوم وأبناءها ؛ وقد تجلى الوفاء للفقيد في حفلات التأبين الرائعة ، التي أقيمت في جهات عدة ، وأوقات متفرقة ، وفي كلمات الرثاء التي فاضت بها القلوب . وسنشر كل ذلك في ملحق خاص إن شاء الله .

وقد شرفني جماعة دار العلوم بإسناد إدارة الصحيفة إلى ، وإني لعاجز عن أن أوفيها حقها من الشكر على هذه الثقة الغالية ، وأتقدم لتسلم إدارة الصحيفة ، وثقتي بالله تملأ قلبي ، وأمل في همة إخواني يزيدني يقينا ووثوقا بالنجاح ، واطمئنانا إلى السير في طريق معبد ، نصل منه إلى أسمى الغايات بإذن الله .

ولقد يكون من بواعث الرجاء ، أن الصحيفة قد نالت في هذه الفترة القصيرة من حياتها مكانة تدعو إلى الإغترباط ، فقد كانت مسرحاً للأقلام الرصينة ، والعقول الراجحة من أبناء دار العلوم ، في فنون اللغة والأدب ، والفلسفة والتربية والتعليم ، وغير ذلك ، مما كان خير دليل على مالدار العلوم وأبنائها من أثر محمود ؛ ولسنا نريد أن نزكي أنفسنا ونطري إخواننا ؛ ولكننا نسوقها كلمة حق وإنصاف للعاملين من إخواننا ، ونشكر للكتاب والشعراء منهم عظيم هممتهم ، وصادق جهودهم وغيرتهم ، وقدرتهم على النهوض بصحيفتهم ، التي هي عنوان نشاطهم ، ورمز نبوغهم .

وإني أقدم للقراء هذا العدد من الصحيفة والذي يليه ، وقد جعلناها
- من بين الأعداد - ذخيرة أدبية خاصة بذكرى المتنبي بعد ألف سنة .
والمتنبي شاعر عبقرى سار ذكره فى الآفاق ، وأثار شعره اهتمام الأدباء
والعلماء ، وملا بجامع الأدب ومحافله .
ومن الحق أن ينال النابغون قسطهم من الإشادة بذكرهم ، والتنويه
بمآثرهم ، ونواحي العظمة فى حياتهم . ففى هذا وفاء بحق الراحلين ، وإغراء
بالمحامد ، وقدوة حسنة للأجيال الحاضرة والقادمة .
وقد قام أبناء دار العلوم بنصيبهم من هذا الواجب ، فجالت أقلامهم فى
أفانين المتنبي ، ومناحي حياته البيانية والعقلية والأدبية والتاريخية ؛ ويرى
القراء فى هذا العدد ، وفى العدد التالى ، طائفة من المقالات التى جادت
بها قرائهم . وإنا نقدم لهم جزيل الشكر ، ونرجو أن يسدد الله خطانا ،
ويوفقنا للخير والرشاد .

نجيب متانه

ذكرى المتنبي

لرئيس التحرير

كانت «جماعة دار العلوم» من أسبق الناس تفكيراً في الاحتفاء بذكرى المتنبي بعد انقضاء ألف سنة على وفاته، وقد أرادوا أن يقيموا له مهرجاناً عظيماً يدعون إليه أعيان البيان، ورجال الأدب، ومصاقع الخطباء، وزعماء الشعر، وقادة الفكر، من كل إقليم ينطق أهله بالضاد. ولكن جرت أمور وحدثت أحداث، تتعذر عليهم معها أن ينفذوا مشيئتهم على النحو الذي أرادوه.

وكانما أراد الله لأبناء دار العلوم ألا يجيدوا عن سنة أسلافهم، ولا يخرجوا عما اصطاح عليه قادتهم منذ عهد طويل، من خدمة اللغة العربية وآدابها، وتقدير كتابها وشعرائها، بكل ما أوتوا من الوسائل في غيرز هو ولا صخب، وفي غير برباء، ولا دعاية للنفس؛ فتحولت جهودهم إلى تلك الدراسة العميقة، الهادئة الممتعة، التي تعدّ بحق طابع الباحثين من العلماء، فقرءوا ديوان المتنبي - وما كان واحد منهم يجهره - وتناولوه ببحث واسع، فبدت لهم منه نواح جديدة، أرسلت أقلام كتابهم، فغرت إلى غاية يقصر عن دركها سواهم، وأوحت إلى شعرائهم بالأغاريذ، فانبعثت نغمات حلوا بملأ الآفاق ويطرب النفوس.

كنا على أن نجعل هذا العدد وحده في ذكرى المتنبي؛ ولكن المقالات التي اجتمعت لنا، كانت أكثر مما يتسع له عدد واحد؛ ولما كنا حراساً على ألا يحرم الأدب العربي وقراء الصحيفة ثمرة هذه البحوث الناضجة، رأينا أن تكون هذه المقالات في عددتين متلاحقين.

وكنا رأينا - بادئ الأمر - أن نضع خطة للبحث منظمة، بتخير النواحي التي ينبغي أن تشملها الدراسة، وأن نطلب من زملائنا الكتابة في هذه النواحي، ثم عدلنا عن هذا الرأي، حتى تجري كل نفس على سجيئها، ويكتب كل أديب في الناحية التي يراها هو جديرة بجهوده، وترتب على انتهاء هذه الخطة أن جاءتنا المقالتان

والثلاثة في موضوع واحد ، أو ما يشبه أن يكون موضوعا واحداً لباحثين مختلفين ، وكنا بهذا جد مغتبطين ، فإن الموضوع الواحد يقدم للقارىء في صور متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة ، فيكون أمتع للنفس ، وأدخل في باب البحث ، إذ يعرض كل كاتب رأيه ، ويسوق الأدلة ، ويبسط الحجج لتأييده ؛ ومن ذلك نجد لهذه المقالات طابعاً يميزها عن سواها ؛ هو أنها دراسة شخصية عميقة لشعر المتنبي ، في كثير من حرية الرأي ، وصراحة القول . فهنئنا للأدب العربي بهذه الثروة الجديدة ، وهنئنا للمتنبي بأبناء دار العلوم ؛ فقد أشادوا بذكركه في محافل الأدب ، وكانوا رواة شعره ، ورسلة إلى الناس جميعاً .

لقد احتفلت كلية الآداب من الجامعة المصرية بذكرى المتنبي ، وأقامت رابطة الأدب العربي مهرجاناً عظيماً ، أدت به واجب الوفاء لشاعر عبقرى أثرى بشعره الأدب ؛ وإنه ليسرنا أن نسجل هنا - اعترافاً بأقدار الرجال - أن أبناء دار العلوم كانت لهم جولات موفقة في هذين الحفلين ؛ فكان من بينهم أربعة من خيرة الباحثين في الحفل الذي أقامته الجامعة ، وأربعة من اللسان المقاول في مهرجان رابطة الأدب العربي .

أولئك آباءى ؛ فحنتى بمثلهم إذا جمعتنا - يا جرير - المجمع !

محمد على مصطفى

المتنبى

بقلم شاعر الريف محمود حسن - ماعيل

طالب بدار العلوم

مِنْ مَارِجِنِ بَيْتِهِ الْكَوْنِ مَفْقُودُ تَصَرَّعَتْ بَعْدَ مَا غَابَ الْأَنَاشِيدُ
 مُغْلَفٌ فِي جُيُوبِ الْغَيْبِ ، لَجَّ بِهِ فِي سَرْمَدٍ مِنْ ظِلَالِ الْمَوْتِ تَخْلِيدُ
 تَسَاءَلَتْ عَنْهُ أَرْوَاحُ الْفَلَاحِ ، وَمَضَتْ تَضِجُ مِنْ وَخْشَةٍ فِيهَا الْجَلَامِيدُ
 وَأَسْبَلَ النَّجْمُ أَجْفَانًا مُحِيرَةً أَمَضَّهَا مِنْ عَذَابِ الْبَيْنِ تَسْهِيدُ
 مَطْرُوفَةً مِنْ غُبَارِ الدَّهْرِ ، أَتَعَبَهَا طُولُ التَّمَلُّ ، وَإِيمَانُ ، وَتَقْنِيدُ
 تَرَصَّدَتْ مَوْكِبَ الدُّنْيَا ، فَأَزَعَجَهَا أَنْ شَلَّ خُطُوتَهَا فِي الدَّرِّ تَأْيِيدُ
 فَأَرَعَشَتْ فِي الدُّجَى أَهْدَابَهَا خَبَلًا كَأَنَّمَا غَابَ فِي سَوْدَائِهَا عُودُ !
 وَضَاعَفَتْ عِلَّةَ الْأَنْسَامِ سَفَرُهَا جَوَابَةً .. حَظَّهَا فِي السَّيْرِ مَنَكُودُ
 تَمَرُّ بِالْدَّهْرِ حَيْرَى .. مَا تُهَامِسُهُ إِلَّا وَيُرْمِضُهَا مِنْ فِيهِ تَنْكِيدُ
 تَقُولُ : هَذَا عَجِيجُ اللَّحْنِ مُحْتَدِمُ تَرْنُ فِي جَرَسِهِ السَّارَى الْأَغَارِيدُ
 وَأَيْنَ - يَازْهَرُ - نَائٍ كَانَ مُلْهِمُهُ مَا أَسْكَرَ الْكَوْنَ مِنْ نَجْوَاهُ تَرْدِيدُ ؟
 هَذَا النَّشِيدُ فَمُ الدُّنْيَا يُرَدِّدُهُ فَأَيْنَ مِنْ سِحْرِهِ الْقِيثَارُ وَالْعُودُ ؟
 فَطَرَّحَ النُّورُ أَكْثَمًا مُخْبَلَّةً وَقَصَّفَتْ نَفْسَهَا مِنْهُ الْأُمَالِيدُ
 وَذَابَ فِي مَهْدِهِ عِطْرُ يُورِّجُهُ وَغَابَ مِنْ خَدِّهِ سِحْرُ وَتَوْرِيدُ
 وَاهْتَزَّ هَزَّةً أَوَّاهٍ ، يُرَنِّحُهُ فِي سَوْرَةِ الذِّكْرِ إِيْمَانُ وَتَوْحِيدُ

وَقَالَ: كَمْ مَرَّتِ الْأَجْيَالُ عَابِرَةً
 لَكُنَّهَا وَجَمَتْ مِثْلِي، وَقَدْ سُئِلْتُ
 وَإِذْ بِعَاصِفَةٍ هَوَّجَاءٍ قَدْ صَمَعْتَ
 كَأَنَّهَا هَيْجَةٌ الْأَقْدَارِ، مُذْعَصَفَتْ
 مِنْ مَرْجٍ عَبَقَرٍ قَدْ هَبَّتْ مُجَلْجَلَةً
 فِي قَلْبِهَا نَعْمٌ... إِنْ رَقَّ؛ تَخَسَّبُهُ
 وَإِنْ قَسَا، فَقُلُوبُ النَّاسِ وَاجِفَةٌ،
 أَلْقَتْ عَلَى الزَّمَنِ الْمَجْنُونِ حِكْمَتَهَا
 وَأَطْرَبَتْ مِسْمَعِ الدُّنْيَا بِنَعْمَتِهَا
 تُلَقِّنُ الْفَرَقَ الْهَيَّابَ سَوْرَتَهَا
 صَهْبَاءُ مَا جَاوَرَتْ كَأْسًا، وَلَا شَرِبَتْ!
 مَا زَالَ نَدْمَانُهَا حَيْرَانٌ تَكْرُبُهُ
 حَتَّى أَتَى «حَلَبَ» الشَّهْبَاءُ مُنْتَشِيًا
 فِرَاعُهُ مَا رَأَى مِنْ سِخْرِ مَشْهَدِهَا..
 وَمِزْهَرُ «الْمُتَنَبِّيِّ» عَارِفٌ هَزِجٌ
 يُفَجِّرُ اللَّحْنَ، إِمَّا رَنَّ صَادِحُهُ
 فَرَمَزَتْ شَفَتَاهُ بُرْهَةً، وَمَضَى
 يَقُولُ: لَا تَحْشَدُوا عِيدًا لِذِكْرَتِهِ

وَلَحْنُهُ فِي فَمِ الْأَجْيَالِ غَرِيدُ
 وَغَالِ تَبْيَانَهَا عِيٌّ وَتَبْلِيدُ!
 لِهَوْلِهَا الْجِنُّ، وَالْآطَامِ، وَالْيَدُ
 مَا طَاقَهَا فِي شِمَابِ الْأَرْضِ مَوْجُودُ
 كَأَنَّهَا مِنْ عُتَاةِ الْجَنِّ تَهْدِيدُ
 تَأْوِيهِةٌ رَدَّهَا فِي اللَّيْلِ مَعْمُودُ
 وَالْأَرْضُ لَاهِفَةٌ، وَالْكُونُ رَغِيدُ
 فَرَاخٌ يَهْدِي بِهَا شَيْخٌ وَمَوْلُودُ
 كَأَنَّمَا تَفْخَ الزِّمَارُ «دَاوُدُ»
 فَيَنْتَدِي وَهُوَ فِي الْهَيْجَاءِ صَنِيدُ
 وَلَا اسْتَقَلَّ بِهَا فِي الْكَرَمِ عُقُودُ!
 ضَلَالَةٌ عَنْ مَجَانِهَا وَتَشْرِيدُ
 وَجِسْمُهُ مِنْ ضَنْىِ التَّسْيَارِ مَهْدُودُ
 الْخَمْرُ أَخِيلَةٌ، وَالْمَقْلُ رَاقُودُ
 مُعَلَّقٌ بِأَوَاسِي النَّجْمِ مَشْدُودُ
 خَرَّتْ عَلَى وَجْهِهَا مِنْ سِخْرِهِ الصِّدُ..
 وَالْقَلْبُ مِنْ سَكَرَاتِ اللَّحْنِ مَفْثُودُ
 فَكُلْ لَحْنٌ شَدَا مِنْ نَائِهِ عِيدُ!

أبو الطيب المتنبي

نظرات سريعة في حياته

للككتور احمد ضيف

الأستاذ بدار الموم

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الشهير بالمتنبي ، بالكوفة في
محلة يقال لها كندة ، وإليها ينسب ، وكانت ولادته سنة ٢٠٣ هـ .

وكانت الكوفة مقر علماء اللغة العربية ، وبلاد العراق محط العلم والعلماء ، فال
المتنبي إلى تعلم اللغة العربية ، وأكب على القراءة والدرس ، وكان ذكي الفؤاد
قوى الحافظة ؛ فوعى كثيرا من رسائل اللغة ومفرداتها ، وحفظ كثيرا من أشعار
العرب وكلامهم ، وأحاط بغريب مفردات اللغة إحاطة تامة .

ذكر ابن خلكان ، أن أبا علي الفارسي ، قال له يوما : « كم لنا من المجموع على
وزن قبلي » فأجابه المتنبي : « حجلي وطرابي » . قال أبو علي : « طالعت كتب اللغة
ثلاث ليال على أن أجد لهما جميع الجمعين ثالثا فلم أعثر على شيء » . وقد كان من حبه
لمعرفة صحيح اللغة ، أنه ذهب إلى البادية لطلبها ، ومعرفة الصحيح منها . قالوا :
« كان أبو الطيب وهو صبي ينزل في جوار الكوفة ، وكان محبا لأهل العلم ، وصحب
الأعراب في البادية . وجامنا بعد سنين بدويا قححا ، وتعلم القراءة والكتابة ، فلزم
أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم » .

وهذا يدل على مقدار حبه للقراءة والدرس ، ويروون عنه أنه كان قوى
الحافظة حتى لقد كان يطيل النظر أحيانا في الكتاب ، فإذا طواه حفظه وعلق
بذمته ، وهذا - على ما فيه من المبالغة - يدل على قوة الحافظة لديه .

وكان أبو الطيب منذ صباه ذا نفس طامحة ، وآمال واسعة ، يرى نفسه فوق
النفوس ؛ فطمح إلى أقصى ما يطمح إليه إنسان .

خرج به أبوه إلى بادية د كلب ، بالشام فتوسموا فيه هناك الذكاء ، وبهرهم بفصاحة شعره ، وبلاغة قوله ، حتى ظن أنه بذلك قد فاق البدو الخلف .
ثم وجد أن الاضطراب سائد في أنحاء المملكة الإسلامية ، وأنه قد يصير الصلوك أميرا ، والسوق حاكما ؛ فأراد أن يكون أحد كبار الحكام ، وأن يكون أميرا من الأمراء . فقالوا : إنه ادعى النبوة ، واشتهر أمره في ذلك حتى لقب بالمتنى . وذكروا عنه أنه عارض القرآن الكريم بكلمات مسجعة ، كما رووا عنه أنه قال : والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لني أخطار ، امض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ؛ فإن الله قانع بك زينغ من الهدى في الدين ، وضل عن السبيل .

ويروون عنه قصة طويلة ، هي أشبه بأسطورة واختلاق ، في ادعائه النبوة ، ويقولون : إنه اتبعه جماعة من أهل الشام ، وآمن به أناس كثيرون .
وقالوا : إنه كان يدعى أن الأرض تطوى له ، وإنه كان يحبب الصحارى ، ويقطع الرمال ، ويعرف مهاب الرياح ، ونسبوا إليه كثيرا من الأفعال والأقوال التي يظهر أنها مختلفة عليه ؛ لبعدها من عاقل مثله ، قالوا : ولما اشتهر أمره ، وذاع ذكره ، وخيف من زعامته ، خرج عليه لؤلؤ (أمير حمص من قبل الإخشيد) ، وقبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها د كوتكين ، ووضع في رجله وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف وسجنه . وبعد مدة استتابه وأطلقه .
ولما خرج من السجن اتصل بكثير من الأمراء ، منهم أبو العشائر الحسن بن علي ابن حمدان وإلى أنطاكية . فمدحه بقصائد تعد من غرر كلامه ؛ منها قصيدته الشهيرة التي بدأها بقوله :

أُتْرَاهَا لِكثْرَةِ الْعُشَاقِ تَخَسِبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْهَمَاقِ

ثم اتصل بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والجزيرة ، وقدمه إليه أبو العشائر ، وأثنى عليه ؛ فعرف سيف الدولة قدره ، وحسن موقعه عنده ، فقربه ، وأجازته الجوائز الثمينة ، ومالت نفسه إليه وأحبه . وصاحب أبو الطيب سيف الدولة في غدواته وروحاته وحروبه ، ومدحه بمدائح سار ذكرها في كل مكان ،

ورفعت من أمر سيف الدولة ؛ فزادت منزلة أبي الطيب من نفسه ، وقدمه على غيره حتى وغرت صدور حاسديه عليه ، وحقد عليه منافسوه في الخطوة لديه ؛ وشعر المتنبي بذلك ، فصار يوجه نظر الأمير إلى مقاصد هؤلاء الوشاة ، ويلتجئ إليه في التخاص من وشائاتهم ويذكر ذلك في شعره ، كما قال وهو يمدحه :

أَزَلَّ حَسَدَ الْعُسَّادِ عَنِّي بِكِبَرِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسْداً
وقال :

وَلِلْحُسَّادِ عُدْرٌ أَنْ يَشِخُوا عَلَى نَظَرِي إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَذُوبُوا
فَإِنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ عَلَيْهِ تَحْسُدُ أَحَدَقَ الْقُلُوبِ

وكان لأبي فراس النعماني اليد الطولى في إثارة غضب سيف الدولة على أبي الطيب ، لحقده عليه ، حتى لقد كان ينقد شعره ؛ ويرميه بسرقة المعاني في حضرة سيف الدولة ، وكان أبو الطيب يعرض به في قصائده ، ويرميه بسهام كلامه أثناء إنشاده بحضرة الأمير ؛ فلما أنشد المتنبي سيف الدولة قوله :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرَاطُاسُ وَالْقَلَمُ

قال أبو فراس : فما أبقيت الأمير ، إذ وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ ؟ تمدح نفسك بما سرقة من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الأمير أو ذكر له الشعر الذي سرق منه . وهكذا كان يتعقب أبا الطيب ؛ ليحط من قدره .

ومع شدة إعجاب سيف الدولة بالمتنبي ؛ لم يطق صبرا على ما كان به من كبر وإعجاب بنفسه ، وزاد من ذلك وشاية الواشين . ثم حدث أن جرت مناقشة في مسائل لغوية ، بين أبي الطيب وأبي عبد الله بن خالويه النحوي ، بحضرة سيف الدولة ، فقال المتنبي لمناظره : اسكت ويحك ؛ فإنك أعجمي ؛ فمالك وللعربية ؟ فأخرج ابن خالويه من كفه مفتاحا وضرب به وجه المتنبي ، فسال الدم على وجهه وثيابه ، ولم ينتصر له سيف الدولة ، فغضب أبو الطيب وفارقه ، وسار إلى دمشق سنة ٣٤٦ هـ

وقد كان مدح المتنبي لسيف الدولة، وظهوره هو نفسه بمظهر الزعماء، ثم شيوع أمره بين الناس - مما أثار عليه حقد الحاقدين والحاسدين والمنافسين له، حتى عزموا على التكيل به. فما روه في ذلك أنهم كانوا يطاردونه في كل مكان ينزله، وما زالوا به حتى وقع في يداين على الهاشمي، في قرية يقال لها كوتكين فوضع في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف وسجنه. وقد بقى المتنبي في السجن زهاء سنة ثم أطلق سراحه. أو أنه وفد باللاذقية سنة ٣٢١ هـ على معاذ بن اسماعيل وأخبره بادعائه النبوة، فأخبر بذلك والي حمص، فقبض عليه وسجنه. والروايات مضطربة في ذلك. والمفهوم أن سجنه كان من أجل ميوله وخروجه على الإمارات القائمة، ومن حقد الناس عليه وخوفهم منه.

ولما علم به كافور الإخشيدي (حاكم مصر إذ ذاك) - وكانت دمشق تحت حكمه - استدعاه إلى مصر؛ فرحل إليه، فأكرمه كافور، وطالبه بمدحه، فمدحه كما كان يمدح سيف الدولة، ووضع في صف الأشراف والنبلاء، مع أنه عبد خصى، وذلك لحاجة في نفسه. ثم طلب إليه أن يولية (صيدا) من بلاد الشام، أو غيرها من بلاد الصعيد، فأبى كافور عليه ذلك، خوفاً من أن يخرج عليه ويستقل بالحكم، وقال: «إن الذي ادعى النبوة لجدير بأن يخرج على مثلي». فوَقعت الوحشة بينهما حتى أقام كافور عليه الأرصاد والعيون، فانتهر أبو الطيب الفرصة. ورحل من مصر إلى بلاد فارس، ومدح عضد الدولة بين بويه الديلي، وابن العميد، ونال منهما الجوائز العظيمة. ثم خرج إلى الكوفة، فمرض له جماعة فيهم، فأتاك ابن أبي جهل، فقاتلوه هو ومن معه حتى قتل هو وابنه (محمّد) في النعمانية، بالقرب من بغداد، وكان ذلك لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ.

وقد كان عصر المتنبي - كما هو معروف - عصر اضطراب سياسي وعقلي، ففيه كان انقسام الدولة الإسلامية إلى ممالك وإمارات كثيرة، وقد شغلت الميول والأهواء عقول المسلمين، فكثرت المذاهب والآراء الفلسفية والسياسية والاجتماعية. وظهرت حرية الرأي ومسائل الإلحاد، وألبس ذلك كله لباساً دينياً،

ودب ديب التفرقة بين المسلمين . وكان الشعراء يجثون ويروحون بين هؤلاء وهؤلاء . وأثرهم ظاهر في السياسة والاجتماع ، يعتز بهم الأمراء والحكام ، ويتنافسون في الاختصاص بهم . وكان أبو الطيب من أسبق من جلي في ميادين الشعراء ، مع ما كان يحمله في نفسه من إباء وكبرياء ، يرجع إلى صغره ، ومعاشرته لأولاد الأشراف الذين كان يرافقهم في معاهد التعليم في الكوفة . فقد قالوا : إنه كان يختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة وتأتى معهم العلم . ولم يعرف عن المتنبي أنه تآق العلم في معاهد معروفة . ولا درس دراسة منظمة . ولا كان من كبار العلماء أو الفلاسفة في علم من العلوم ، سوى ما كان معروفًا عنه من التعمق في فنون اللغة العربية ، كما سبق ، ولكن مما لاشك فيه . أن انتشار العلوم الفلسفية اليونانية وعلوم الاجتماع ، ونضج الثقافة العربية الإسلامية في تلك الأيام ، وكثرة الجدل والمناقشات في المسائل السياسية والدينية — كان له أثر عظيم في نفس أبي الطيب . وكان بطبعه ذكي الفؤاد ، حاضر الذهن ، قوى الذاكرة ، صفي القريحة ، فوعى من كل ذلك شيئًا كثيرًا ، وألم بكثير من تلك المسائل ، حتى أصبح ذا ثقافة واسعة ، واطلاع عظيم .

ولكنه استعان بكل ذلك على تغذية شعوره ونفسه الطامحة ، وتقوية ملكة النقد في نفسه ، حتى أصبح من الغلاة في ذلك .

ليست حياة المتنبي حياة شاعر أديب فحسب ؛ بل حياة رجل سلمي ، أو رجل من أصحاب الاطماع والنفوس الكبيرة والآمال الواسعة ، كان يعتقد بحق أنه أجدر من غيره بالاستئثار بالملك ، وإدارة الشؤون العامة ، واكتساب جاه عظيم ، وسلطان كبير ؛ لشدة ذكائه ، وقوة إدراكه ، ورجحان عقله ، وسداد رأيه . وزاد في طموحه ما كان يراه : من ضعف هؤلاء الحكام من عرب وعجم ، واضطراب في الإدارة والسياسة ، واحتقار هؤلاء الناس جميعًا ، بين حاكم ومحكوم . ألم يكن أحق بالحكم والزعامة من ذلك العبد الخصى (كافور) ؟ ألا يكون أقدر على سياسة الدولة من مثل هؤلاء الحكام ، الذين لا يفهمون ، ولا يعون من سياسة الأمم

سوى السلب والنهب والبطش ؟؟ وهل هذه الأسم التي يقودها مثل هؤلاء الجبهة ، يكون فيهم من يضارعه عقلا وسدادة رأي وحكمة وحصافة ؟؟ ثم ما هذا الحظ العائر الذي ينزل بمثله إلى هذا الدرك ؟ وما هذا القدر العجيب الذي يرفع من هو دونه إلى أعلى المراتب ؟؟

هذه الهواجس وأمثالهـ بما لاشك في أنها تملأ رأس المتنبي وتستولى على عقلهـ هي التي أملت عليه معاني شعره ، وهي التي حفزته ودفعته لأن يبثها في كلامه . وهي التي هيأت نفسه وأعدتها لأن تكون نفسا متشائمة ، مبتثسة صاخبة هذا الصنخب ، ثائرة نائمة من العالم وما فيه ، حقوداً أحيانا — بل كثيرا — على الناس والوجود وأحوال الاجتماع . ذلك لأنه كان يرى نفسه فوق النفوس ، فينظر إلى الناس نظرة احتقار وازدراء ، ويطمح إلى أقصى ما يطمح إليه انسان . وكانت هذه الصفات النفسية والخلقية هي كل شعر المتنبي ، وأن شعر المتنبي هو كل ذلك .

وليس ما يمتاز به شعره من قوة التفكير ، وكثرة النظر في أحوال الناس والحياة ، ناشئا من القراءة والدرس كما قلنا ، أو معرفة كلام الحكماء والفلاسفة — بقدر ما هو منبعث من نفسه ، وما تمتلئ به من الحوادث التي وقعت له أو شاهدها ، وما كانت تمليه عليه ميوله وأطباعه ، وما كان يرمى إليه في حياته .

وهذه النفس الكبيرة الطامحة ، التي دفعته إلى التعبير عما يحول بها ، هي التي جعلت شعره في هذه المنزلة ، وهي التي جعلت هذا الشعر حقيقة لاخيالا ، وصورا من صور الأحوال النفسية لا صناعة ولا تعملا . والحقيقة — أيا كان مصدرها — إذا اتجهت إلى القلب نالت منه وسكنت فيه ؛ لأن هذه الآلام والاطماع والميول ، آلام واطماع وميول لكثير من النفوس البشرية . وهي حنين مرجع ، وأنين مبثوث في قلوب الشعراء . تكشف بها عن غيرها من النفوس البشرية ، ولكن ليس كل شاعر قادرا على أن يرسمها رسما جذابا ساحرا ، يملك النفوس ويستولى على العقول . وليست بلاغة الشعر في سبك العبارة ودقة الصناعة اللفظية وحدها ، بل فيما يبثه الشاعر بين عباراته من نفثات صدره ، وما

يجول بنفسه، ومن ذلك الروح السرى الخفى المعنوى الذى يمتلكه الفنى وحده فى رسم الحقائق وإبرازها، لأن الشاعر الفنى يرمى إلى غرضين: غرض قى صرف، وهو ما يدعو إلى الجمال الذى يجلب السرور والاعجاب للقراء، بارتياح النفس إلى المعاني الجزلة، والألفاظ المختارة، وتناسق العبارة، وحسن الأسلوب، وتأنيق التراكيب. وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم من أنواع المعاني والبيان والبديع. وهذا الجزء الفنى من البلاغة، هو أحد أركانها وأكبر دعائمها؛ إذ بدون ذلك لا تعد البلاغة من فنون الجمال فى شئ.

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام، التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس، وأسرار الكون، وحقائق الموجودات، والآراء الاجتماعية والفلسفية، وصور الناس والإنسانية. فغرض الشاعر أن يتسرب فى النفوس، ويستولى عليها بجمال الافتنان، ويجذبها إليه بأسلوبه وبيانه، ويهذبها ويثقفها بمعانيه؛ ليرشدها إلى حقيقة من الحقائق الإنسانية. ولقد يدرك الفنى ما لا يدركه غيره، لأنه دقيق الإدراك، قوى الملاحظة، سريع الخاطر، تخترق نفسه الحجب، يرى ما لا يراه غيره، لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء، فى الإفاضة على الإنسان من أسرار الكون وحقائق الوجود. ولا شك فى أن أبا الطيب المتنبي من هؤلاء الشعراء.

لقد اشتهر أبو الطيب بأنه شاعر الحكمة، وقال عنه الأدباء: إنه وصاف للحروب ابتدع فى وصفها وأجاد رسم صورها، كما نظم الحكم والأمثال. والحقيقة أنه جعل شعره مظهرا من مظاهر التفكير الإنسانى، وصورة من صور العقول المفكرة، فأودعه جل ما يجول بالفكر ويمر بالخاطر: من أثر النظر فى الحياة وأحوالها، والناس وأخلاقهم. ولكنه مزج ذلك كله بميوله وأخلاقه. ويكاد يكون كل معنى ذكره فى شعره مصبوغا بتلك الصبغة الخلقية الشخصية، ظاهرة فيه أهواؤه وأغراضه: من نغمته على الدنيا ومن فيها، واستعظامه قدر نفسه والخط من شأن غيره.

ومع أنك تجده شاعراً، فيلسوفاً، كبير النفس، على الهمة؛ تجده قد نزل بنفسه فمدح وتملق، واحتمل ما قد يكون من جراء ذلك من كذب صراح، أو ما يجعله عرضة للطعن في أخلاقه؛ كما يرى ذلك من مدحه وذمه لشخص واحد؛ حيث يرتفع به مرة إلى السماء، وينزل به أخرى إلى الدرك الأسفل؛ كما فعل في مدائح كافور ولكنه مع ذلك، شاعر قد في أسلوب التفكير وانتحائه منحى جديداً في الشعر العربي منبعثاً من نفسه الفياضة، المملوءة بالمعاني النفسية والاجتماعية، لا بالأخيلة والألفاظ. وتجده ذلك في كل أنواع شعره. وكثيراً ما تغلب هذه النزعة عليه، فإذا مدح خيل أحياناً أنه لا يريد بكلامه مدحاً، وإنما يتخذ ذلك وسيلة لينفس بها عما في نفسه ويكشف عما بها، وكأنه نسي أنه يمدح إنساناً يرجو منه الخير أو العطاء، بل يشكو الزمان وأحواله، ويذم الناس والحياة، ويغضب من الأقدار، وتجول نفسه جولات في كل معنى من هذه المعاني، وقد نسي موقفه واستسلم لنفسه الهاججة الثائرة الناقمة. فإذا أفرغ جعبته من ذلك، رجع إلى المدح وقد هدأت نفسه، وأخذ يكيل الثناء لمدوحه كيلاً: كما قال يمدح المغنيث بن علي بن بشر العجلي:

فُوَادُ مَا تُسْلِيهِ الْمُدَامُ	وَعُمُرُ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللَّثَامُ
وَدَهْرُ نَاسِهِ نَاسٌ صِفَارُ	وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُشْتُ ضِخَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْمَيْشِ فِيهِمْ	وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
أَرَانِي غَيْرَ أَنَّهُمْ مُلُوكُ	مُقْتَحَّةٌ عِيُونُهُمْ نِيَامُ
بِأَجْسَامٍ يَحْرُ الْقَتْلُ فِيهَا	وَمَا أَقْرَانُهَا إِلَّا الطَّعَامُ
وَحَيْلُ مَا يَحْرُ لَهَا طَمِينُ	كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسَهَا ثَمَامُ
خَلِيلُكَ أَنْتَ، لَا مَنْ قُلْتَ خَلِي	وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلَامُ
وَلَوْ حَيْرَ الْحِفَاطُ بغيرِ عَقْلٍ	تَجَنَّبَ عَنْقَ صَيْقَلِهِ الْخُسَامُ
وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ	وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّعَامُ

وَلَوْ أَنَّمْ يَعْلُ إِلَّا ذُو مَخَلٍ تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ
وَلَوْ لَمْ يُزْعَ إِلَّا مُسْتَحَقٌّ لِرُبَّتَيْهِ أَسْمَهُمُ الْمَسَامُ
ويصف لك الخلق المذموم المعروف في الناس ، ويشرح لك موقفه وهو يريد أن يرشد العالم إلى ما يجب اتباعه فيقول :

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِبَاءً جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَضْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ
وَأَنْفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنْ الْكَرَامِ
أَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الْأَوْلَادِ أَخْلَاقُ اللَّثَامِ
وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بَأَنِّ أَعَزَى إِلَى جَدِّ هُمَامِ
عَجِيتُ لِمَنْ لَهُ قَدْرٌ وَحَدٌّ وَيَنْبُو نَبْوَةَ الْقَضِمِ الْكَهَامِ
وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْعَمَالِي فَلَا يَذُرُ الْعِطَى بِلَا سَنَامِ
وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وينتعي على الانسان أمله في الحياة ، وينكر على طبيعته الزهد . ويتمه بعدم القناعة إلا عند العجز ، وهو يظهر جلده وتحمله لأعباء الحياة ، ويصور نفسه زاهدا في الدنيا ، أو متحملا لأشد أعبائها فيقول :

وَمَنْ لَمْ يَعَشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ
نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَبَالِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فَوَّادِي فِي غَشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامُ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ

وَهَانَ ، فَمَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي
وينكر بعض أخلاق الناس في رسمها في كلامه ، ويعقب عليها برأيه ، كأنه
حكيم يقول الحكمة . فيكون كلامه مثلاً سائراً كقوله :

وَمَا قَتَلَ الْأَخْرَارَ كَالْفَوْرِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا؟
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَمَلِ

مُضِرٌّ ، كَوَضَعَ السَّيْفُ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
ويرثي ، فتراه ينظر نظرات بعيدة في الحياة وأحوال الناس ، ويضع الرفيع
في كلامه أمام الوضع ، والعامة والخاصة في ميزان واحد ، ويذكر الإنسان
بنهاية هذه الحياة ومآل الناس فيها ، ويتعمق في الخيال ، ويغلظ في القول ،
ويقسو في إبراز المعاني ، حتى يحملك على الزهد واحتقار الدنيا ؛ فيقول :

نَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا ، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبَخَّلْ أَيْدِينَا بَارَوْاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ
لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ
يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مَيْتَةً (جَالِينُوسَ) فِي طَبِّهِ
وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ
وَغَايَةُ الْفَرْطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةُ الْفَرْطِ فِي حَرْبِهِ
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ !
وليس في وسعنا الآن أن نقول كل شيء عن المتنبي وشعره ، فنكتفي بذلك .

نشأة المتنبي

للمؤستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

ناظر مدرسة عثمان مامر باشا

(والأستاذ بدار العلوم سابقا)

نسب : اختلف النسابون في نسبه ، ف قيل هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور .

وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار لا أعلم في شعراء الاسلام رجلا تناوله الناس من العلماء والأدباء بالتجليل لنفسه ، ونقد شعره وتقريره ، كأبي الطيب المتنبي ، وأبي العلاء المعري . وفي كل جيل تظهر لأهل الأدب مباحث في نواحيه المختلفة ، وآراء ومذاهب فيه وفي شعره وفنونه التي طرقها وشهر بها . وقد مضى على وفاته ألف سنة ، والناس لم ينتهوا في شأنه إلى أمر يحسن السكوت عليه . وسوف تمر ألف سنة والالف سنة وذكر المتنبي جديد ، والبحث في نفسيته وعقليته وعواطفه وميوله وحكمته وشجاعته وغزارة علمه متواصل ومتدارك ، وسيسمع غيرنا بعدنا آراء أدباء زمنهم فيه وفي شئونه ونواحيه المختلفة ، بكيفية لم تطرق أسماعنا ولم يعرفها من قبلنا . فان الرجل بحق ترك في الناس دويا هائلا كما قال

وَتَرَكْكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أُنْمَلُهُ الْعَشْرُ

وإني لأرى من الأثرة أن ينفرد أبو العلاء المعري بأن الناس يكررونه ليفهموه ، فقد شاركه في هذا الوصف الذي يدل على العبقرية والنبوغ الفائقين أبو الطيب المتنبي إذ يقول المعري :

يكررنى ليفهمنى رجال كما كررت معنى مستعادا

وعلى ذكر أن الناس يكررون المتنبي ليفهموه أقول: إني رأيت كتابة لأحد الأدباء وقد تكلم على ما ذكره بعض الشعراء في أبيات، من أن أبا المتنبي كان يبيع الماء في الكوفة، فوقف ذلك الأديب يتساءل، من أين جاءت للتنبي هذه النزعة العالية، نزعة التطلع إلى الإمرة، وتبوء عرش الملك وقد نبت في بيئة وضيعة، وامتهن مهنة وضيعة، وهي بيع الماء، وليس من شأن من كان كذلك أن تنزع به همته إلى معالي الأمور؟ وإني أجيب ذلك الأديب الفاضل بما يأتي:

أولا: بأنه أخذ قول خصوم المتنبي حجة عليه وبرهانا ثابتا، لا يقبل النفي، دون أن يقدم ذلك الهاجى، أية حجة على مارمى به المتنبي، من أن أباه كان يبيع في الكوفة الماء؛ فكان من حقه أن يتثبت قبل أن يقطع.

ثانيا: أنى لا أرى مارمى، من أن يبيع الماء أمانة من أمارات المهانة؛ فقد يكون احتراف يبيع الماء إنما نشأ عن نزعة كبرياء، وعلو في النفس، عزفت به عن الوقوف موقف الذلة، يسأل كريما أو بخيلا يعطى أو يمنع. وقد تذكرت (والشئ بالشئ يذكر): أنه كان يوجد في أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، رجل يسكن السكاكين والمقاص بالآجر. على مسن له؛ وكان اسمه عبد المجيد السنان؛ وكان الرجل إذا فرغ من عمله، وحصل رزقه، يخلع ملابس الاعتمال، ويلبس عمامة عراقية، وملابس تشبه ملابس العلماء في اسطنبول، ويجالس العلماء الفضلاء، ويباحثهم في بعض مباحث علم الكلام، ويظهر بمظهر المتفوق الفالج بالحجة. فوقع إلى المنصورة واتصل بمفتيها، الشيخ محمد راضى الكبير، وكان عالما فاضلا، ووُجد السنان في مجلس لمدير الدقهاية، المرحوم خليل دفت باشا. فقال له الباشا: إذا كنت على شئ من العلم، فلماذا تحترف حرقة سن السكاكين. وهى حرقة حقيرة؟ فقال له: إني بهذه الحرقة أكسب عيشى بعمل يدي؛ وأكرم نفسى عن أن أقف يبابك، أو يباب غيرك سائلا، فيعطينى أو يردنى.

وغضب الباشا على المفتى، لانصاره لهذا الرجل؛ فكتب إلى نظارة الحقانية أن المفتى يروج آراء رجل زنديق، ينشر الإلحاد في مديرية الدقهلية؛ فما كان من نظارة الحقانية إلا أن رفعت المفتى، دون تحقيق ولا تبين. وجاء المفتى وقابل ذوى

الحل والعقد ، فعين مدرسا في الأزهر ، وعرف له القائمون على الأزهر فضله ، وأجرى عليه ما لا ينقص عن مرتبه الذي كان يتقاضاه ، وقد كتب الشيخ السهودي من علماء المنصورة كتابا كبيرا في التشنيع على الرجل السنان ، وعلى المفتي ، انتصاراً لخليل عفت باشا .

وشاهدني في ذلك ، جواب عبد المجيد السنان لعفت باشا ، فليس احتراف الحرقة التي يعتبرها الناس مهينة بالدال على هوان محترفيها ، ولا بالذي يطفئ نزوات النفس إلى معالي الأمور - وقد كانت كناس يكنس الشوارع وينقى عنها الأذى وينشد .

وأكرم نفسي : إني إن أهنتها - وحققك - لم تكرم على أحد بعدى فسمعه إنسان فقال : له الويل ؛ وأى هو ان تكرم نفسك عنه ، وأنت على هذه الحال ؟ فقال له الكناس : أكرمها عن الوقوف على باب بخيل مثلك . وبعد هذا . فإن أبا الطيب قد أجاب ذلك الأديب بقوله :

وَكَمْ مِنْ غُلَامٍ عَلمَ المجدَ نَفسَهُ ! كَتَعَلِيمِ سَيفِ الدَّوْلَةِ الطَّمَعِ وَالضَّرْبَا
من قصيدته التي مطلعها :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ ، وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا

فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

نشأ المتنبي بالكوفة ، وقدم الشام في صباه ، واشتغل بفنون الأدب ومهرفها ، وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشها ؛ لا يسأل عن شيء إلا استشهد عليه بكلام العرب من النظم والنثر ؛ حتى قيل إن الشيخ أبا على الفارسي ، صاحب الايضاح والتكملة ، قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعلٍ ؟ فقال المتنبي في الحال : حجلي ، وظربي . قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجده لهُذين الجمعَين ثالثا فلم أجده .

كان المتنبي خصب الذهن ، سريع الخاطر ، جزل اللفاظ ، غواصا على المعاني ،

والحكم، ينظمها ويسيرها في الناس؛ وغزله جيد على قامة؛ أما وصفه للأشياء الطبيعية أو المادية والابل والصحارى والجبال والحرب والطعان، فياً، من وراء الغاية كان المتنبي متبرماً بالزمان الذي لم يساعفه على بلوغ مراده، وبملوك زمانه؛ لأنه كان يراهم دونه في الفهم والعلم وسائر المواهب التي تكون بها السيادة، وقد تبنكوا في العروش، وعصبت برءوسهم التيجان، وأطلقت أيديهم في الأموال التي يجبوها من الرعية، ويده صفر من كل ما أوتوا؛ وكان متأففاً من شعراء دهره الذين يحقدون عليه، ويغبطونه حقه، ويذمون به بألوان المذام، ويحقدون أصله، وهو تارة يحقر شأنهم ويبلغى ذكركم (كما ألفت في الدية الحوارا) وتارة يسم آثامهم بهجوه، ولا ينظر إليهم إلا من عل.

فمن قوله في شعراء دهره :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُّوا بِذَمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْمُضَالَا ؟
وقوله :

خَلِيلِيَّ إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلَمْ مِنْهُمْ الدَّغْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ ؟
فَلَا تَعْجَبَا ، إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ
ومن قوله في حساده :

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّادَا
وقوله :

بَلَنْتُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ النُّورَ رُتْبَةً أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ
إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوْا بِلُحْيَةٍ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : الْحَقِّ
وَمَا كَدُ الْحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمُ الْبَحْرَ يَفْرَقُ
وقوله :

وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِيمَا يَرِينِي أَصُولٌ ، وَلَا لِقَائِلِيهِ أَصُولُ

أُعَادَى عَلَى مَا يُوجِبُ الْحُبَّ لِلْفَى وَأَهْدَأُ ، وَالْأَفْكَارُ فِي تَجْمُولٍ
وقوله :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضُبْنِي شُوَيْرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنُنِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟
لِسَانِي بِطُغْيِي صَامِتٌ عَنْهُ دَادِلٌ وَقَلْبِي بِصُغْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلٌ
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ

والذي يدل على قدر المتنبي وفضله، وبلوغه الغاية التي لا يدانيه فيها أحد من خصومه (مهما علوا وكرموا) من عاصروه أو عاشوا بعده إلى يومنا الحاضر. أنهم وسموه بكل أنواع العيوب، ونسبوا إليه ما قدروا عليه من التيه والكبر، والبخل والحرص على المال، وضعة الأصل، والتقاب في المبادئ. والأخلاق. ومع ذلك كله، لم تنس الأيام الناس ذكره، ولم تمنع الأدباء من التمثل بأبياته، والاستشهاد بما سير في الناس من أمثال، وما أشاعه فيهم من الحكم الغالية، والنصائح العالية، وشعره في المدح والقدح سلوة كل منشد، وأغنية كل غريد مردد. فهو جديد على مرور الأيام، وكروز الأعوام، لم تبُلِ الأيام جدته، ولم تخلف ديباجته، ولم يزل الناس، يفتخر الواحد منهم، بأن يقول: قال أبو الطيب كذا، أو قال المتنبي كذا، ويأتي بالدرر اليتيمية من أقواله، يفصل بها عقود مدحه أو قدحه. ولا نجد أحدا يقول: قال شيوخ ابن خلدون، أو قال فلان أو فلان من خصومه والشاتين له، والزارين عليه من أهل جيله أو من بعدهم.

ولقد أدر كنا المرحوم الشيخ أحمد أبو القزح، شاعر دمنهور في القرن التاسع عشر، وهو إذا نظم شطر بيت أعجبه معناه أو بيتا راقه حسنه، قام واقفا متبخترا وهو يقول: والله ما قال مثله المتنبي، وهو لا يأبه لغيره، ولا يجرى لسانه بذكر أحد من حساد المتنبي والحاقدين عليه إهانة لهم، وتنزيها لشعره أن يقاس بشعر أحد سواه.

وأما قوله في الملوك وتكبره عليهم ، فقد جاء في ذلك قوله :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتُهَا وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الضَّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَهْوَنَ مِنْ مَرَأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبَرُ
وقوله :

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
وقوله :

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقًا وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِيبُ أَغْنَاقِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لَكَ لَهَبَوَاتُ السُّودِ، وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وقوله :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ؛ وَمَا تَفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عُهودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمٌ

ولقد علم الخاص والعام ، أن أبا الطيب كان متقلبا في أخلاقه ، لا يصبر على طعام واحد ، ولا يتحاشى أن يذم بعد مدح ، وأن يطرى بعد قدح ، ولكن هل كل ذلك يصرف وجوه الناس عن شيء مما في قوله من الأدب ؟ لا ، بل كان كل ذلك حاديا للناس على التقاط الحكمة من أصداف أقواله ، مغريا لهم بالازدياد من النهل من معينه ، والاعجاب بما تضمنه قوله من صنوف الأغراض في كل باب ؛ يشهدون له بالبراعة في كل باب طرقة . وأما الناظرون إلى الأخلاق النفسية والفضائل المكتسبة والفطرية ، فقليلون في جنب من يعجبون بأقواله على أي حال صدرت ، وفي أي غرض وردت .

عبد الوهاب النجار

ثقافة المتنبي

بقلم علي النجدي ناصف

.ننتش المعارف بلوى

لما ترعرع المتنبي ، واشتد عوده ، دفعه أبوه إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ؛ فتعلم فيه دروس العربية شعرا ولغة وإعرابا (١) . وليس في الكتب التي بين أيدينا ما يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم ، بل إن في بعضها ما يساعد على ترجيح أنه لم يكن يحفظه ، ولا ينشط لقراءته . حدث علي بن حمزة البصري أنه ابتلى من المتنبي خصالا بعضها ذميم ، والآخر حميد ؛ فمن خصاله الذميمة أنه لم يكن يصلي ، ولا يقرأ القرآن (٢) .

نعم ، في غير موضع من شعره إشارات إلى بعض قصص القرآن : مثل قوله :
 لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْيَينِ أَعْمَى رَأَيْهُ
 أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ
 أَوْ كَانَ لُجُجَ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ
 وَمَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى
 لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ - حِرْنَ شُمُوسَا
 فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ - لَأَغْيَا عِيسَى
 وَقوله :

لَمَنْ مَالٌ تَمَزَّقَهُ الْعَطَايَا
 وَلَا نَدْوُوكَ صَاحِبَهُ قَتَرَضَى
 تُحَايِدُهُ كَأَنَّكَ سَامِرِيٌّ
 وَيُشْرِكُ فِي رَغَائِبِهِ الْأَنَامُ؟
 لِأَنَّ بِصُحْبَةٍ يَجِبُ الذَّمَامُ
 تُصَافِحُهُ يَدٌ فِيهَا جُذَامُ

(١) خزائن الادب : ٢ : ٣٠٣ (٢) الصبح المتنبي : ١ : ٧٧ بتصرف .

(٢ - صحيفة دار العلوم)

وقوله :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانٍ يَعْقُوبِ
ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلاً على حفظه القرآن ، فقد يكون كل ما قاله
في هذا الباب مجرد أثر من آثار ثقافته ودراسته ، بل من آثار بيئته الخاصة (١)
ونشأته الإسلامية ليس غير .

وبعد أن استوفى حظه من الكتاب ، خرج إلى البادية ، فلبث سنين في أهلها
يعيش بينهم ، يأخذ عنهم اللغة والبيان (٢) . ولعله كان يعنى منازل به البادية كلها أو
بعضها في قوله :

دَرُّ دَرِّ الصَّبَا ! أَيَّامَ تَجَرٍّ رِ ذِيُولِي بِدَارِ (أَثَلَةٍ) ، عُوْدِي
وقوله :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ (الْمُذْنِبِ وَبَارِقِ) تَجَرَّ عَوَايِنَا ، وَتَجَرَّى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْجَحُونَ قَنِصَهُمْ بِفَضْلَةٍ مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْمَفَارِقِ
وَلَيْسَ تَوَسَّدْنَا (الثَّوِيَّةَ) تَحْتَهُ كَانَ ثَرَاهَا عَنَبٌ فِي الْمَرَاثِقِ
فإذا صح ذلك يكون الشاعر لم يمعن في البادية ؛ لأن هذه الأماكن غير بعيدة
من الكوفة ، فدار أثلة ، والعذيب ، وبارق مواضع بظاهر الكوفة . وبين الثوية
والكوفة ثلاثة أميال (٣) .

وكان وهو في الكوفة يغشى مجالس العلماء والأدباء ، ويختلف إلى الوراقين ،
يروى نفسه الظامّة ، ويستوفى حظه من الثقافة والتّذيب . ولسنا نعرف من
أساتيده فيها إلا أستاذين اثنين : حدث البغدادي عن أحدهما ، قال : كان المتنبي

(١) كانت جدته تقيّة صالحة ، ويظهر أنها كانت تقرأ ، كما يفهم من قوله :

تعب من لفظي وخطي كأنما هـ ترى بحروف السطر أغربة عصما

(٢) المصباح المنبي : ١ : ٦ (٣) شرح العكبري : ١ : ١٩٤ ، ٤٣٦

في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة ، من المتفلسفة ، فهو سه وأضله كما ضل^(١) وقد بحث طويلا عن أبي الفضل المذكور ، مستديرا بما ذكر البغدادي من سماته ، فلم أعثر له على عين ولا أثر .

وأما الآخر فأبو الحسن ، المعروف بالناشي . الأصغر ، أحد الشعراء المصنفين . وقد حدث عن نفسه ، قال : كنت بالكوفة سنة ٢٢٥ ، وأنا أمل شعرى في المسجد الجامع بها ، والناس يكتبون عني . وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعد لم يعرف ، ولم يلقب بالمتنبي ، فأملت القصيدة التي أولها :

بِأَلِ مُحَمَّدٍ عُرِفَ الصَّوَابُ وَفِي آيَاتِهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ
وقلت فيها :

كَأَنَّ سِنَانَ ذَابِلِهِ ضَمِيرٌ فَلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ لَهُ ذَهَابُ
وَصَارِمُهُ كَبِيعَتِهِ بِحُجْمٍ مَقَاصِدُهَا مِنْ الْخَلْقِ الرَّقَابُ^(٢)
فلمحته يكتب هذين البيتين ، ومنهما أخذ ما أنشدته ونى الآن من قوله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عُبُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
وَقَدْ صُغِتَ الْأَسِنَّةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطِرُنَ إِلَّا فِي فُؤَادٍ^(٣)

وروى أبو الحسن العلوى أن وراقا كان يجاس إليه المتنبي ، قال : مارأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان ، فقلت له : وكيف ؟ فقال : كان اليوم عندي ، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي (سماه الوراق ، ونسبه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ؛ ليبيعه ، قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا ، أريد يبعه ، وقد قطعني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبعيد . فقال له : إن كنت حفظته فما لي عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه على إلى آخره ، ثم استأببه فجعله في كفه ، وقام ،

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣٠٦ (٢) خم : مكان

(٣) معجم الادبا : ٥ : ٢٣٩ و ٢٤٠ -

فعلق به صاحبه ، وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ؛ قد وهبته لى . قال :
فمنعناه منه . وقتلنا له : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه (١) .

وتعد هذه النادرة من أعدل نواذر الأذكياء ، وأدخلها فى باب المعقول ،
إذا قيست بنظائرها ، مما يروى عن أمثال عبد الله بن عباس ، وبديع الزمان
الهمداني ، وأبي العلاء المعرى ، وغيرهم من الأذكياء المشهورين . وهى على أى حال
دليل على أن الغلام كان ألعيا لقينا ، فإن الناس أخرى ألا يعزوا وقائعها إليه
إلا إذا آنسوا منه سرعة الحفظ ، وصحة القرينة .

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان
وفى بلاد الشام خرج المتنبي إلى البادية أيضا ، فشافه الأعراب ، وبلغ
غايته من اللغة والبيان . وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة فى البادية ، وكان
علماء اللغة يغتمون قدوم الفصحاء من أهلها ليحاوروهم فى أساليبها ، ويستأنسوا
بسليقتهم فى تقرير قواعدها ، واستبانة الصواب فيما استبهم من مسائلها (٢) .
وكان المتنبي محبا للقراءة ، مشغوبا بالكتب : يجمعها ، ويحافظ عليها . حدث
وكيل داره بحلب ، قال : كان المتنبي يقبل على دفاتره كل ليلة للدرس والقراءة .
وقد لا يابوى إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل (٣) . وليس ذلك بكثير ولا مستغرب
من الذى يقول :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجٌ سَابِجٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

وقال أبو نصر الجليلى فى قصة مقتله : . . . وافانى المتنبي ، ومعه بنال موقرة
بكل شىء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة ، والكتب الثمينة
والآلات . . . وكان أكثر إشفافه على دفاتره . لأنه كان قد اتخاها ، وأحكمها قراءة
وتصحيحا (٤) . . .

(١) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٦٣٥ ، ومعجم
الأدباء : ٥ : ٢٨ (٣) الصبح النبى : ١ : ٨٠٧٩ ، بتصرف . (٤) الصبح
النبى : ١ : ٢٣٥

وصدق أبو نصر ، فقد رأينا ابنه محمدا يفلت وحده من مقتلة أبيه ، ثم لا يكاد يذكر كتبه . ويتمثل له مبلغ حرصه عليها . حتى ينقلب راجعا في غير روية ولا وعى ، لعله يستنقذها ، فيقتل دونها مع المقتولين .

وقال صاحب إيضاح المشكل : « وكان المتنبي يحفظ ديوانى الطائيين ، ويستصحبهما في أسفاره . . فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديوان البحرى إلى بعض من درس على ، ، وذكر أنه رأى خط المتنبي وتصحيحه فيه (١) .

وقال ابن خلكان في ترجمة ابن الرومى . . . وكان شعره غير مرتب ، ورواه عنه المتنبي ، ثم عمله أبو بكر الصولى ، ورتبه على الحروف ، وجمعه أبو الطيب (٢) . . وهؤلاء الشعراء الثلاثة - كما لا يخفى - من أبعد شعراء العربية صيتا ، وأزكا هم قريحة ، وأكرمهم تناجا ، وأبرعهم فنا . وما منهم إلا صاحب شأو بعيد ، هو فيه الفارس المجلى ، ومبتدع طريقة فى صناعة الشعر ، يتفرد وحده بالإحسان فيها إلى الغاية القصوى بجملة شعرهم تعد بحق خلاصة الشعر العربى كله ، وأحفل معارضه بآثار البراعة والنبوغ ؛ وبحسبك أن يسهم فيه حبيب بفنه الرائع ، وفكره الدقيق ، وحكمه العالية ؛ والوليد بخياله السرى ، وتصويره الأنيق ، ولفظه الرشيق ؛ وابن الرومى بمعانيه المخترعة ، وتوليده العجيب ، واستقصائه البالغ . ولم تكن هذه الجملة على ضخامة قدرها وجلالة خطرها - كل ما يحفظ المتنبي من الشعر ، لأن الرجل - كما علمت - كان سريع الحفظ . مشغوقا بالقراءة والتحصيل وسترى فيما نسوقه اليك من أبناء تعلمه ومناظراته أنه كان يحفظ لآنى نواس ، وكثير ، والعدوانى . ونذكر هنا أنه كان يكبر شعراء الجاهلية ، ويرى فى أشعارهم المثل الأعلى للشعر قال :

لَا تَجْبُرُ الْفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هَاهُنَا يَتَا ، وَلَكِنِّي الْهَزْبُ الْبَاسِلُ
مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كَلْمُهُمْ شِعْرِي ، وَلَا سَمِعْتَ بِسِحْرِ بَابِلُ

وقال يشيد بفضل النابغة :

سَمِعْتُكَ مُنْشِدًا يَنْتَنِي زِيَادٍ نَشِيدًا مِثْلَ مُنْشِدِهِ كَرِيمًا
فَمَا أَنْكَرْتُ مَوْضِعَهُ وَلَكِنْ غَبَطْتُ بِذَلِكَ أَعْظَمَهُ الرَّيْمَا

فلا جرم أنه كان يحفظ لشعراء الجاهلية أيضا؛ وأنه كما حفظ للعدواني لم يفته أن يحفظ لامرئ القيس والنابغة وزهرو من اليهم من شعراء الجاهلية المقدمين . على أننا نلح في أنحاء من شعره شواهد غير قليلة تنبئ هنا وهناك ، وتشير إلى أنه كان يحفظ لجمع كبير من الشعراء في كل عصر من العصور .

ثم إنه كان في كل بلد رحل إليه يلتقي بالعلماء للدهس والمناظرة ، ويقصده الطلاب للرواية والأخذ . ففي حلب لقي طائفة جليلة من أعيان العلماء والأدباء ؛ كابن خالويه ، والفارسي ، وابن جنى ، وأبى فراس ، والرفاء ، والنابغة ، وغيرهم . ووقعت له مع كثير منهم مجالس ومجاولات في مسائل شتى في العلم والأدب . روى الطرائفي أن ابن جنى كان يحضر الكثير عند المتنبي في حلب ، وينظره في شيء من النحو (١)

وحدث العكبرى أن المتنبي حضر يوما مجلس سيف الدولة ، وبين يديه ترنج وطلع ، وهو يمتحن الفرسان ، فقال لابن شيخ المصيصية (٢) : لا تتوهم هذا للشرب ، فارتجل المتنبي ثلاثة أبيات ، مطلعها :

شَدِيدُ الْبُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تُرْنِجُ الْهِنْدِ ، أَوْ طَلْعُ النَّخِيلِ

فأنكر عليه ابن خالويه ترنج ، وقال : المعروف أترج ، فاستشهد أبو الطيب برواية أبي زيد أنهما مقولان (٣) .

وقال صاحب وفيات الأعيان في ترجمة الفارسي : وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه عليه في سنة ٣٤٩ ، وجرت بينه وبين أبي

(١) معجم الأدباء : ٥ : ٢٥ (٢) مدينة على ساحل البحر الرومي ، تجاه طرسوس (وفيات الأعيان : ١ : ٤٧) (٣) التبيان : ٢ : ٧٥ .

الطيب المتنبي مجالس^(١). وقال في ترجمة النامي: ... وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الإنشاء...^(٢).

وحدث صاحب الصبح المنبي، قال: حضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن نصر البازيار، وزير سيف الدولة، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوي، قماريا في أشجع السلي، وأبي نواس البصري، فقال ابن خالويه: أشجع أشعر، إذ قال في هرون الرشيد، رحمه الله تعالى:

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان: ضوء الصبح والإبلام
فإذا تنبه رعته، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام
فقال المتنبي: لأبي نواس ما هو أحسن في بني برمك، وهو:

لم يظلم الدهر إذ توالى فيهم مصيياته دراكا
كانوا يُجَيرون من يعادى منه، فعاداهمُ لذاكا^(٣)

وفي مصر كان المتنبي يختلف إلى جامع عمرو، فيتسابق الناس إلى لقائه؛ لمساجلته، أو الأخذ عنه، سواء في ذلك الوطني المقيم، والأجنبي العابر. حدث ياقوت في معجمه، قال: أخبر بعض العلية أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي، واستشرف، ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها، وحلة نخر لا يحتسبها، فصار إليه، فوجده في مسجد عمرو بن العاص. فقاوضه قليلا، ثم قال: ألا أنشدني للمليح الأندلس، يعني ابن عبد ربّه، فأنشده:

يألؤلؤا يسبي العقول أنيقا · ورشاً بتقطيع القلوب رقيقا
ما إن رأيت · ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من ردفه مابال قلبك لا يكون رقيقا؟

(١) وفيات الأعيان: ١: ١٦٣ (٢) وفيات الأعيان: ١: ٤٦

(٣) الصبح المنبي: ١: ٦٣، و ٦٤

فلما أكل إنشاده ، استعاده منه ، ثم صفق يديه ، وقال : يا ابن عبد ربه ،
لقد يأتيك العراق حبوا (١) . وقال أبو الحسن المهلبى النحوى : وقع بينى وبين
المتنبى كلام فى قول العدوانى :

يا عمرو ، إلا تدع شتى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون فى هذا البيت ، والصواب اشقونى ،
من شقات رأسه بالمشقة ، وهو المشط . قال المهلبى : فقلت له : أخطأت من
وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك ، والآخر أنه يقال : شقات بالهمزة ، وأيضا
فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول فى الهامة : إنها إذا لم
يثأر بصاحبها لاتزال تقول : اسقونى ، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب الدم (٢)
ونحن نستبعد أن يقع المتنبى فى هذا الخطأ البين ؛ لأن خبر الهامة عند عرب
الجاهلية شائع مشهور ، والرجل لاشك كان واسع الرواية . خيرا بمواقع الكلام .
ولما ورد بغداد كان الطلاب يؤمنونه حيث يقيم ، فيروون شعره ، ويقرءونه
عليه (٣) . وفيها وقعت المذاكرة المشهورة بينه وبين الخاتمى (٤) . ووقعت كذلك
مناظرة بينه وبين أبي الفرج الأصفهاني ، بمجلس المهلبى ، فى قول كثير :

(١) معجم الأدباء : ٢ : ٧١ (٢) مات المهلبى بمصر سنة ٣٨٥ . معجم الأدباء :
٥ : ٨١ ، ٨٢ (٣) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٢ (٤) خلاصتها أن المتنبى حين قدم
بغداد ، كان يتعاطف على أدبائها ، ولا يجزأ أحد منهم على مقارعتة . أو التغير عليه .
فاستاء معز الدولة ووزيره المهلبى ، ورأى الخاتمى أن لا مناص له من مساجلته ،
والغفارة فيما احتابه غيره ، ذبادا عن كرامته ، وكرامة إخوانه ، والتماسا لرضا الأمير
ووزيره ، فقصده إلى المتنبى ، فلم يحسن المتنبى لقائه ، فاغتاض الخاتمى ، وأخذ باللوم
أخذا عنيفا ، ثم أقبل على شعره بنقده ، ويكشف عن معاييه . فعرض المتنبى أمثلة من شعره
المستجاد وافخر بها ، فاتهمه الخاتمى بسرقتها ودل على المآخذ التى نقل عنها ، ثم انتقلا
إلى محاوراة قصيرة فى اللغة ، لم يلبثا بعدها أن تصافحا . هذا بجملة ما يقول الخاتمى ، وتراها
مبسوطة فى : معجم الأدباء : ٦ : ٥٠٤ - ٥١٨ ، والصبح المنبى : ١ : ١٤٤ - ١٧٣
وفيات الاعيان : ١ : ٦٤٦

سقى الله أموالها عرفت مكانها جرأماً، وملكبوماً، وبذر، فالغزراً
أشده جراماً بالميم، فقال المتنبي: هو جراباً. وهذه أمكنة قتلها علماً،
وإنما الخطأ وقع من النقلة، فأنكره أبو الفرج. ورواية سيويه، ومحمد بن
كيسان النحوى (جراباً) بالباء، كما يقول المتنبي (١).

وفى أرجان، قرأ عليه ابن العميد ديوان اللغة الذى جمعه، وكان يتعجب من
حفظه، وغزارة علمه (٢).

وفى شيراز كان الأدباء يغشون مجلسه للدرس والمناظرة، وقراءة شعره
عليه، أو نقله عنه (٣). حدث الربيعي: قال: كنت يوماً عند المتنبي بشيراز،
فقليل له: أبو على الفارسي بالباب، وكانت تأكدت بينهما المودة. قال: بادروا
إليه، فأنزله. فدخل أبو على، وأنا جالس عنده. فقال: يا أبا الحسن. خذ
هذا الجزء، وأعطاني جزءاً من كتاب التذكرة، وقال: اكتب عن الشيخ
اليتين اللذين ذكركت بهما، وهما:

سَأَطْلُبُ حَتَّى بِالْقَنَاءِ وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمَّوْا مُرْدُ
ثِقَالٍ إِذَا لَاقَوْا، خِفَافٍ إِذْ دُعُوا، كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا (٤)

هذا وصف ثقافة المتنبي، كما رأيناها بمطارحها من بطون الكتب. ولا يسعنا
إلا الإقرار بأنه وصف قاصر، لا يسلم من النقص فى بعض نواحيه. فليس فيه
مثلاً إحصاء للعلوم والفنون التى درسها. أو ألم بأطراف منها، ولو أنه من المفهوم
أن رجلاً كالمتنبي جد حقيق ألا يفوته شيء من أنواع العلوم والفنون التى ازدهرت
فى عصره، يأخذ منها بحظوظ قد تتفاوت بتفاوت الحاجة والملايسات.

فلنرجع إذا إلى شعره، نلتمس فيه سداد جذه الحاجة: إنه بها كفيلى. فإذا
نحن أخذنا فيه من الناحية اللغوية رأينا أكثره نغم الألفاظ. متين التراكيب،
بحكم الأساليب، ومن ذلك قوله:

(١) خزائن الأدب: ٢: ٣١٠، ومعجم الأدباء: ٦: ٤١٨

(٢) خزائن الأدب: ٢: ٣١١ (٣) النصح المتنبي: ١: ٩٠ (٤) الصبح

المتنبي: ١: ٢١٢، ٢١٣

أَطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
وَحِيدًا. وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ ؟
وَأُشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلَامَتِي
وَمَا ثَبَّتَ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَ كَتْمَهَا
تَقُولُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ ، أَمْ ذَعِرَ الذُّعْرُ ؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَأَنِّي لِي
سِوَى مُهْجَتِي ، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتْرُ
دَعِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وَسَمَهَا قَبْلَ يَنْهَاهَا
فَمُفْتَرِقُ جَارَاتِ دَارُهَا الْعُمُرُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًا وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ ، وَالْفَتَاكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِبُ أَغْنَاكِ الْمُلُوكُ ، وَأَنْ تُرَى
لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْمَسْكِرُ الْمَجْرُ
وَتَرَى كُكَّ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا
تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ

ونصادف في كثير من قصائده ، ولا سيما الأراجيز - غرابة فاشية ، تتحول
بعض الأحيان إلى معازلة جافية ، وترخص في اصطناع الحوشى النافر ، ولو لم

يكن ثمة حاجة داعية، ولا ضرورة ملجئة. قال يصف فرسا تأخر الكلاء عنه
بوقوع الثلج :

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقٍ يَأْكُلُ مِنْ نَبْتٍ قَصِيرٍ لَاصِقٍ ^(١)
كَقَشْرِكَ الْحَبْرِ مِنَ الْمَهَارِقِ أُرُودُهُ مِنْهُ بِكَالْسُودَانِقِ ^(٢)
بِمُطْلَقِ الْيُنَى ، طَوِيلِ الْفَاتِقِ عَبَلِ الشَّوَى ، مُقَارِبِ الْمَرَاتِقِ ^(٣)
رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَاتِقِ ذِي مَنْخَرٍ رَحْبٍ ، وَإِطْلٍ لَاحِقِ ^(٤)
مَحَجَّلٍ ، نَهْدٍ ، كُنَيْتٍ ، زَاهِقِ شَادِخَةٍ غُرَّتُهُ ، كَالشَّارِقِ ^(٥)
كَأَنَّهَا مِنْ لَوْنِهِ فِي بَارِقِ بَاقٍ عَلَى الْبُوغَاءِ ، وَالشَّقَاتِقِ ^(٦)
وَالْأَبْرَدَيْنِ ، وَالْهَجِيرِ الْمَاحِقِ لِلْفَارِسِ الرَّاكِضِ ، مِنْهُ الْوَائِقِ ^(٧)
خَوْفُ الْجَبَانِ فِي فُؤَادِ الْعَاشِقِ

كَأَنَّهُ فِي رَيْدٍ طَوْدٍ شَاهِقٍ يَشْأَى إِلَى الْمَسْمَعِ صَوْتَ النَّاطِقِ ^(٨)
وقال في المدح :

جَفَخْتُ - وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا - بِهِمْ
شِمْ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ ^(٩)

- (١) الطخرو: اسم الفرس (٢) المهارق: جمع مهرق: الصحيفة، معرب.
(٣) مطلق اليمنى: يريد أن لونها يخالف قوائمه الثلاث. الفائق: مفصل رأس العنق
(٤) نائه الطرائق: على الاخلاق شريفها. إطل لاحق: خصر ضامر.
(٥) زاهق: متوسط بين السمين والمزول، الغرة الشادخة: التي ملأت الوجه
ولم تشتمل على العينين. (٦) البوغاء: التراب: الشقائق: جمع شقيقة: الارض
فيها رمل وحصى. (٧) الأبردان: الغداة والعشى. وخوف مبتدأ خبره للفارس
(٨) الربد: حرف الجبل. يشأى: يسبق (٩) جفخت: تكبرت ونفرت.
وبهم متعلق بجفخت، وشيم فاعله.

وقال في الغزل :

أَرَكَايِبَ الْأَجْبَابِ ، إِنَّ الْأَذْمَعَا

تَطِيسُ الْخُدُودَ ، كَمَا تَطِيسُنَ الْيَرَمَعَا^(١)

وقال فيه أيضا :

لَوْ عَدَا عَنْكَ غَيْرَ هَجْرِكَ بَعْدَ

لَأَرَارَ الرَّسِيمُ مُخَّ الْمَنَاقِي^(٢)

وقال في الرثاء :

وَلَّى وَكُلُّ مُخَالِمٍ وَمُنَادِمٍ بَعْدَ اللَّزْوِمِ - مُشِيعٌ وَمُودَعٌ^(٣)

ونحن فيما أسلفنا من الشواهد لم نؤثر باختيارها قصيدة على أخرى ، ولم نرد بإيرادها توضيح غامض ، أو إثبات مشكوك فيه ، فحيثما تقرأ في ديوانه تلقى الدلائل متظاهرة ، تشهد بسعة روايته . وغزارة محفوظه ، إلى الغاية التي لا يدركها إلا قليل . وإنما أردنا مجرد المشاكلة ، ورعاية المساواة بين النظائر في إزجاء شواهد ما جهد ما نستطيع .

وإذا أخذت في شعره من ناحية الدلالة على مبلغ صاحبه من العلوم اللسانية والفقهية - تدين ولعا بصياغة المشتقات ، وبصرا بأوزانها ومواضع استعمالها ، لا يخطئ جادة الصواب ، كقوله في المدح :

أَعَزُّ مُغَالِبٍ كَفًّا وَسَيْفًا وَمَقْدَرَةً ، وَنَحْمِيَّةً ، وَآلًا .

وَأَشْرَفُ فَأَخِرِ نَفْسًا ، وَقَوْمًا وَأَكْرَمُ مُنْتَمٍ عَمَّا ، وَخَالًا

يَكُونُ أَحَقُّ إِثْنَاءٍ عَلَيْهِ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا مُحَالًا

وَيَبْقَى ضِعْفُ مَا قَدْ قِيلَ فِيهِ إِذَا لَمْ يَتْرِكْ أَحَدٌ مَقَالًا

(١) تطس : تدق اليرمع : حجارة بيض صغار ، رخوة . (٢) أراد : أذاب .

المناقى : جمع منقية ، وهي السمينة في نظامها نقي ، وهو الخ . (٣) الخالم المصادق .

فَيَا بَنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ عَضْبٍ مِنْ الْمَرْبِ مَا لَأَسَافِلَ وَالْقِلَالَا
أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُّوا بِذِمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْمُضَالَا ؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا !
ورأيت إحاطة بآرعة بقواعد النحو والصرف ، ولباقة بينة في اصطناع
القواعد والمصطلحات الفنية ، من نحوه كقوله :

تَفَيْتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ وَهُنَّ لِمَا يَأْخُذُنْ مِنْكَ غَوَارِمُ
إِذَا كَانَ مَا تُنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ
وقوله :

يَتَفَرَّغُ الْجَبَّارُ مِنْ بَغَاتِهِ فَيَظِلُّ فِي خَلَوَاتِهِ مُتَكَفِّنَا
أَمْضَى إِرَادَتَهُ ، فَسَوْفَ لَهُ قَدْ ، وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى ، قَمٍّ لَهُ هُنَا
وقوله :

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جَيْلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلِقُ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهِ بَعْنِ
وصرفية ، كقوله :

فَعَاشَا عَيْشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا ، وَلَا يَتَحَاسَدَانِ
وَلَا مَلَكًا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِي وَلَا وَرَثًا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ
وَكَانَ ابْنًا عَدُوًّا كَأَثَرَاهُ لَهُ يَأْيَ حُرُوفٍ أَنْيَسِيَانِ^(١)

(١) أنيسيان : مصغر إنسان . يريد : عد ويكثر كبابنيه ، كأنيسيان : زادته
ألياء . ان حروفا : وصغرتة معنى .

وخطبة كقوله :

كَمْ وَقَفَ سَجَرَتَكَ شَوْقًا بَعْدَ مَا غَرَى الرَّقِيبُ بِنَا ، وَلَجَّ الْعَاذِلُ
دُونَ التَّمَانِي نَاحِلِينَ كَشَكَلْتِي نَصَبٍ ، أَدَقُّهُمَا ، وَضَمَّ الشَّاكِلُ

وقوله :

جَرَى الْخَلْفُ إِلَّا فَيْكَ ، أَنْكَ وَاحِدٌ وَأَنْكَ لَيْتُ ، وَالْمُلُوكُ ذِيَابُ
وَأَنْكَ إِنْ قُوبِلَتْ ، صَحَّفَ قَارِي ذِيَابَا ، فَلَمْ يُخْطِئْ ، فَقَالَ : ذُبَابُ
وقفية ، كقوله :

بَلَيْتُ بِلَى الْأَطْلَالِ ، إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا
وُقُوفَ شَحِيحٍ ، ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ

كثيبًا ، تَوَقَّانِي الْمَوَازِلُ فِي الْهَوَى
كَمَا يَتَوَقَّى رِيضَ الْخَيْلِ حَازِمُهُ
قَفِي تَغْرَمِ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي

بِثَانِيَةٍ ، وَالْمُتْلِفُ الشَّيْءَ غَارِمُهُ

وَأَنْتَ تَوْفِيقًا عَجِيبًا فِي اسْتِخْدَامِ التَّعْلِيلَاتِ الْبَلَاغِيَةِ ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى
بُلُوغِ غَايَةِ الْإِجَادَةِ فِي الْإِفْتَانِ ، وَحَسَنِ التَّأثيرِ ، كَقَوْلِهِ :

نَحْنُ أَذْرَى ، وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطْوِيلُ طَرِيقُنَا ، أَمْ يَطُولُ ؟
وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقُ وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ ' تَعْلِيلُ
وقوله :

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
وَمَنْ مَنَابَاهُمْ بِرَاحَتِهِ يَأْمُرُهَا فِيهِمْ وَيَنْهَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدُ الدِّ دَوْلَةٍ فَنَّا خُسْرُو شَهْنَشَاهَا
 أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاهَا
 وأما إذا أخذت فيه من ناحية الاستدلال على مقدار حظه من سائر العلوم ،
 فسترى فلسفة عالية في مثل قوله ، يحال بعض أخلاق سيف الدولة ، ويلتمس
 الأسباب السياسية والنفسية لتمرّد بعض قبائل العرب وخروجهم عليه :

وَفِيكَ - إِذَا جَنَى الْجَانِي - أَنَاةٌ تُظَنُّ كَرَامَةً ، وَهِيَ اخْتِقَارُ
 وَأَخْذٌ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بِضَبْطٍ لَمْ تُعَوِّدْهُ نِزَارُ
 تَشَمُّهُ شَعِيمَ الْوَحْشِ إِنْسًا وَتُشْكِرُهُ ، فَيَعْرِوْهَا نِفَارُ
 وَمَا انْقَادَتْ لِنَعِيرِكَ فِي زَمَانٍ فَتَدْرِي : مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّنَارُ ؟
 فَأَقْرَحَتْ الْمَقَاوِدُ ذِفْرِيئَهَا وَصَمَرَ خَدَّهَا هَذَا الْمِذَارُ
 وقوله في فلسفة الموت :

إِنْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْفُسِ : أَنَّ الْجَمَامَ مَرُّ الْمَذَاقِ
 وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ
 وقوله ، وقد ألم بفعل الوهم ، وقوة تأثيره في النفس :

وَتَقْنَا بِأَنْ تُعْطَى ، فَلَوْلَمْ تَجِدْ لَنَا لَخِلْنَاكَ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ
 وترى علما بقواعد الديانات ، وأسرار المذاهب في مثل قوله عن المجوسية :
 يَا أُخْتَ مُمْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِي الْوَغَى

لَأَخُوكَ ثُمَّ أَرَقُّ مِنْكَ وَأَرْحَمُ
 يَرْتَوِ إِلَيْكَ مَعَ الْعَفَافِ وَعِنْدَهُ
 أَنَّ الْمَجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ

وقوله عن المانوية :

وَ كَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدِي مِنْ يَدٍ تُخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وقوله يشير إلى الخلاف بين منكرى البعث ، والمؤمنين به في خلود الروح :

تَخَافَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَقَ لَهُمْ

إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَ الْخَلْفُ فِي الشَّجَبِ

فَقِيلَ تَخَلَّصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً

وَقِيلَ تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي النَّمَطِ

وقال يذكر الدهريين ، والمعطلة ، والقائلين بقدم العالم :

أَلَا قَتَى يُورِدُ الْهِنْدِي هَامَتَهُ

كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتَّهْمُ

فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا

مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ ، وَالتَّمْطِيلُ ، وَالْقَدَمُ

وقوله يذكر النواصب :

إِذَا عَلَوِي لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

وترى علما بالتنجيم ، في مثل قوله ، يذكر بعض الكواكب ، ويشير إلى

دلالة كل منها ، في رأى قدامى المنجمين :

وَإِنْ مِنَ الْمَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي فَتَعْدِلَ بِي أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ

وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ ، وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعَتْ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزَّنَاءِ

وقوله :

أَنَا صَخْرَةٌ الْوَادِي إِذَا مَازُ وَجِحتْ وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنِّي الْجَوْزَاءُ

وقوله :

زُحِّلْ - عَلَى أَنَّ الْكُؤَاكِبَ قَوْمُهُ -
لَوْ كَانَ مِنْكَ لَكَانَ أَكْرَمَ مَعْشَرًا

وقوله :

نَفَى وَقَعَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ بِرُوحِهِ وَلَمْ يَخْشَ وَقَعَ النُّجُومِ وَالِدَ بَرَّانٍ
وعلمنا بالجغرافية في قوله :

كَالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا جُودًا ، وَيَيْمُتُ لِلْبَعِيدِ سَحَابًا

وقوله :

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِمَةً

كما تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورَهَا الْقَمَرُ

والتاريخ في مثل قوله :

أَشْمَتَ الْخُلَفُ بِالْشُّرَاةِ عِدَاهَا وَشَفَى رَبَّ فَارِسٍ مِنْ إِيَادٍ^(١)
وَتَوَلَّى بَنِي الْبَزِيدِ بِالْبُزْ رةً حَتَّى تَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ
وَمُلُوكًا كَأَمْسٍ فِي الْقَرِيبِ مِنَّا وَكَطَنَمِ وَأُخْتَهَا ، فِي الْبِعَادِ

وقوله :

وَمِنْ قَوْلِ سَامٍ - لَوْ رَأَى - لِنَسْلِهِ

فَدَى ابْنَ أَخِي نَسْلِي ، وَنَفْسِي ، وَمَالِيَا .

والحساب في قوله :

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ ، كَأَنَّمَا رَدَّ إِلَهُهُ نَفُوسَهُمْ وَالْأَغْصُرَا

(١) الشراة : الخوارج . سموا أنفسهم بذلك : يمتنون أنهم اشتروا أنفسهم من الله بالقتال .

نَسِقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدِّمًا وَأَتَى (فَذَلِكَ) إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا^(١)

والمنطق في مثل قوله ، وقد جاء ببعض ضروب الشكل الأول :

فِدَى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكَ إِذَا ، إِلَّا فِدَاكَ
وَلَوْ قُلْنَا : فِدَى لَكَ مَنْ يُسَاوِي دَعَوْنَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ تَلَاكَ
وقوله كذلك :

إِذَا خَافَ مَلِكٌ مِنْ مَلِيكَ ، أَجْرَتَهُ وَسَيْفَكَ خَافُوا ، وَالْجَوَارِ تَسَامُ
وقوله ، وقد أخذ أخذ المنطقة ، بما أورد من الأدوات التي يكثّر دورانها
في الاستدلال ، وإقامة البراهين :

الْيَوْمَ يَرْفَعُ مَلِكُ الرُّومِ نَظْرَهُ لِأَنَّ عَفْوَكَ عَنْهُ عِنْدَهُ ظَفَرُ
وقوله :

مِنْ طَائِفِي ثَغْرِ الرِّجَالِ جَاذِرٌ وَمِنْ الرِّمَاحِ دَمَالِجٌ وَخَلَاخِلُ
وَلِذَا ، اسْمُ أُغْطِيَةِ الْيُمُونِ جُفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِلُ
وقوله :

ذِي الْعَمَالِي ، فَلْيَعْلَمُونَ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا ، هَكَذَا ، وَإِلَّا فَلَا ، لَا

هذه بعض مظاهر ثقافة المتنبي ، كما تبدو في شعره ، ومنها نرى الرجل ضخم
المادة اللغوية . مستفيض الرواية والحفظ . متبحراً في علوم العربية ، عالماً بالفلسفة
والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، وأصول الديانات والمذاهب المختلفة ، إلى ما سوى
ذلك من أسباب الثقافة العالية لذلك العهد ، وما ظنك برجل تنهياً له فصاحة البادية
وثقافة الحضر ، وهو مع ذلك صحيح القريحة ، مستقيم الفطرة ، موصول القراءة
والدرس ؟

(١) يقول : سبقك الفضلاء في الزمن ، ثم جئت فكنت جماع فضلم ؛ كالحساب :
تنسق أولاً تفاصيله ثم تجمع جملة واحدة

على أنه - وقد طوف في البلاد، وتردد بين البوادي والخواضر - أتيت له رؤية كثير من مشاهد الطبيعة الرائعة، ونتائج الحضارات المختلفة : رأى الصحراء وما فيها من رمال منبسطة، وحصبا، وحجارة متثرة، وكثبان وآكام جاثية، ووهاد وأودية هابطة، ووحوش تسبح. وزواحف تدب، وسراب يلع، وريح ثور، وحر يتوهج. وبرد يلسع، وسما مجلوة الصفحة، ساطعة الشمس، متلألئة النجوم، باهرة ضياء البدر. وأحس ما للصحراء من رهبة وجلال. وتأثر بما يغشاها من سذاجة وعبوس. ويلتمع في سماءها من وضاء وإشراق.

رأى الجبال تنعقد الثلوج على رموسها، أو تنحدر سيولا على سفوحها، ورأى الأبنية الضخام، تقوم على قواعد الهندسة، وتزين بالزخارف والتهويل، وتحتوى ضروبا من التماثيل والتحف، ورأى الأشجار الباسقة، والمزارع المنسقة والبساتين الأنيقة، والمياه الجارية.

ثم هو قد خالط أجناسا وطوائف، وجالس الرؤساء والقواد والساسة، وعرف ضروبا من العادات، وألوانا من أساليب العيش، إلى نحو ذلك، مما يساعد على إيقاظ العواطف، وتربية الذوق. وثقيف الذهن، واتساع أفق المعارف. ودونك الآن طائفة من أقوال المنصفين من العلماء والنقاد فيه :

قال صاحب إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة، ورواة الشعر (١) وقال الخالديان : كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية، جيد النقد (٢) وقال الفارسي : ما رأيت رجلا في معناه مثله (٣). وقال ابن خالكان : . . واشتغل بفنون الأدب، ومهر فيها. وكان من المكثرين من نقل اللغة، والمطلعين على غريبها وحوشها، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، حتى قيل : إن الشيخ أبا علي الفارسي، صاحب الإيضاح والتكملة. قال له يوما : كم لنا من المجموع على وزن فعلى ؟ فقال المتنبي في الحال : حجلي (٤)،

(١) خزائن الأدب : ٢ : ٣١٧ (٢) الصبح المتنبي : ١ : ١٧٣ .

(٣) نزهة الألبا . ٣٧٢ (٤) واحده حجلة

وظربني (١). قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال . على أن أجد
لهذين الجمعين ثالثا ، فلم أجد (٢) .

وهذه الأقوال - على صدقها - لا تتناول من ثقافة الشاعر إلا جانب الرواية
والحفظ . والمتنبى - كما تعلم - لم يكن راوية حافظا لحسب ، فكأن أولئك النقاد
لا يعينهم من ثقافة الأديب إلا الناحية اللغوية وحدها . أما غيرها فليس جديرا
أن يلتفت إليه عند تقدير الأديب . وتحديد منزلته بين الأدباء . ولأمر ما ، عيب
على المتنبي أن يتعاطى الفلسفة في شعره ، فيجيد به عن المألوف الذي سببه القدماء .
وبعد ، فقد كان المتنبي نثر ، كما كان له شعر . وإنك لتتسم في نثره روح
العبقريّة الذي تجده في شعره . ويخيل إلى أنه لو تفرغ للنثر ، أو نزل له عن قسط
من عنايته وإقباله ، لكان بين الكتاب مثله بين الشعراء .

ومن نثره الفنى رسالته البليغة ، التي بعث بها إلى صديق كان يزوره ، وهو
مريض بمصر ، فلما أبل انقطع عنه . وهى :

وصلتني (وصلك الله) ممتلا ، وقطعتني مبلّا ، فإن رأيت ألا تحبّب العلة
إلى ، ولا تسكدر الصحة على ، فعلت إن شاء الله (٣) .

وهى كما ترى - رسالة تجمع بين وضوح المعنى وسهولة اللفظ ، وتزدان
بحظ وافر من جمال الفن ، فى غير تعمل ولا استكراه ، وتبنى بالمراد كاملا مع
ما فى عبارتها من شدة الإيجاز .

وله كذلك عبارات مرتجلة ، تتسامى فى بلاغتها ، ورشاقة لفظها وإيجازها -
إلى مكانة الأمثال السائرة ، والتوقيعات الجامعة . فمن ذلك ، أنه لما دخل على عضد
الدولة لأول مرة ، قال : شكرت مطية حملتني إليك ، وأملا وقف بي عليك (٤) .
ولما انصرف عن المجلس أتبعه عضد الدولة بعض جلسائه ، وقال له : سلّه ، كيف
شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا ؟ فكان جواب المتنبي عن جميع
ما سمع من ذلك : ما خدمت عيناي قلبى كاليوم (٥) .

على النجوى ناصف

(١) واحده ظربان ، لدوية كاهرة منته الرانحة (٢) وفيات الاعيان : ١ : ٤٤

(٣) المصدر نفسه (٤) خزانة الادب : ٢ : ٣١٤ (٥) الصبح المتنبي : ١ : ٢٠٩

سر العبقرية فى المتنئى

بقلم طه طه عبء الفناع

مءرس اول للغة العربية بئها الثانوية

كألا ىنبء الزرع إلا من بءر ، ولا ىنبعث الضوء إلا من مصدر . كءلك
لا تنشأ العبقرية إلا من أصل . والأصل الذى تقوم عليه العبقرية هو الاستعداد
الفطرى ، الذى ىوهب للإنسان وهو فى طور تكونه ، وىولد معه ساعة ىولد ،
ویشرف معه على هذه الدنيا .

وكألا ءوئى البءرة ءمرءها إلا إذا وءءء حولها ما ىبئى لها الإفرآخ ، وما
یسهل لفرآها النماء ءءى ىبلغ أشءه ، وئوئى أكله ؛ كءلك لا ىنفطر إلا استعداد
الفطرى عن العبقرية ، إلا إذا صادفه ما ىقویه وینعمه ءءى بءكامل ، وىءآ له أن
ىقوم بما هیأه الله له .

وءىءء لا غنى للعبقرية عن الاستعداد الفطرى ، ولا عن الظروف التى
یزكو فىها وىءرعرع . فكم فى الناس من ءآق لىكون شاعرا مفلءا ، أو سىاسیا
ءاهیه . أو قائدأ بارعأ ، أو غیر ذلك من المواهب التى ءءجلى فىها العبقرية ، ولكن
قضىء علیه الأءوال القاءرة أن ىءءه إلى طریق غیر طریقه . فءرم شرف النبوء ،
وءرم الناس الاءءاع بعبقریءه . والله فى ءلقه شئون .

أما الاستعداد للعبقرية الشعرية ، فهو الءصائص التى رزقها الشاعر فى قواه
النفسية المءصلة بفن الشعر اءصالا وئبقا .

ءلك القوة النفسية هى : الإدراك ، والشعور ، والءئال ، والمقدرة على
الأءاء ، وعلى قءر ما ءصطبغ به هذه القوى من ءصائص ، وعلى قءر ءفاوء
الشعراء فى هذه الءصائص ، ءكون ءرءة الشاعر فى فن الشعر ، وءكون منزأه
بین الشعراء .

وتلك الخصائص الموهوبة للقوى النفسانية هي أسرار النبوغ والعبقرية ، وهذه الأسرار هي ما نحاول أن نفتش عنه في نفس المتنبي ، مستعينين بما في ديوانه من بيان ، لعله يزيح لنا الستار عن تلك النفس البارزة ، التي كانت منذ منذ عشرة قرون تنفث السحر في الناس ، والتي مافتى سحرها يلعب بالألباب .

عبقريته الفكرية وأسرارها : —

ظهر أثر تلك العبقرية ، في هذه الطائفة الفاخرة ، من أشعاره الحكيمية ، التي وجدت لها في أفئدة الناس قبولاً حسناً . فاستظهرها الكثيرون ، ورددتها الألسن في كل مناسبة ، وضربت بها الأمثال ؛ كما جرت بها أقلام الأدباء تضميناً ، واقتباساً واستدلالاً .

لقد عرض زهير بن أبي سلمى للحكمة ، وعرض لها أبو العتاهية ، من قبل المتنبي ، وعرض لها أبو العلاء المعري من بعده . ولكن أبا الطيب المتنبي يفضل زهيراً بالدقة ، ويفضل أبا العتاهية بالدقة والاستنباط ، وهو فيها هادى أبي العلاء وإمامه .

حكمة زهير قرية الغور ، لا تحتاج إلى كثير من دقة الملاحظة ، وثقوب البصيرة ؛ وما كانت إلا وليدة التجارب الهينة الخفيفة غير المعقدة ؛ فليس فيها غوص إلى خفايا النفوس ، وأسرار الطبائع ، ونحو ذلك مما زاد في حكمة المتنبي وقد نرى الحكمة مشتركة بين أبي الطيب وزهير ، ولكنك تجد بين الحكمتين خلافاً دقيقاً ، مصدره أن المتنبي أبعد في الفكر أمداً من زهير . فزهير يقول :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَا يَنَلْنَهُ وَإِنْ يَرَقَّ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ

والمتنبي يقول :

يَمُوتُ رَاغِبِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مَيِّتَةً (جَالِيُنُوسَ) فِي طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرِّهِ

تجد المتنبي يحل لك الحقيقة في مثال عمق فيه الموازنة بين الجاهل البعير

في الجهل بوسائل علاج الأدواء، والعالم الحاذق المضروب به المثل في علاجها،
وحكم أن الموت ضربة لازب لكل منهما، وأن الجاهل قد يزيد على العالم عمرا
وسلامة. كان مثلهُ مثلاً يوضح للناس أن داء الموت ليس له دواء. حتى لَمَنَ
يحاربون أسبابه بالعلاج: كالأطباء النطس.

وأما حكمة أبي العتاهية فهي على غزارتها ليس فيها أثر للتفكير والاستنباط،
ولكنها على ما يظهر لمتصفحها - منحصرة في ناحية واحدة هي ناحية الزهد
وذكر الموت والآخرة. وشتان ما بين هذا وحكمة المتنبي.

ولأبي العلاء حكمة، ولكن أبرز شئ فيها - وهو ما يتعلق بالمذهب النبائي -
ليس من مُسْتَنْبَطٍ، بل كان فيه معبرا عن مذهب قلَّد فيه الهنود تقليدا. أما
ما جرى على لسانه من حكمة المتنبي، فالتنبي فيها إمامه، وهو تلميذه؛ فلقد كان
من أشد الناس إعجابا به، وبشعره، وأحرصهم على قراءته وحفظه وشرحه؛
فامتزجت حكمة المتنبي بفؤاده، وسَقَّتْ بَقِيضَهَا مراكر التفكير في مخه، فأعدته
لأن يستنبط أمثالها، كما كانت هي بذاتها ذخيرة له، يستمد منها، وينفق من
مكنوزها. انظر إليه يقول:

خفف الوطء. ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

ألا تراه قايماً قول المتنبي:

يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

إن قواعد الأدب التي ندرسها الآن كثيرا ما تكون سببا في خطأ الشاديين
في الأدب عند ما يحاولون تطبيق خصائص عصر من عصور الأدب على كل
شاعر من شعرائه؛ كما تكون سببا في بنس بعض الشعراء فضلهم ومواهبهم.
فعلم الأدب يقرر من خصائص العصر العباسي الثاني ذبوع الفلسفة اليونانية
وغيرها، ويقرر أن شعراء هذا العصر قد تأثروا بذلك ثم يحاول بعد تقرير هذه
القاعدة أن يُرْجِعَ حكمة المتنبي إليها، سواء أَرْضَى المتنبي بذلك أم لم يرض.
وفي هذه المحاولة - على ما أرى - تعسف وجحود لمواهب الرجل وفضله.

لم يقصد المتنبي إلى حكمة أرسطو - مثلاً - ويقرضها شعراً ، وإلا كان شعره نظماً فاتراً ، يشبه نظم أبان اللاحق لكليلة ودمنة ، وحكمة المتنبي في شعره لا يبدو فيها شيء من مثل هذا الفتور والوهن .

وهل درّس المتنبي فلسفة اليونان وتأثيرها ، فكانت مدرسته التي تخرج فيها . وربى مواهبه حتى نشأت له ملكة نفسية أقدرته على استنباط أشباهها ؟ ليس فيما بين أيدينا من تاريخ المتنبي ما نفهم منه القطع بذلك .

نرى في القليل من حكمة المتنبي شيئاً من المشابهة للحكمة اليونانية ، ولكن أكثرها لا تحس فيه هذه المشابهة . وهذا التشابه في قليلها لا يدل على أن المتنبي نقله عن اليونان ، أو كان متأثراً بفاسفتهم فيه ، إذ لا يمكن الجزم بذلك إلا إذا كان المنقول عن اليونان شيئاً لا يستطيع عقل بشري أن يستنبطه إلا العقل اليوناني : والقول بمثل ذلك هزل وهراء .

لأن لا مانع من اعتبار أن هذا التشابه مجرد عرض واتفاق ، وأن أبا الطيب قد وصل إلى ما وصل إليه اليونان بهداية فكره المبصر ، وإرشاد عقله المنير : ويدعم هذا الرأي أن الاستقلال جلي في أكثر حكمة المتنبي . ومن ذا الذي يقول : إن المتنبي لم يكن كاشفاً بنفسه عن هذه الحكمة :

وَكَاثَنَا لَمْ يَرْضَ فِينَا بَرِيْبُ الدَّامِ هَرِ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا
كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاقَةً رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاقِ سِنَانًا
أو لم يكن مُبِطاً للثام عن هذه الحكمة :

أَرَى كُلَّنَا يَبْنِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ

حَرِيصًا عَلَيْهَا مُسْتَهَامًا بِهَا صَبًا

فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْزَدَهُ الْبَقَا

وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْزَدَهُ الْحَرَبَا

وما يُؤنس لذلك الرأى ، أن المتنبي ما كان يقصد للحكمة قصداً في كل شعره ، فقد كان شاعراً مداحاً ، هجّاء ، نفوراً ، وكانت الحكمة تتخلل قصائده في المدح والهجاء والفخر ، يدعو إليها مقام الكلام ، ويسبقها من المعاني ما يكون تمهيداً لها وتوطئة ، ولكنه تمهيد يحمي عفا ، بدون قصد ولا تعمل ، فيجذب إليه الحكمة جذبا قويا ، ويقودها إلى ذهن المتنبي قودا طيعاً . ومثل هذه الحكمة لا يمكن أن يكون من صنع أرسطو ، ولا من بنات الملكات التي غرستها حكمتها ، ولكنها من تاج الطبع السليم . ومن وحي الذكاء الثاقب ، والملاحظة القوية . وانتظام المركز العصبي لقوة تداعي المعاني .

هذه بعض تجالّي عبقرية الفكر عند المتنبي ، والافاضة فيها بأكثر من ذلك تستلزم كثيراً من القول ، وطويلاً من الزمان . وأكتفي بأن أشير هنا إلى أن ديوان المتنبي معرض من أنغم المعارض التي تتجلى فيها العبقرية الفكرية ، حتى في غير الفلاسفة والحكمة . فهو في أكثر ما يقوله منطقي . فانظر إلى مثل قوله في مدح سيف الدولة ، تجده يتدرّج بعقلك في سلّم من المنطق ، فينقله من درّجة إلى التي فوقها نقلاً دميثاً حيثاً ، لا حزونة فيه ولا تعريج :

وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ ، وَاللَّيْثُ وَخَذَهُ

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ اللَّيْثُ لَهُ صَحْبًا ؟

وَيُخْشَى عُبابُ الْبَحْرِ ، وَهُوَ مَكَانَهُ

فَكَيْفَ بَيْنَ يَفْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَمًا ؟

تري في حكمة المتنبي ، ومنطقه العقلي في غير الحكمة مظهرًا جليلاً لعبقرية فكره ، وهذا المظهر - على جلاله - شفاف لا يحول بيننا وبين اكتناه الأسرار التي تلمع من ورائه .

ألا تلمح من وراء هذا المظهر الذكاء الفطري الذي يتوهج توقّده ، والذي ينفذ إلى ما جال بالنفوس من سرائر ، وما جاش بالقلوب من عواطف ، وما

سرى في الضمائر من خواطر ، وما خفى في الخلقَةِ من غرائز ، كأنما باحت له
الطبائع بمكنوناتها فرآها رأى العين ؟
ألا تلمح بجانب ذلك الذكاء الحاد قوة ملاحظة لا تقلت منها ساحة ، ودقة
موازنة لا تخفى عليها خافية ، وصحة حكم لا يشينه خطأ ولا اضطراب ؟
ألا تلمح أن ذلك الذكاء قد صقله التعلم في الصبا ، وقدحته التجارب فأوزنته ؟
ألا تلمحه يتألق في معمعة تلك الحياة الكادحة التي قضاه المتنبى في تجواله
بين الفساطط ، وشيراز . واتصاله بالملوك والأمراء والوزراء ، وبالبدو والحضر ،
ومناضله حساده وأعدائه ، ومقاساته صروف الدهم ومصائبه ، والذكاء في كل
ذلك يكسب المتنبى ثروة فكرية جمعت بين الغزارة والنفاسة ؟
ذلك الذى تلمحه هو سر النبوع الفكرى عند المتنبى .

عقبرية السُمورية وشرها :

تجلى هذه العقبرية في تلك القوة الرائعة التي تمازج شعره ، في تلك الروح
العاتية التي تشوب كلامه ، في تلك الشعلة المتلظية التي تستعر في قصائده ، في تلك
الثورة العاصفة التي تقذف بها جوانحه الزافرة في صورة من الكلام الموزون
فنسميها شعرا ، فإذا قرأناه فَجَّرَ في نفوسنا هذه الثورة بعينها ، فوجدنا أنفسنا
إلى جانب المتنبى ثائرين ، مستسلمين الموت في سبيل الكرامة ، قائلين معه :

وإِلَّا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا

تَمُتْ وَتُقَاسِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ

أو مهددين معه ملوك زمانه ومرددين قوله :

أَيَمْلِكُ الْمَلِكُ - وَالْأَسِيَّافُ ظَامِئَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ - لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ ؟
مَنْ لَوْ رَأَى مَاءَ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَلَوْ عَرَضَتْ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمْ !

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا
وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرَبِ وَالْمَجَمِّ

أو نزدري معه من يستحقون الازدراء من الناس فنقول معه :

أَرَى أَنَا سَا، وَتَخْصُولِي عَلَى غَنَمٍ وَذِكْرُ جُودٍ، وَتَخْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ
وهكذا تشركه فيما اعتلج ب صدره من السخط على الأيام والليالي، والدنيا
وأرزائها، ونقدح معه في مَهْجُوتِهِ وحُسَارِهِ؛ ونشاطه الرضا على ممدوحه،
فنسبغ عليهم من صفات المدح مثل ما أسبغ هو عليهم من صفات نفسه الطماحة،
المعتدة بشرفها لا بأصولها، والمشغولة عن جمال الغواني بجمال المعالي، فنشد معه
قوله في ممدوحه :

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَضَلِّ شَرِيفٍ وَلَوْ أَنِّي لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازِي
شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ الْمَعَالِي عَنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ

وأما سر هذه القوة، فهو ذلك الشعور الذي امتزج بنفس المتنبي. وأي
نوع من الشعور هذا؟ أهو الشعور الاجتماعي الذي يعطف الإنسان على غيره
من الناس، فيألم لألمهم، ويلذّ لذّتهم، ويخفق قلبه بالرحمة لهم، وتَسِيلُ عبراته
إشفافاً عليهم؟ لا. لا. ليس المتنبي من شعراء العاطفة بهذا المعنى. لأن الشعور
الذي غلب على قلب المتنبي هو الشعور المنبعث عن حب المرء لنفسه، وإن شئت
فقل هو الأنانية بذاتها. كان أبو الطيب شرها طماعاً.

كان شرها إلى المال لأنه فقير مملق، ولم يرزق من القناعة قسطاً يخفف عنه
شدة الفقر، ويهوّن عليه وطأته. وكيف تسكن نفسه إلى الإقلال وهو الذي
يقول :

لَيْسَ التَّمَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شَيْبِي
وكان إلى رفعة الجاه، وعلو المنزلة، ونيل أشرف الرتب، أشرّة منه إلى

المال . وشره في هذه الحالة هو ما ندعوه الطموح : إذ الطموح نوع من الطمع الروحي يخالف ما عداه في الغاية التي يتجه إليها ، والمدى الذي يستشرف إليه . كان المتنبي أنانيا ، فكان طمعاً قصي المطامع . وكان مُحسناً ذلك من نفسه ، كما كان شاعراً بذكائه ، وكفايته ، وعلوهمته ، وفضله في نفسه على كثير من وزراء وأمراء وملوك عصره . فوسوست إليه مطامعه وآماله : أن ينهض لإدراك ما يتطلع إليه ، فلبى ، وقد أعماه الطمع ، وأغراه خياله الشعري ، فحاول ما حاول ، وصادفته العقبات الكأداء ، التي تحطمت على سفوحها مطامحه وآماله ؛ أليس هو القائل :

أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ ، وَنَجِي فِي نُحُوسٍ ، وَهَمِّي فِي سَعُودِ

رجل تتسع مطامعه إلى امتلاك الدنيا ، وتقف الدنيا في سبيله تعانده وتطارده ، ويشكو ذلك فيقول :

أَهْمُ بِشَيْءٍ ، وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تَطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ ، وَأَطَارِدُ

وليس من نفسه مقنع يقنعه ، بل له منها دائماً مثير يثيره ؛ رجل هذا حاله لا بد أن تثور ثائرته على العالم بأسره ، وأن يضطرم صدره حقداً عليه وعلى من فيه .

هكذا كان أبو الطيب : طامحاً ثائراً ساخطاً . حانقاً على الناس ، حانقاً على الملوك ، حانقاً على الدنيا ، مزدرياً هؤلاء جميعاً ، كارهاً من ينافسه أو يدعى منافسته حتى في الشعر .

ذلك الشعور الأناني الثائر هو السر الذي صبغ شعر المتنبي بصبغة هذه العبقرية الإحساسية القوية .

عبقرية الخيال وشرها :

من العجب أن يجمع الرجل بين شاعرية الحقيقة ، وشاعرية الخيال . فإن المعروف أن العقول التي اعتادت الغوص على الحقائق التي لا تدرك إلا بالجهد العقلي الشاق : من أمثال الحكماء الفلسفة ، لا يتوقع منها أن تكون على جانب

عظيم من الخيال. كما أن العقول التي أوتيت من قوّة التخيل حظاً عظيماً، لا ينتظر منها أن يكون لها في أفق الحقيقة سهم راجح. إذ القوَى العقلية ليست كالبدور التي تزرع في أرض واحدة، تنمو متشاكلة في القوة إذا كانت الأرض خصبة، أو في الضعف إذا كانت الأرض فقيرة من موادّ الغذاء النباتي. ولكن اشتداد بعض القوَى العقلية يوهن بعضها الآخر. فما بالنار يرى المتنبي قويا في الجانب الحقيقي، كما هو قوى في الجانب الخيالي، ونراه في لجة الحقيقة من أقدر الغائضين وأمرهم في اصطیاد لآلئها الغالية، من أقصى أعماقها؛ كما نراه في أفق الخيال طائرا من أبرع الطائرين، وأحذقهم في الوصول إلى آمانها السحيقة؟

إنّ ذلك عجيب حقاً! ولكن الذي دعانا إلى العجب، هو بذاته ما يدعوننا إلى القول بعبقرية المتنبي؛ فإن العبقرية لا بد أن تقوم على شيء من الشذوذ، وإلا كان الناس جميعاً عبقرين.

ولِد المتنبي وقد هيا الله أعصاب دماغه لأن تسلك طريق الحقيقة حتى تصل إلى أبعد غاياتها، وطريق الخيال حتى تصل إلى أقصى مداه. ثم ساقه إلى أسلوب من الحياة لا يقف في هذا الطريق، ولا يعترض ذلك، ولكنه كان مقويا للاستعدادين معا. سعى المتنبي إلى إدراك ما طمح إليه سعياً مُستَحَرّاً، فكان مالمقيه في مسعاه مدرسة لفته التجارب والعلم بأسرار الحياة، فكان ذلك مددًا لاستعداده الحقيقي؛ وثار المتنبي على الدنيا، وكان في ثورته عصياً حادّ المزاج، فكان في ثورته وعصيته مددٌ عظيم لخياله. فتمت فيه شعبة الحقيقة على لون من الغذاء يلائمها، وتمت فيه شعبة الخيال على لون آخر يناسبها، فجمع بين القوتين على تباعدهما في الجوهر، واختلافهما في الكُنْه، وتباينهما في الأثر.

وللتنبي في خياله افتتان كثير. فقد يغير من طبيعة المحسوس، ويحملك ألاّ تلتسمه بالحواس، كما تعودت وألفت، بل تلتسمه بالسبيل التي تدرك بها المعنويّ، فيجعله أمامك ضرباً من ضروب المعقولات، وقد يبرز لك العاطفة السارية في القلب، والخطر الجائل في العقل، في صورة لا تكلفك إلا أن تفتح عينيك، أو ترهف أذنيك، ولا تكلفك شحذ العقل، وإيقاظ الفكر، واستنهاض الفهم.

فيجعل أمامك المعقول فنا من فنون المحسوس . وقد يتخيل القلب بشرا سويا فيخطبه ، أو يتصور الناقة من يملكه العجب فيضحك ، أو يتوهم حصانه فيلسوفا . ينقد الناس ويسفه آراءهم ، ويرميهم بالحق والجهل .

وأكثر ما يفرغ المتنبي خياله في قالب الاستعارة . وهي في ديوانه كثيرة منبثة في كل مكان ، وله في صوغها إبداع وإحكام ، حتى لا تكاد ترى شاعرا غير المتنبي كثير الاستعارة ، حاذقا في تصوير خياله بها .

انظر إليه وقد خَالَ النوى تحب وتعشق ، ويسقمها الوجد والغرام :

مَلَايِي النُّوَى فِي ظُلْمِهَا غَايَةَ الظُّلْمِ

لَمَلَّ بِهَا مِثْلَ الذِّئْبِ بِي مِنَ السُّقْمِ

ثم انظر إليه وهو يتخيل أن الهلوع يتحرك ويُسير كما تسير الجيوش :

إِذَا مَالَمُ تُسِيرُ جَيْشًا إِلَيْهِمْ أَسْرَتَ إِلَى قُلُوبِهِمُ الْهَلُوعَا

ثم اعجب له وهو يتخيل أن النفوس — وهي المخلوقات الروحية — ليست إلا ماء الدموع الذي يسيل من الآفاق عند البكاء :

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ ، فَجَدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ ؛ وَالسَّمُ أَدْمَعُ

ثم استمع إليه وهو يصغى إلى حصانه إذ يلومه على ترك شعب بوآن :

يَقُولُ بِشَيْبِ بَوَّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعْمَانِ ؟

والأمثلة للخيال كثيرة في شعر المتنبي ، فمن شاء الاستزادة فليرجع إليه .

وقد عرف المتنبي المبالغة ، وكانت مبالغاته بما فتح عليه باب النقد للناقدين ، وسهل للمتحاملين عليه سبيل المغامز والمطاعن .

المبالغة ضرب من ضروب الخيال . وكيف ذلك ؟ إنها تتركز في أصلها على سند من الحقيقة ، أو — بعبارة أخرى — تلتف حول نواة من الحقيقة . فإذا صورنا الشيء في حجمه المقسوم له ، فلم نفخمه ، ولم نصغره ، كنا بذلك قد أبرزناه في ثوب الحقيقة غير باخسين أو محايين . وفي هذه الحالة غلَّظْنَا يد الخيال ، وحلَّنا

بينها وبين العبث بهذه الحقيقة . فإذا أردنا أن نبالغ سلطنا على الشيء نوعاً من التصور ينفخ فيه من روحه حتى يَمْتَلِئَ ويشغل غير حيزه ، أو يضغطة بقوته حتى يَدِقَ ويشغل أقل من حيزه . وليس بين القُوَى الدماغية ما يقوم بمثل هذا التصور الذي لا ترتبط حدوده بحدود الحقيقة ، ولا يكون أثره في جوهره مثلاً للحقيقة - إلا القوة الخيلة . فالمبالغة إذن أثر من آثار الخيال ، ولكن الخيال الطاغى .

والمبالغة - على الرغم من أنها لا تمثل الحقيقة - قد تكون طريفةً ، باعثة لشيء من الإعجاب بمدى تصور الشاعر ، عارضة على العقل صورة من الصور الغريبة ، التي يطرب لها ويبعث صاحبه على الضحك . فتعتبر المبالغة من هذه الجهة نوعاً من الطُرْف الفكاهية السارة . وللمتنبي كثير من المبالغات الطريفة التي يطرب لها الأدباء ، حتى إن ناقدَيْها لا يستطيعون أن يحولوا بين أنفسهم وبين هذا الطرب ، ولكنهم يتغاضون عنه ، ويسترسلون في تقديم لها ، ناظرين إليها بعين المنطق الفكرى ، وانطباقه على الواقع . وفات هؤلاء أن هذا المعيار تقاس به المسائل العلمية ، أما الصور الأدبية فمقياسها ما تحدثه في النفس من طرب وإعجاب لماذا نعد من التفكه والتسلية وترويح النفوس ، ما تقع عليه أنظارنا من المبالغات الحسية ، كروية وجوهنا مصغرة أو مكبرة في المرايا المصغرة والمكبرة ؛ ولا نعد من هذا القبيل ما يُعْرَض على عقولنا من المبالغات الخيالية ؟ فلتكن الأولى مسرة للعيون ، ولتكن الثانية مسرة للعقول .

ألا نجد نوعاً من التسلية عند ما نقرأ مثل قول المتنبي يصف هزاله :

كفى بجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَني
أَنَسْتَطِيعُ أَلَّا نَبْتَسم إِذَا تَصَوَّرْنَا الْمَتَنبِيَّ يَقِفُ أَمَامَنَا فَلَا نَحْسُ وَجُودَهُ لِأَنَّ
الهزال قد محق أكثره ، ولا نستطيع أن نراه إلا إِذَا نَبَّهْنَا إِلَى وَجُودِهِ بِالْكَلامِ ،
فَعِنْدَ ذَلِكَ نُجِدُّقِي إِلَيْهِ ، وَنَبْحَثُ عَنْهُ بِأَبْصَارِنَا حَتَّى نَعْثُرَ عَلَيْهِ كَذَرَّةٍ عَالِقَةٍ فِي الْهَوَاءِ ؟

عبرية في الأراء وسرها:

كما يختلف المصورون في تصوير شيء واحد يعرض عليهم، ويتفاوت عملهم في درجته، كذلك يختلف الشعراء في تصوير الخواطر الماثلة في نفوسهم اختلافا عظيما. وكما أن أجمل الصور هو ما طابق المصوّر تمام المطابقة، كذلك أجمل أساليب الكلام ما أبرز الخواطر النفسية في صورة تلائمها تمام الملائمة.

وللتنبي في هذا الباب مكانة عالية، فإنه يضع كلماته وضعا محكما يلائم المعنى الذي يعبر عنه، حتى لقد قال أبو العلاء المعري: إنه حاول طويلا أن يبعد كلمة من كلمات المتنبي، ويضع مكانها أخرى مع المحافظة على سلامة المعنى والأسلوب من كل النواحي، فرأى ذلك من المستحيل. وشهادة كمثل هذا الأديب الناقد، لها فضلها وقيمتها في هذا المقام.

ديوان المتنبي قاموس نفيس لمتخير الألفاظ الجزلة، ولأروع أساليب اللغة العربية وأنعمها.

ويقل أن ترى بين أساليبه أساليب محفوظة، لأنه متصرف في الكلام، كثير الابتكار. ولذلك نعهده من المجددين في فن الأداء.

وإذا شئت بتحقيق ذلك فارجع إلى ديوانه، ووازن بين تعبيره وتعبير البارزين من الشعراء، فإنك - لابد - واجد أنهم يكادون يسرون على نمط مألوف على حين تراه يفتن، ويقلب الكلام على وجوه جديدة لا تراها لغيره، ولا يستطيعها سواه.

وفي ديوانه طائفة من الألفاظ الغريبة التي تدل على سعة اطلاعه اللغوي، وعلى كثرة ما حفظ من مفردات اللغة. وللفترة التي قضاها بالبادية في ذلك أثر عظيم.

وليس في شعره لحن، ولا نبوءة عن الذوق العربي، ولا خروج على قوانين اللغة، مما يدل على أنه درس علوم العربية لعهد، وحذقها تمام الحذق. وكيف يلبس بالكوفة ولا يتثقف بهذه العلوم، وهي من معاهدها الجليلة؟

وقد أخذت عليه مآخذ نحوية ولغوية وبلاغية قليلة، ولكن هذا القليل لا يفيض من قدره، فإن الكمال لله وحده .
وجملة القول أن ديوانه يعد في الأدب العربي معجزة الشعر الجزل، كما يعد ديوان البحترى معجزة الشعر الرقيق .

هذا مظهر عبقرية الأدائية، يحمل في مطاويه أسرار هذه العبقرية، ويرينا أن المتنبي قد رزق استعداداً فطرياً للأداء البليغ، تمتد حافظة قوية مزودة بثروة طائلة من ذخائر اللغة، وتنجده ذاكرة مسعفة تليه إذا دعاها، وتسيطر عليه سلامة ذوق يتخير بها اللفظ، ويسبك الأسلوب، وتجنبه الخطأ خبرة واسعة بعلوم اللغة وقوانينها . وتقويه الممارسة المبكرة لقول الشعر، ومعالجته الطويلة منذ أيام صباه .

وإلى هنا نقف الكلام في أسرار عبقرية المتنبي؛ لأن الكلام قد طال، ومع ذلك الإطنا ب لا أظن أنى بلغت النهاية في إيفاء البحث حقّه، لأن تلك الشخصية الكبيرة، لا تستطيع الأقلام أن تشرحها تشرحاً دقيقاً في أمثال هذه المباحث السريعة التي تخطفها منا الفرصة السانحة خطفاً وحياً . وباليست شعري هل تُقرّ عشرة القرون القابلة، بنبوغ المتنبي ذلك النبوغ الذي أقرت به عشرة القرون المودعة؟ نعم، إن التراث الذي خلفه المتنبي لا تزول روعته على مر الزمان، ولا تتضاءل بهجته مهما توالى الحضارات الزاهية الناضرة . فإن جماله جمال خالد ما خلدت الدنيا، وما دام في الكون عقل يدرك سر الجمال، جمال مصدّره المواهب الروحية، التي لها نظائرها في كل روح، فلا غرو إذا أغرمت به كل روح، وحتت إليه حنين الأم الروم إلى وحيدها العزيز، جمال نخسبه تراث المتنبي، ولكنه تراث العقل البشري، وتراث العاطفة البشرية، وتراث الخيال البشري، ولم يكن المتنبي إلا لساناً اختارته الطبيعة البشرية؛ لتعبر به عن غرائزها وسجاياها، فعبّر عن ذكائها . وطموحها، وخيالها، وما دام في الدنيا ذكاء وطموح وخيال - فإن الذكاء والطموح والخيال التي كشف عنها المتنبي ستبقى وتندوم .

ذلك هو السر الذى أشغف الناس بشعر المتنبي ، والذى فتن به قلوب معاصريه حتى كاتبه ملوك زمانه ، يستجدون شعره ، ويلتمسون مدحه ، حتى يدور مفاخرهم فى سجل شعره الخالد . ذلك هو السر الذى من أجله تهافت الناس على شعر المتنبي يستقون من فيضه نعيم الحكمة ، ويستمدون منه غذاء القوة والخيال ، وينمون ببلاغته فى نفوسهم ملكة البيان ، ويحكون على منواله نظمهم ، فيلبسونه رداء الحسن والجمال ، وربما سرت نفثاته التى نفثها فى أرواحهم - وهم لا يشعرون - إلى ما يصوغون من البيان ، وربما عمدوا إلى اقتباس كلامه ليزدان به بيانهم . ويشرق أدهم ، ولو أردت أن أسوق لذلك أمثلة وشواهد لما كفتنى هذه الصفحات القلائل .

طه طه عبد الفتاح

مدرس أول للغة العربية بـينها الثانوية



سر نبوغ المتنبي

بقلم علي الجارم

المفتش بوزارة المعارف

طلب إلى أن أكتب في إحدى نواحي أبي الطيب المتنبي، وأعلم أن الناس في القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا، وأن شعره نال من عناية الأدباء ومن بحثهم وجدلهم ما لم ينله شعر قبله أو بعده، وأن كتباً ضخاما ألّفت في كل ناحية من نواحي الرجل والشاعر، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معاداً، وأن كل نظرة في شعره تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون.

ولكن المتنبي الضخم يعزُّ على من رامه ويطول، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبا، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديدا، وهو البحر الحُضْمُ تقف عند ساحله فيهرك ماترى من عظم، ويفتكك ماتشاهد من ألوان، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة إثر النظرة، فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد وفن في الحسن بديع، ولأمر ما كان المتنبي يقول في ثقة ويقين:

أَنَامُ وَلِيَّ جُفُؤِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

فكيفما كتب الكاتبون في المتنبي، فلا تزال فيه مجالات للقول، ولا يزال

يطل عليك من مشارف آياته معنى سرى، في ثوب من البيان قشيب

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

والمتنبي - وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد - يطنى على الزمن قوة، ويزهو على الأيام جدّة، وما نزال نقرؤه سنة خمس وخمسين وثلثمائة بعد الألف، فتهزله كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة؛ ولا يزال يهمس في الأذن بالحكمة النادرة، والقولة الحكيمة، وقد مشت فوق رموس الحقب، وخاضت إلينا مفاوز القرون، وكانت لدة الدهر في شيبته، ثم جاءت إلينا من ذلك المكان البعيد الذي نسميه

الماضي، وقد زادها القدم جدة، وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَمْعَهَا قَبْلَ يَدَيْهَا
فَمُفْتِرَقٌ جَارَاتِ دَارُهُمَا الْعُمُرُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ

وَتَرَكْكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا، كَأَنَّمَا
تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَعْلَمُهُ الْعَشْرُ

نقرأ المتنبي، فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خليجات كنا نحس بها، ونسمع في النفس ديبها، ولكننا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها وهي منا على طرف الثمام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبي الطيب؟ ومن أقدر منه على كشف جولات الخواطر؟

بَرَّتْنِي السُّرَى بَرَى الْمُدَى، فَرَدَدَنِي
أَخَفْتُ عَلَى الْمَرْءِ كُوبَ مَنْ نَفْسِي جَرَمِي
وَأَبْصَرَ مِنْ زُرْقَاءِ جَوْ؛ لِأَنَّنِي
مَتَى نَظَرْتُ عَيْنَايَ، سَاوَاهُمَا عَلَمِي

ألف سنة تمر، تطوى فيها أمم، وتنشر أمم، ويتنقل فيها العقل الإنساني في أطوار شتى يمحو بعضها بعضها، وتبديل العادات غير العادات والأفكار، والمتنبي لا يزال يقرأ ويقرأ، ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء رويحي تطمئن به النفس بوترتاح اليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثاره، وذهب كافور وانطوت أيامه، وأين على

الحاجب هذا الذي أجاز المتنبي على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد ؟
ذهب هؤلاء جميعاً ، وبقي ذكر المتنبي كالصخرة العبوس ، ينفرج أمامها زحام
الأيام وتنكص دونها صروف السنين :

وَعِنْدِي لَكَ الشُّرْدُ السَّائِرَا تٌ ، لَا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ ، إِذَا سِرْنَ عَيْنَ مِقْوَلِي وَثَبْنَ الْجِبَالِ ، وَخُضْنَ الْبَحَارَا
وَلِي فِيكَ مَا لَمْ يَقُلْ قَائِلٌ وَمَا لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا

فالمتنبي عظيم . وأريد في هذا المقال أن أكشف عن قليل من سر هذه العظمة .
وأن أبين بقدر ما في قلبي من مكنة ، شيئاً من ضخامة هذا الشاعر وقوته التي عصفت
بشعراء عصره ، وحجبتهم بغبارها وما كانوا خاملين ، ولا كانوا مقصرين ، وفيهم
السرى الرفاء ، وكشاجم ، والنأى ، والدمشقي ، والسعدى ، وأمثالهم ، من كبار
الشعراء ولكنه السهم العائر ، والجد العائر ، أن تعيش في عصر ينجم فيه نابغ يملأ
الدينا صخباً ولجاً ، وينشر درر بدائعه ذات اليمين وذات الشمال ، فيصنئ إليه الدهر ،
وتشخص له الأبصار ، وتبقى أنت مغموراً في الزحام ، لا تقدم وكزة من مغامر ،
أو ركلة من مزاحم ، في ذلك الخضم الزاخر الرجاف ، والدينا أم . إذا برزت
مواهب أحداً بنائها ، انصرفت إليه بتدليلها ، وطوقته بحنائها نابذة أبناءها الآخرين
الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجدد العثور .

وكان المتنبي شاعراً بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر ، فتحدثى شعراء عصره
في صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْمُوْهُ بِلِخِيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْحَقِّ
وَلَا تُبَالِي بِشِمْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمِّ
أَفَى كُلِّ يَوْمٍ تَخْتَضِبُنِي شُؤْبَعٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنُنِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟
بَأَى لَفْظٍ تَقُولُ الشَّمْرَ زَغِفَةً تَجُوزُ عِنْدَكَ ، لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ ؟

وأبرز ما يمتاز به شعر أبي الطيب : القوة ، والروعة ، والابتكار ، والنزوع إلى غاية لم يصل إليها الشعراء قبله ، والقدرة على إرسال المثل ، ودقة الوصف ، والتصرف في المعنى القديم ؛ حتى يعود غضا جديداً . وقد تجدد لكل شاعر في كل قصيدة قالها بيتاً أو أبيتاً قليلة ، تُعَدُّ من عيون الشعر وبدائعه ؛ أما المتنبي فلا تجدد له في كل قصيدة إلا بيتاً أو أبيتاً قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد ، والباقي الكثير من القصيدة غرر ودُرر ، فهو إذا مدح يقول قَبْرُ القائلين :

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَالَوْ حَوَيتَهُ لَهْنَتِ الدُّنْيَا بِأَنْكَ خَالِدُ

نعرف أن الناس يمدحون الملوك بالشجاعة والاقدام وكثرة الغزوات . وأن النصر معقود بلوائهم ؛ ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناول صغار الفنانين ، ويصعد في المدح بهذه المعاني إلى أفق أعلى ، تظهر فيه خصائصه ، وتميز مواهبه ، فيجعل قتل الأعداء نهياً لأعمارهم ، واغتصاباً لها ، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة ، اتصل بعضها ببعض ، فكونت عمراً طويلاً غير محدود ، ثم يصعد إلى أوج أسفى ، فيتخيل أن سيف الدولة ، حاز هذه الأعمار غير المتناهية ، التي انتزعها من أعدائه ، ولا يكتفى بالحكم بأن هذا يصل به إلى الخلود ، بل يدعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تُهَنَّا بهذا الخلود . ثم ما أجمل تصوير النصر المُحَقَّق في قوله بعد هذا البيت :

فَأَنْتَ حُسَامُ الْمُلْكِ ، وَاللَّهُ ضَارِبُ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ ، وَاللَّهُ عَاقِدُ

بهذا ومثله ، سبق المتنبي الشعراء في المديح ، وغبَّر في وجوهم .

ثم انظر إليه حين يقول في سيف الدولة :

أَتَحْسَبُ بِيضَ الْهِنْدِ أَضْلَكَ أَضْلَهَا وَأَنْكَ مِنْهَا ؟ سَاءَ مَا تَتَوَهَّمُ !

إِذَا نَحْنُ سَمَيْنَاكَ ، خَلْنَا سَيُوفَنَا مِنْ التَّيِّهِ فِي أَعْمَادِهَا تَبَسَّمُ

اتَّخَذَ المتنبي من اسم سيف الدولة سبلا شتى للاقتنان في مديحه ، والمبالغة

بينه وبين السيوف ، فأجاد في كثير من ذلك وحلَّتْ ، ومثل هذه الفرص تعرض

لكثير من الشعراء، ومجال القول فيها هين إذا لم يتجاوز الشاعر اللعب باللفظ على نوع رخيص من التخيل. أما المتنبي فليس من هذا الصنف، ولا من ذلك الطابع، استمع له وهو يتهكم بسيف الهند، حين تظن كذبا وغرورا وتلصقاً لشرف الاتصال بسيف الدولة، أنها هي وسيف الدولة من أصل واحد، فكلاهما قاطع بتار، وكأني أسمع تهاققه في سُخْرِيَّة واستهزاء، حين يقول: (سَاءَ مَا تَنَوَّهَتْ!) وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية، فأكثر ما تظهر في هذه الجمل القصيرة المفصلة، التي لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر إليه الظنون فيقول: إن هذه السيوف تكنتني من الشرف بأن اسمك وافق اسمها. فإذا سَمَيْتَناك خِلناها تَبْتَسِمُ في أغماها تَبْها ومُجْبَأً.

ثم خذ مثلاً آخر في مدح كافور.

إِذَا طَلَبُوا جَدَّكَ أَعْطَوْا وَحُكِّمُوا

وإن طَلَبُوا الْفَضْلَ الَّذِي فِيكَ - خَبِئُوا

ولو جاز أن يَخُونُوا عُلَّاكَ - وَهَبَتْهَا وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَيْسَ يُوْهَبُ

فهل من يستطيع أن يصوّر الصفح والتجاوز وعظم النفس هذا التصوير؟ إن حسادك وأعداك إذا سألوك العطاء، أعطيت وأغدقت، وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشيم، وعلى الهمم ردوا خائبين، لا ضناً منك ولا بخلاً، فلو كان في استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت (ولكن من الأشياء ما ليس يوهب) وفي هذه الجملة القصيرة أيضاً تظهر قوة الشاعر وشدة أسره.

نتقل بك إلى الوصف، ولنبداً بهذه الآيات:

وَذِي لَجَبٍ لَازِدُ الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ، وَلَا الْوَحْشُ الْمُشَارُ بِسَالِمٍ

تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِمُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ

إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وَيَخْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ فَوْقَهُ مِنْ اللَّمَعِ فِي حَافَاتِهِ وَالْهَمَاهِمِ
 بَرَعِ الْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ الْجِيُوشِ وَالْوَقَائِعِ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ ، فَقَدْ كَانَ يَحْمِلُ بَيْنَ
 جَنِيهِ نَفْسًا نَزَاعَةً إِلَى الْقِتَالِ ، تَدْفَعُهَا آمَالُ الْكِبَارِ ، وَكَانَتْ وَقَائِعُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَعَ
 الرُّومِ حَافِزَةً لِهَذِهِ النَّفْسِ ، مُؤَجِّجَةً لَتِلْكَ الْجَذْوَةِ ، وَلَوْ حَاولْنَا أَنْ نَشْرَحَ لَهُ خَيْرَ
 مَا قَالَهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ لَطَالَ الْمَقَالُ ، وَلَكِنَّا نَكْتَفِي بِالْأَيَّاتِ الَّتِي قَدَّمْنَا ؛ فَفِيهَا قُوَّةٌ ،
 وَفِيهَا جَمَالٌ شَعْرِيٌّ ، وَفِيهَا وَصْفٌ دَقِيقٌ ، مَا أَوْرَعَ أُسْلُوبُهُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ! وَمَا
 أَجَلَ مَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمٍ وَتَنْسِيقٍ الْفَالْجِيشِ كَثِيرَ الْعَدَدِ كَثِيرَ اللَّجَبِ ، تَهَادَى قَذَائِفُهُ ،
 أَثَارَ الْوَحُوشِ مِنْ مَكَامِنِهَا ، وَالطَّيُورِ مِنْ أَوْكَارِهَا ، فَلَاذُو الْجَنَاحِ بَنَاجٍ مِنْ سِهَامِهِ
 الْمُتَرَامِيَةِ ، وَلَا الْوَحُوشِ بِسَالِمَةٍ مِنْ عَدِيدِهِ الْخِصَمِ ، ثَارَ فِيهِ الْغُبَارُ فَسَدَ الْأَفَقُ ،
 وَعَلَا فِي السَّمَاءِ فَكَسَفَ الشَّمْسُ ، فَهِيَ تَمُرُّ عَلَيْهِ ضَعِيفَةٌ ضَائِلَةُ الضَّوْءِ ، فَإِذَا
 أَطْلَتْ فَأَيْنَمَا تَطُلُ مِنْ بَيْنِ رِيَشِ النُّسُورِ الَّتِي حَلَقَتْ فَوْقَهُ ؛ لَوْثَوْهَا بِنَصْرِهِ ، وَشَدَّةِ
 طَمَعِهَا فِي جَثِّ أَعْدَائِهِ .

وَقَدْ شَرَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَصِيدَةِ أُخْرَى ، وَجَلَّاهُ فَقَالَ :

يُطَمَّعُ الطَّيْرُ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ
 وَهَذِهِ الشَّمْسُ إِذَا وُقِّتَتْ إِلَى فُرْجَةِ بَيْنِ أَجْنَحَةِ النُّسُورِ ، سَقَطَتْ أَضْوَاؤُهَا
 عَلَى الْخُودَاتِ ، مَدُورَةً كَالدَّرَاهِمِ ، وَهَذَا تَشْبِيهِهُ يَدُلُّ عَلَى دَقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ ، وَأَنْ
 الْمَشَاهِدَةَ الدَّقِيقَةَ لِمَظَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ، كَانَ لَهَا أَثَرٌ بَعِيدٌ فِي تَكْوِينِ الْمُتَنَبِّي ، وَقَدْ أَعَادَ
 هَذَا الْمَعْنَى فِي قَصِيدَةِ شَعْبِ بَرَّانٍ ، فَقَالَ :

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَا نِيرَانًا تَفْرِثُ مِنَ الْبَنَانِ
 ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْجَيْشَ كَثُرَتْ فِيهِ هَمَمُهُ الْإِبْطَالُ ، وَهِيَ الصَّوْتُ يَتَرَدَّدُ فِي
 الصَّدْرِ ، فَإِذَا رَعَدَ الرَّعْدُ لَمْ يُسْمَعْ ، وَازْدَادَ فِيهِ بَرِيقُ السَّيُوفِ ، فَإِذَا لَمَعَ الْبَرْقُ لَمْ
 يُبْصَرَ ، وَإِذَا كَانَتْ الْهِمْمَةُ ، وَهِيَ الصَّوْتُ الْخَافِتُ تَغَطَّى عَلَى الرَّعْدِ ، فَأَجْزِرُ

بأن يكون الجيش بالغاً الغاية في العِظَم. (١)

وللتنبي مَنَحَى في الرثاء عجيب، فهو لا يلطم الحدود، ولا يشق الجيوب، كما يفعل صغار الشعراء، ولكنه يطلق العنان لفلسفته في الموت والحياة، فيقول في رثاء أخت سيف الدولة الصغرى :

خِطْبَةُ الْحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ م وَلَكِنَّهَا الْمُسَمَاءُ تُكَلَّلَا
وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْتًا ذَاتُ خِذْرٍ أَرَادَتْ الْمَوْتَ بَعْلًا
وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يَمِلَّ وَأَخْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ : أَفَ ! فَمَا مَلَّ حَيَاةً ؛ وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلًّا
آلَةُ الْمَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلِيًّا عَنِ الْعَرَةِ وَلَى

وقد سلك في رثاء الأخت الكبرى طريقاً جديداً، هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعَ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا شَرِقتُ بِاللَّذَنِجِ، حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي
كَأَنَّ « فَعْلَةً » لَمْ تَحْمَلْ مَوَاكِهَهَا دِيَارَ بَكْرِ وَلَمْ تَمْنَحْ وَلَمْ تَهَبِ
وَلَمْ تَرُدِّ حَيَاةً بَعْدَ تَوَلِيَّةٍ وَلَمْ تُغِثْ دَاعِيًا بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ
والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجي، بخبر محزن، فهو يَتَشَبَّثُ
بالأوهام، ويلجأ إلى أوهى الأسباب .

(١) تجدد وصفاً بديعاً للجوش في القصيدة الدينارية وفي القصائد : « على قدر أهل العزم تأتي العزائم، و« رأى قبل شجاعة الشجعان، و« طوال قنا تطاعنها قصار، و« من أوصافه البديعة وصفه لبحيرة طبرية في قصيدته : « أحق عاف بدمعك الممسم، و« وصف الخيل في : « أبعد نأى المليحة البخل، و« وصف الليل في : « ضروب الناس عشاق ضروبا، و« أما وصفه الأسد، والحمل، وشعب بران، فمن مشهوراته .

ومن خير مراثيه وأقواها مَرِيتُهُ في جَدَّتِهِ ، ولكنه شغل أكثرها ،
كمادته ، بالحديث عن نفسه :

فَوَاسَفَا أَلَا أَكِبَّ مُقْبَلًا لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرِ الَّذِي مُلْتَاحَزَ مَا !
وَأَلَا أَلَا قِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَانَ ذِكْرِي الْمَسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا
وَلَوْ أَنَّمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ يَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي لَا تَفْهِمُ رَغْمًا

هذه نوازع نبيلة امتزجت بالقوة والرؤعة والجمال . (٢)

وللتنبى في الهجاء القول الممض والكلام المر ، ولم يكن كثير الهجاء ،
ولكن يتنا واحدا من هجائه كان يقوم مقام القصيدة الطويلة في الايلام وشدة
الابجاع وإصابة المحز ، فهو يقول لابن كروث جليس ابن عمار : —

فَلَوْ كُنْتُ امْرَأً تُهْجَى هَجَوْنَا وَلَكِنْ ضَاقَ فِئْرٌ عَنْ مَسِيرِ
هذا منتهى ما يصل اليه الاحتقار ، فهو ليس برجل يؤبه له حتى يهجي ؛ لأن
قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتر أقل من أن يتسع لمسير .
ويقول لأبي الفرج السامري ، أحد كتاب سيف الدولة :

صَغُرْتُ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتُ أَهْجَى كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الْهَجَاءِ
وما فُكِّرْتُ قَبْلَكَ فِي مُحَالٍ وَلَا جَرَّبْتُ سَيْفِي فِي هَبَاءِ
أليس ذلك منتهى الصلف القاتل ، والوخز الفاتك ؟

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ، ضَيِّفُهُمْ عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودِ
جُودُ الرَّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي ، وَجُودُهُمْ مِنَ اللِّسَانِ ، فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ !

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ تَقْوُسِهِمْ إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ تَنْتِنَاهَا عُودٌ
ولو أن إنسانا حاول أن يَهْجُوَ أَلَامَ مخلوق أظلمته السماء، ما استطاع أن
يقول فيه أنكى من هذا وأقذع .

وكانت للبتني فلسفة، وكانت هذه الفلسفة من أكبر أسباب إجادته، ثم
من أكبر أسباب شهرته، ولم تطغ عليه الفلسفة كما طغت على المعري حتى أفسدت
شعره أو كادت .

ويظهر لى أن فلسفة المعري كانت عن اطلاع، وفلسفة أبي الطيب كانت عن
ابتداع، وقد كانت هذه الفلسفة تلازمه في جميع فنون شعره، فهو إذا غر بنفسه
يقول :

وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَائِنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ
وإذا تَغَزَّلَ يقول :

تَقُولِينَ : مَا فِي النَّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتَهُ تُجِدِي مِثْلِي
وهذا قياس استثنائي يعرفه علماء المنطق ويفهمونه .
أو يقول :

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تَعْلَمُ عَرَضًا نَظَرْتُ، وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ
وإذا ذم يقول :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وإذا مدح يقول :

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ، وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وإذا وصف خيمة سيف الدولة التي سقطت من ريح شديدة يقول :

فَلَا تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمِنْ فَرَّحَ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ !

وإذا رثى يقول :

نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ
أما إذا شكا الزمان ، ونقد الاجتماع ، أو تعرض لآخلاق الناس ، فهناك
الانهمار في الحكمة ، وضرب الأمثال ، وفلسفة الحياة .

ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل ، فحكم أبي الطيب كثيرة جداً ، وقد تناولها
الأدباء بالجمع والتحيص والنقد ، وأكثر قصائده حكماً : لا افتخار إلا لمن
لا يضام ، و فؤاد ما تسلي المدام ، و لهوى النفوس سريرة لا تعلم ،
و صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ،

وغزل المتنبي غزل صناعى تطلبه الفن ، واقتصره الصناعة ، وكثير منه
مع هذا بالغ حدّ الجودة ، أليس من المرقص قوله :

أُتْرَاهَا لِكَثْرَةِ الْمُشَاقِّ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَاقِ
وقوله :

لَبِسْنَ الْوَشْيَ لَا مُتَجَمَّلَاتٍ وَلَكِنْ كِي يَصُنَّ بِهِ الْجَمَالَا
وَضَفَرْنَ الْفَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلَكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعَرِ الضَّلَالَا
وقوله :

وَحَضَرُ تَثَبُّتِ الْأَبْصَارِ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نِطَاقَا
وقوله :

سَقَاكَ وَحْيَانَا بِكَ اللَّهُ ، إِنَّمَا عَلَى الْعِيسِ نَوْرٌ وَالْخُدُورُ كَمَا عَمَّهُ
وَمَا حَاجَةُ الْأَظْمَانِ حَوْلَكَ فِي الدُّجَى إِلَى قَمَرٍ ، مَا وَاجِدٌ لَكَ عَادِمُهُ
وقوله :

وَلَوْ زُلْتُمْ ثُمَّ لَمْ أَبْكِكُمْ بَكَيتُ عَلَى حُبِّ الزَّائِلِ

أما غَزَلُهُ في الأعرابيات في قصيدته : « مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ ؟ » فقد بلغ فيه غاية الإحسان .

وكان المتنبي نخورا تَيَّاهَا ، وقد ملأ أكثر قصائده بالتحدث عن نفسه ، حتى عند مديحه للأمراء ، وحسبك أن تعلم أنه يقول عن نفسه في قصيدة أنشدتها بين يدي سيف الدولة :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنِّي خَيْرُ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ
الْخَلِيلِ وَاللَّيْلِ وَالْبِيدَاءِ تَعْرِفِي وَالسَّيْفِ وَالرُّمَحِ وَالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ
وَمَنْ أَسَمَى مَا قَالَهُ فِي الْحَمَاسَةِ وَالْفَخْرِ قَوْلُهُ : ..

وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعبَ مَنْ أَنْ أَجْعَلَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا
ولسكني مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْفَشْمَا
وجاعله عند اللقاء تحييتي وَإِلَّا فَلَسْتُ السَّيِّدُ الْبَاطِلُ الْقَرْمَا
إذا فلَّ عَزَمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بَعْدَهُ فَأَصْعَبُ شَيْءٍ ، مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزَمَا
وإني لمن قَوْمُ كَأَنَّ نَفْسَهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كذا أنا يادنيا ، إذا شئتِ فاذهبي وَيَا نَفْسُ زِيْدِي فِي كِرَائِهَا قُدَمَا
فلا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعِزُّنِي وَلَا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا
وللمتنبي بدائع بلغت الغاية في حُسْنِ تصوير المعاني وتجويد الصناعة ، وصوغ الأساليب يحسن أن نختتم بها هذا المقال كقوله :

كَرِيمٌ لَفَظَتْهُ النَّاسُ لَمَّا بَلَغَتْهُ كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمٍ
وقوله :

خَيْرَ أَعْضَائِنَا الرَّءُوسُ ، وَلَكِنْ فَضْلَتَهَا بِقَصْدِكَ الْأَقْدَامُ

ومن غريب أخيلته في وصف هول الحرب قوله :

واستعمار الحديد لونا ، وألقى لونه في ذوائب الأبطال

ومن إحساناته قوله يخاطب الحمى :

أَبْنَتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتَ أَنْتِ مِنَ الزَّحَامِ

جَرَحْتَ مُجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَكَانٌ لِلسُّيُوفِ وَلِلسِّهَامِ

وقوله في وصف السيف :

يَبْسُ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُجَرَّدٌ مِنْ غَمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُنْعَمٌ

رَيَّانُ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أَسْقَيْتَهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهْجَاتِ بِحَرِّ مُزِيدٍ

وقوله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عِيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سِيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ

وَقَدْ صُنَّتِ الْأَسِنَّةُ مِنْ هُمُومٍ فَإِذَا يَخْطُرُنَ إِلَّا فِي فَوَادٍ

وقوله وقد وفد على علي الحاحب راجلا : -

وَحِيلَتْ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ ، فَتَدَوَّتْ أُمَشَى رَاكِبًا

وقوله وهو من تخلصاته البديعة :

أَقْبَلْتُهَا غُرَّرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا

وقوله في وصف الخيل :

إِنْ خُلِّيتْ رُبَطَتْ بِآدَابِ الْوَعَى فَدَعَاؤُهَا يُغْنِي عَنِ الْأَرْسَانِ

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعِيُونَ عُيَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالْآذَانِ

وأوابد أبي الطيب التي بَرَّ بها الشعراء ووصل بها إلى قمة الفن الشعري ، أكثر من أن تجمع في مثل هذا المقال ، وتكفيها هنا هذه الكلمات الموجزة ، في

إذاعة شيء من سِرِّ عبقريته . على الجارم

المتنبى وكافور

بقلم محمد هاشم عطية

المدرس بدار العلوم

منذ أكثر من عام ، والناس يتحدثون عن أبي الطيب ، ويتبارون في تكريمه . والاحتفال بذكراه الألفية . وفي مصر وفي غيرها من البلدان العربية ، وفي الصحف والأندية ، وبين الكتاب والشعراء ، وفي المعاهد العالية والمحاضر الكبرى - يتطرق المتأدبون بدراسة أدبه وتجديد العهد بالبحث في تاريخه وشعره ، بوضع المحاضرات والرسائل ، وبالترجمة والتأليف والبحث (حتى خصته مجلة ، المقتطف الغراء . بعدد من سنتها الحاضرة ، في بحث ضاف ، وتحقيق جديد ، لباحث من نوابغ أدباء العربية .)

ولم يزل كل شاد في الأدب ، وكل متماثل إلى الشهرة ، يتخذ من البحث في حياة المتنبى وسيلة إلى الذكر ، ومادة للتأدب ، ومثارا للنقد والجدل ، وما خلا عصر من عصور العربية ، ولا مصر من أمصار المشاركة من الإغراق في آثار هذه العبقرية الفذة ، والتحلي بمطلق التناول لهذه الشاعرية الفاخرة ، وتجرد كثير من العلماء في أزمان متعاقبة ، لوضع الأشعار ، وتصنيف الكتب ، في التكريظ والنقد لأدب أبي الطيب . واعترضه الباحثون بالموازانات ، وتحقيق الوساطة بينه وبين شعراء عصره وغير عصره ، وزخرت خزائن الكتب بهذه الشروح والبحوث ، حتى لم يبق لقائل موضع ، ولا لكاتب متعلق ، وكان لك أن تقول : إن كل ما يتعامل به أهل زماننا ، أو يدعو به في أبي الطيب من استخراجهم لدخيل ، أو تحصيلهم لفائق ، أو فصلهم في خلاف ، أو استدراكهم على باحث ، إنما هو حديث معاد ، ونقل عن كتاب إلى كتاب . وكذلك كان لك أن تقول : إن من حسن البحث في هذا العصر أن يتناول معه غيره ممن جروا في شأوه ، أو تخلفوا عنه ؛ ليعرف الناس عنهم بعض ما عرفوا عنه ، وليشتد تمييزهم لمكان الفرق بينهم وبينه ، وبذلك يصلون أرحاما

محفوة ، ويفتحون من الأدب كنوزاً دفينه ، ويحسنون الخلافة في إرثهم عن السلف ، مما لا تزال أسرارهم مصونة . ومحاسنهم مجهولة ، وهناك يرى الناس وسع المتأدب ، وجهد الكاتب ، ويعرفون لهم الفضل ، ويجزونهم الخير ، وأما المتنبي فيكفي أن يتدارس الناس أشعاره ، ويحفظوا أكثر ما يقدرون عليه من قلائده ، ويفرغوا أطواله وأوابده ، بالخواطر القوية ، والذاكرة النادرة ، توخيلاً إقامة السياق ، وحرصاً على السلامة من هجنة النسيان ، لأن الشعر خاصة لا يستغنى عن نصه بالحكاية ، ولا تجوز روايته بالكلام ؛ ولأننا صرنا إلى حال لا نجد فيها الذين يستطيعون الإلقاء من الغيب ، ولا الذين يتمتعون بالمخاطبة المجاذبة ، ولا الذين كانوا يمثلون السامر بطرائف الأخبار ، وغرائب الأشعار ؛ استملاء من حوافظهم ، وقراءة من سجل صدورهم ، فكانوا يحييون للناس الأدب ، ويكثرون بمثل هذه المطارحات الممتعة عشاق اللغة . فيلقون بهذا اللهو إلى الناس أدبا ، وينشئون لهم ثقافة عربية ؛ لا يضطرارهم إلى التعقب على أنفسهم ، والوقوف مما يروونه موقف الممتحن المثبت ، حتى يتألف لهم من شوارد الأدب ، ولطائف الفطن ما ينظم به موقعهم ، ويشوق النفوس إلى سماعهم ، والأخذ من كلامهم ، وهم الظرفاء وأصحاب النواذر الذين يتطيب الناس بملحهم ، ويعمرون بهم مجالسهم ، ويزكون بأدبهم أنفسهم ، ولقد أردنا بمقالنا هذا أن ننبه إلى هذه الحالة ، ونثير أشد الاهتمام بالرجوع إليها ، لتحصيل الحفاظ من أثبات اللغة والأدب ، ولأننا نعتقد أن حظ الرواية من عناية المتأدبين لا ينبغي أن يكون أدنى من شغفهم بالتحليل الأدبي ، والدراسة الحديثة ، والعقلية الخصبية ، والقصص الفنى وغير ذلك ، مما تسمع له جعجة ولا ترى طحناً ؛ لا اعتقادنا بأن ذلك أزين لهم ، وأشبه بأمرهم ، وأحرى أن يجدوا من هذه الذخائر عند الحاجة عتادا حاضرا يكسرون به سوانحهم ، ويحملون به منطقهم ، وإن كنا بذلك قد أقحمنا أنفسنا في غمار المكرمين لآنى الطيب ، والمحتفلين بتخليده ، ونحسب أننا بما سنقضى به من بعض ما لا حظناه في أكثر ما كتب عنه في أيامنا الحاضرة ، سنكون أبلغ احتفالا وأسنى تكريما ، على حساب أننا

لا تنفى عنه عيبا ، ولا نضيف اليه مفخرا جديدا ، ولا ندعى أننا سنزيل من أمره لبسا ، أو نحل متعقدا ، إلا النظر فى هذه المحاولة التى يراد بها إسناد المتنبى إلى غير أبيه ، واستخراجه من غير معدنه ، والادعاء بأنه علوى النسب ، هاشمى الأرومة ، والاتجاه فى ذلك إلى التأويل للحكم ، والالتهام للثقة ، والانتحال لكل حيلة لتحسينه من كل تهمة ، وتبرئته من كل مذمة ، والتصدى لاحتمال المكروه عنه ، مع أنهم يعلمون أن وضع الرجل فى غير موضعه ، وإعطاءه ما ليس من حقه ، تهجين لشأنه وذم له ، يظنون أن من ذكر المتنبى فأحسن اليه ، وأحمد الخبر عنه ، وأسبغ من دفاعه ستارا على عيبه - فقد أوتى الحكمة ، وبلغ نهاية الفهم ، وصار مستحقا لاسم الأدب ، وداخلا فى جملة الموسومين عند الناس بالأدباء ، لتوهمهم أن الناس لا يتجرون عليه ، ولا يقدر منهم على مسافات خواطره ، ومسبج إلهاماته ، إلا الذين أصفاهم ربهم بالفطن ، وأعانهم بتمام البصيرة ، من المنحوتين على مثالهم ، والمتخبين من طرازهم ، ولكن ذلك على ما فيه من المناقضة للتاريخ الثابت ، والمعارضة للصريح من النصوص ، ليس بمغن عنهم شيئا ، ولا بنافعهم قليلا ولا كثيرا ، ولا هو من الأمانة الأدبية التى لا أظن أن التوى به بخلافها يروج على العقول فى أيامنا هذه ، ومع أن الشاعر نفسه قد أسقط عن الناس هذه الكلفة ، وأعفاهم من احتمال هذه المثونة ؛ باعترافيه فى شعره ، وتصريحه لممدوحه . بأنهم أولى له ، وأفضل عنده من أهله الذين لم يشرف بهم ، ولا تناول ما تناول من المجد بأولهم ولا بآخرهم . وقد آثرنا أن نكتفى فى الاستدلال على ذلك بحياته فى مصر مدة انقطاعه لكافور . ونحب قبل تلخيص هذه الصلة ، أن نذكركم بتقدمة صغيرة لهذا الأمير ، الذى حظى من روائع المتنبى ، بما رفعه إلى مصاف العواهل من هامات الأمم ، وأقذاذ العالم . ثم عاد فألحقه بأحقر من الخشاش والخنازير ، وشمم معه مصر ، وأضحك من أدها ، ومن جهلهم الأمم ، بما نريد أن نجعله مظهرا لأخلاق الشاعر وصفاته ، وما يتناسب مع ذلك من حسبه ونفسه .

والمعروف كما تقول الكتب . أن كافورا هذا كان عبدا أسود مخصيا ، مشقوق الشفة السفلى ، بطينا ، قبيح القدمين ، ثقیل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة ، وأنه دخل في خدمة أبي بكر بن طنج وولديه الصغیرين ، فلما مات سيده ، تقيد الأسود بخدمة ولديه وخدمة أمهما . وقرب إليه من شاء . فتقرب إليه الناس ؛ من صغر همتهم ، وخسة أنفسهم . وسعى بعضهم ببعض ، حتى صار الرجل لا يأمن أهل داره على أسراره . وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده ، وقد بلغ من أمره أن ملك مصر والشام والحجاز ، بعد موت أبي الحسن علي بن الأخشيد سنة ٣٥٥ وبقي في هذه الولاية حتى مات سنة ٣٥٧ . وفي خلال المدة من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠ اتصل به أبو الطيب . ولا يعنينا هنا أن نفيض في وصف الحالة الاجتماعية في البلاد المصرية ، في ذلك الأوان ، وخلوها من أهل البيوتات ، ومن ذوى العvisية . حتى يخلص ملكها لهذا الخصى ، على ما أسلفنا من وصفهم له ، وتهكمهم به ؛ وإنما يهمنا من هذه الناحية أن يكون كافور على ذلك موضوعا لهذه المدائح العجبية من المتنبي ، ومحلا لتفضيله إياه على أهله كما ستراه بعد . وأكثر الباحثين يرجحون أن المتنبي رحل إلى مصر مراغما لسيف الدولة ؛ لسأته من طول مقامه معه ، ولم يمكنه بما كانت تصبو إليه نفسه ، من ولاية ثغر ، أو كورة من أعماله ، ولما أصابه منه ومن أهل مجلسه من التحميل والإعراض ؛ وكان يرى أنه لا يكون أثقل على قلبه مع أحد أبغض إليه من كافور ، عدوه ومنازعه في ملكه ؛ وكان بالضرورة يطمع من كافور فيما خاب رجاءه فيه عنده ، حتى صرح بغرضه هذا في أول شعر أنشده كافورا ، في مجلس ملكه ، وبين رجال دولته ، وهو قصيدته التي مطلعها :

كُنِّي بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنِّيَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاغِيَا

يريد أن يقول : كنى بالمرض أن يبلغ بك إلى غاية من الاعضال وانقطاع الرجاء من الإفاقة ، ترى معها التخلص بالموت شفاء وراحة . وحسبك

شقوة في الحياة ، أن تصل بك بلواك إلى أن تصير مُنَاك في مَنَاياك ، حين لم تجد بين الناس صديقا ، ولا عدواً يمكن أن يُسَاطِرَكَ بالعداوة . ولقد تطير كافور من هذا المطلع وتشام به ، ولم يدر ما أوقع هذا الشاعر في تلك الورطة ، مع شهرته المتعالة ، وما يصف به نفسه من العلم والفهم والشعر ، وقد اعتذر عن ذلك بعضهم بقوله : إن أمله لفراقه سيف الدولة ، سبق أمله في كافور ، فقال ما قال ، وهو ما لا ينبى عن الشاعر هذه الهجنة القبيحة ، وفي هذه القصيدة يقول :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ ، تَوَارِكُ غَيْرِهِ	وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانٍ عَيْنٍ زَمَانِهِ	وَخَلَّتْ يَبَاصًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا
قَتَّى ، مَا سَرَيْنَا فِي ظُهُورِ جُدُودِنَا	إِلَى عَصْرِهِ ، إِلَّا نُرَجَّى التَّلَاقِيَا
أَبَا الْمِسْكِ ، ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ تَائِقًا	إِلَيْهِ ، وَذَا الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا
إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِي بِالْبَدْيِ	فَإِنَّكَ تُعْطَى فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا
وَعَبْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ	فَيَرْجِعَ مَلَكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالْيَا
أَبَا كُلِّ طَيْبٍ ، لَا أَبَا الْمِسْكِ وَخَذَهُ	وَكُلُّ سَحَابٍ ، لَا أَخْصُ الْغَوَادِيَا
يُدِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلُّ فَاحِرٍ	وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا

فتراه جعله بحرا ، ومن عداه ضحضا حاووشلا ، وإنسان عين الزمان ، والناس كلهم مآق وحماليق ، وأنه لا يبعد على زائره أن يرجع ملكا على العراقيين ، وهى أمنيته التى اسخطه عدم تحصيلها ، على قضاء الله فى عباده ، وبقى طول عمره يُرِيغُ الناس بكبرياته وهجائه لمن يعرف ولمن لا يعرف من الحسد والتبرم ، ويقول : إن الناس يفخرون بالمنقبة الواحدة ، من الكرم أو الشعر أو الشجاعة ، وأنت قد جمع الله لك المناقب ، وخصك بما تفرق فى الناس من المزايا - قال البديعى : وكان لا يجلس عند كافور بل ينشده وهو واقف ، وإن كافورا دس إليه من يقول له : قد طال وقوفك فى مجلسه ؛ ليعلم ما عنده ، فكان جواب أبى الطيب العالى الهمة كما يزعج

ويزعمون أن قال للأسود المشقوق الشفة كما سماه :

يَقِلُّ لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى الرَّؤُوسِ وَبَذَلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ الْنَفُوسِ
قال : وعجيب أن يفعل ذلك بعد هذه الشهرة الطائرة ، ولم يكن كذلك عند
سيف الدولة صاحبه ومنشئه ، وبعد ذلك أنشده قصيدته :

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ حُمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَايِبِ ؟
ويقول فيها :

مَا أَوْجَهُ الْحَضَرَ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجِهِ الْبَدْرِيَّاتِ الرَّعَائِبِ
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيقَةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبِ
ثم يقول لكافور :

يُدْبِرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ ، إِلَى عَدَنٍ ، إِلَى الْعِرَاقِ ، فَأَرْضِ الرُّومِ ، فَالْزُوبِ
إِذَا أَتَتْهَا الرِّيَّاحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهْبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ
وَلَا تُجَاوِزُهَا شَمْسٌ إِذَا شَرَقَتْ إِلَّا وَمِنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ
ثم يقول :

قَالُوا : هَجَرْتَ إِلَيْهِ النِّمَيْتَ ، قُلْتُ لَهُمْ : إِلَى غِيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّائِبِ
إِلَى فَتَى تَهْبُ الدَّوَلَاتِ رَاحَتَهُ وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ .

فتراه هنا رفع كافورا إلى مراتب ما فوق البشر ، إذ جعله يتحكم في قوى الطبيعة ، فيحول بارادته حدة الرياح الهوج إلى لين واستواء ، والشمس لا تغرب عن مصر إلا بارادته وبعد أن تستأذنه ؛ ثم عرض بصاحبه القديم ولم يحفظ عهده ، وفضل عليه كافورا أيما تفضيل ، إذ جعله يعطي الممالك ولا يشوب عطاءه بما يكدره من المن . ويقولون : إن كافورا كان يكره أن يذكر لونه في مدح أو ذم ، وكان ذكر السواد في أذنه أشد من الموت ؛ ومن العجيب أن المتنبي كان يعلم

ذلك ولم تخل قصيدة من كافور ياته، من ذكر السواد تصريحاً أو تليحاً؛ وقد صرح به في تهنته له بدار بناها جاء فيها قوله :

وَبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ، لَيْسَ بِالسِّنِّكَ وَلَكِنَّهُ أَرِيحُ السَّنَاءَ
نَزَلَتْ إِذْ نَزَلَتْهَا الدَّارُ فِي أَحْسَنَ مِنْهَا : مِنَ السَّنَا وَالسَّنَاءِ
حَلَّ فِي مَنبِتِ الرَّيَّاحِينَ مِنْهَا مَنبِتُ الْمَكْرُمَاتِ وَالْآلَاءِ
تَفْضَحُ الشَّمْسُ، كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ سُسُ، بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي أَلْمَجْدُ فِيهِ أَضْيَاءَ يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءِ
كَرَمٌ فِي شَجَاعَةٍ، وَذَكَاءٌ فِي بَهَاءِ، وَقُدْرَةٌ فِي مَضَاءِ
يَا رَجَاءَ الْغَيُوثِ فِي كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي

فقد جعله يفضح الشمس حين تذر بوجهه الأسود، الذي جعل لصاحبه هذه الخلاصة من الشمايل من شجاعة إلى كرم إلى ذكاء، إلى روثق وبهاء واقتدار وعزم، وأنه مطمح أنظار الناس من كل الأقطار؛ وانظر إلى هذه القلادة البارة :
أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
أَمَّا تَغْلَطُ الْإِيثَامُ فِيَّ بِأَنْ أَرَى بَغِيضًا تُسَائِي، أَوْ حَبِيبًا تُقَرِّبُ؟
ومنها يقول :

إِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانَ أَهْلًا وَرَاءَهُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَبُو الْمِسْكِ أَوْهُمْ
وَيَعْمَ كَافُورًا، فَهَذَا يَتَغَرَّبُ
فَأَيْكَ أَهْلِي فِي فُؤَادِي وَأَعَذِبُ
وَكُلُّ أَمْرِي يُؤَلِّي الْعَجَبُ مُحَجَّبُ
وَكُلُّ مَكَانٍ يُذَبِّتُ الْعِزَّ طَيِّبُ
أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلُ أَنَالَهُ؟
فَأَنِّي أَغْنَى مُنْذُ حِينَ وَتَشْرَبُ

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَى زَمَانًا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَيْكَ تَطْلُبُ!
 إِذَا لَمْ تَنْطَبِ بِضِيْعَةٍ أَوْ وَلَايَةٍ فَجُودُكَ يَكْسُونِي، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ
 فتراه هنا أيضا ذكر الولاية وفي نظير ذلك كان كافور عنده أشرف من أبيه
 وأعلى عنده من أهله؛ وهذه لا نجد لها عند حبيب يبيع أهله بنسيئة. وبعد هذه
 أنشده قوله - وقد كاد اليأس يشتد في نفسه -: «مَنْ كُنَّ لِي أُنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ،
 جَاءَ فِيهَا :

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ؟
 وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ سَكُوتِي يَبَانَ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
 وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدْلَّ عَوَازِلِي عَلَى أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابُ
 وَأَعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِي : فَشَرَّفُوا وَغَرَّبْتُ ، أَنِّي قَدْ ظَنَمْتُ وَخَابُوا
 جَرَى الْخُلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنْتَ وَاحِدٌ وَأَنْتَ لَيْتُ ، وَالْمُلُوكُ ذِيَابُ
 وَأَنْ مَدِيحَ النَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابُ
 وَمَا كُنْتُ (لَوْ لَا أَنْتَ) إِلَّا مُهَاجِرًا لَهُ كُلُّ يَوْمٍ بَلَدَةٌ وَصِحَابُ
 وَلَكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَى حَبِيبَةٍ فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

وانقطع بعد إنشاد هذه القصيدة ، لا يلقى الأسود إلا أن يركب ، فيسير معه
 في الطريق ، ثم عجل الرحيل ، وقد أعد كل ما يلزم له على مرور الأيام بلطف
 ورفق ، ولا يعلم به أحد من غلمانه ، وهو يظهر الرغبة في المقام ، وطال عليه
 التحفظ فخرج ودفن الرماح في الرمال ، وحمل الماء على الإبل ليشرب ليال ، وتزود
 لعشرين ، وقال في يوم عرفة من سنة ٣٥٠ هجرية قبل مسيره بيوم واحد :
 « عيد بأية حال عدت يا عيد ؟ »

وهي أول أهاجيه في كافور ، وإنك ليتولاك العجب الشديد من هذه المناقضة
 السريعة . وجدير بكل أحد أن يحيره هذا الأمر الغريب : مديح مسرف

يرفع كافورا إلى مالا يطمع فيه الملوك ، ولم يمدح بمثله أجد ، وإلى جانبه وعلى أثره
ومن غير ذنب ولا ترة ، هجاء مقذع ، ينزل بالمهجو إلى أحط من الخشاش والخنازير !
أ يكون هذا جاريا على نوع من العبث والهزؤ ، أم هو جنون وإهتار ، أم خسة
منبت ورداءة أصل ، أم يكون من قلة الحياء وعدم المبالاة على حد : ، إذا لم تستح
فاصنع ماشئت ، ؟ . إن الذين يفرضون هذا كله ، يجدون من عمل الشاعر ما يحققه
ويثبت ، ولا أدري لماذا يعز على بعض الباحثين أن يكون المتنبى عظيما في شعره
ووضعا دينيا في خلقه ، مادام هو الذى يعطى البرهان على هذه الضعة ؟ وهل سمعت
بأن إنسانا يضع نفسه ، ويشرع للتهمة بابه ، وينصب لسهام القالة صدره - نفعه
دفاع متتصر ، أو حمته محاولة متعصب ؟ وماذا يصنع الناس مع أعاجيبه ومناخه
الماضية بقوله :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ، ضَيَّفُهُمْ	عَنِ الْقِرَى وَعَنِ الرَّحَالِ نَحْدُودُ
جُودُ الرَّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي ، وَجُودُهُمْ	مِنَ اللِّسَانِ ، فَلَا كَأُتُوا وَلَا الْجُودُ !
مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نُفُوسِهِمْ	إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ
مِنْ كُلِّ رِخْوٍ وَكَاءِ الْبَطْنِ مُنْتَفِخُ	لَا فِي الرَّجَالِ وَلَا النَّسْوَانِ مَعْدُودُ
أَكَلَمَا ائْتَالَ عَبْدُ السَّوءِ سَيِّدُهُ	أَوْ خَانَهُ ، فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ ؟
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا	فَالْحُرُّ مُسْتَعْبِدٌ ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ !
الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخْ	لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ ؛	إِنَّ الْعَبِيدَ لَا تُجَاسُّ مَنَاصِيدُ

ثم يقول :

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرُمَةً	أَقْوَمُهُ الْبَيْضُ ، أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ ؟
أَمْ أُذُنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً ؟	أَمْ قَدْرُهُ وَهُوَ بِالْفَلَسِينِ مَزْدُودُ ؟

وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةً عَنْ الْجَمِيلِ، فَكَيْفَ الْحَصِيَّةُ السُّودُ؟
ولا نريد أن نعلق على هذا الكلام؛ فما نظن أن أحدا باقيا من أهل الأدب
لم يقرأه، ولم يتعجب من فداذته في الإقذاع والإفخاش. ثم تراه يعارض أول
مدائحها فيه من القافية والوزن إذ يقول:

أُرِيكَ الرُّضَالَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا
أَمِينَا، وَإِخْلَافَا، وَغَدْرَا، وَخِصَّةً وَجُبْنَا؟ أَشَخْصَا أَخْتِ لِي أَمْ نَخَازِيَا؟
أيصح أن يوضع هذا إلى جانب ما تقدم من قوله:

يُدِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلُّ فَآخِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا
وانظر بعد ذلك الى ما هو أغث وأبرد وأهجى وأشد، من قوله من تصيدته
الاكل ماشية الخيزلي،

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الْخَصِيٍّ م أَنَّ الرُّءُوسَ مَقَرُّ النَّهْيِ
فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيْتُ النَّهْيَ كُلَّهَا فِي الْخَصِيِّ
وَمَاذَا بَعُضَرَمِنْ الْمُضْحِكَاتِ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكَ كَالْبُكَا
بِهَذَا نَبْطِيٍّ مِنْ أَهْلِ السَّوَا د يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَا
وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ: أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
وَشِعْرٌ مَدَخْتُ بِهِ الْكَرَّ كَدَنٌ م بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَذْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَافِهِمْ وَأَمَّا بَرْقُ رِيَّاحٍ، فَلَا
وَذَاكَ صَمُوتٌ، وَذَا نَاطِقٌ إِذَا حَرَكَوهُ فَنَسَا أَوْ هَذَى
وَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

ولا نكرم هذا الشعر الساقط بأي تعليق أيضا، غير أننا ننهي كلمتنا هذه، بأن

نذكر الناس بما وقع بين زياد النابتة وبين ملوك الحيرة، حين نفوه، وأهدروا دمه، فارتحل عنهم إلى الشام، وأقام مدة في بلاد الغسانيين، حافظا بأقيا على وفاته وإخلاصه وقد لطفت فطرته، ووقع بثقوب ذهنه وأعراقه، على أكرم المعاذير، وأجمل المقاييسات، في منطق الحجة، ومعرض العتب، حتى صار بذلك مثلاً للحفاظ والوفاء، وهو القائل عند رغبته في العودة إلى النعمان :

مُلُوكٌ، وَإِخْوَانٌ، إِذَا مَا أَتَيْتَهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَنَعَتْهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرٍ ذَلِكَ أَذْنُبُوا
ويلاحظ المؤرخون على أبي الطيب، أنه لم يذكر مشاهد مصر في شعره، ولا أطرى عجائبها وآثارها ولا نيلها وجسورها ولا أهلها ونزلامها إلا بهذا السخف التافه في مثل ما قدمنا من قوله: وماذا بمصر... البيت ولعل في هذه الحالة، ما يضع بعض الضوء على حياة امرئ القيس، الذي جعل بعض باحثي زماننا عدم تعرضه لذكر القسطنطينية في شعره، من الأدلة على أسطورة تاريخه. وظاهر أن امرأ القيس هنا أعذر من المتنبى؛ لأنه يطالب بملك مسلوب، وأما هذا فيحاول الحصول على إمرة متغصبة، على أن لأهل مصر الذين قام نفر منهم بالأمس بتكريمه بعض السلوى عن شتمه إياهم؛ لأنه ذم أهل الأرض جميعا قبلهم، حين يقول :

وَدِهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صَنَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّةٌ ضِخَامٌ
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ مُوَالٍ بِالْعِيشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
وقوله أيضا وهو أشنع وأهجى وأدل على سوء الأدب والسخف :

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ فَأَعْلَمُهُمْ قَدَمٌ، وَأَخْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٌّ وَأَسْهَرُهُمْ فَهْدٌ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ

وبعد، فقد ترى أن أبا الطيب كان أشعر الناس ولكنه - عفا الله عنه - كان الأهم طبعاً، وأحطهم نفساً، وأخسهم أصلاً، كما أراد لنفسه وكأحكى عنها. والله أعلم.

المتنبى فى مصر

بقلم احمد احمد بروى

المدرس بمدرسة بنى قادن الابتدائية

- ١ -

بعد نحو عشر سنوات قضاها المتنبى فى ظلال سيف الدولة ، حدثت الجفوة بينهما ، بمقام به حاسدوا بنى الطيب : من وشاية ووقعهم ، حملت سيف الدولة على أن يصم أذنيه ، ويغمض جفنيه ، عما لحق بشاعره من إهانة فى حضرته على يد ابن خالويه ، حين قام بينهما نقاش فى اللغة تسابا على أثره ، وأخرج ابن خالويه من كبه مفتاحا من حديد ، ضرب به وجه المتنبى ، وأسال دمه على وجهه وثيابه ، فلم ينصفه سيف الدولة ، ولم يأخذله بحقة ، مما يدل على أن الجفاء قد استحکم من نفس الأمير ، وأن الرشايات قد فعلت فعلها فى قلبه ، وما ظنك برشايات يثيرها أبو فراس الحمدانى ابن عم سيف الدولة ؟ فإن ما كان يدور بينه وبين بنى الطيب من حوار ومناقشة ، يدلك دالة لا تحتل الشك ، على أنه كان من المدبرين مع من يدبر على إبعاد المتنبى من مكاته التى نالها لدى سيف الدولة .

غضب المتنبى لما ناله ؛ فخرج لا يلوى على شىء ، مزعما فراق سيف الدولة ، وفراق البلاد التى تخضع للملكه وسلطانه ، فألقى عصا التسيار بدمشق التابعة للملكه المصريه فى ذلك الحين ، ويقول بعض المؤرخين : إن كافورا الأخشيدى أرسل إليه وهو فى تلك المدينه يطلبه ، فأعرض وأبى قائلا : لا أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما قصدى إلا ابن سيده . هكذا يقول البعض ؛ أما أنا فأكاد أوقن أنها روايه مكذوبه عليه ، بدليل أنه حين جاء إلى مصر مدح كافورا وأطنب فى مدحه ، على عكس تصريحه السابق ، الذى لو ثبت أنه قال لخشى - على أقل تقدير - أن يصل علمه إلى كافور ، فيحقق عليه ، ويعمل على الانتقام منه ، ولكنه - على

العكس من ذلك - لم يشد إلا بذكر كافور ومآثره ، ولم يعرض لابن سيده إلا عرضا من غير قصد ؛ وإنما نرجح أن أبا الطيب حين خرج مغاضبا لسيف الدولة ، فكر في أن ينتقم لنفسه مما لحقها من الإهانة ، وعول على الالتجاء إلى كافور الذى كان منافسا لسيف الدولة في البلاد الشامية ، وطالما وقعت الحروب بين الإخشيد ولى نعمة كافور ، وبين سيف الدولة ؛ مما جعل بعض بلاد الشام تدخل في ملكة الإخشيد حيناً ، وفي ملكة سيف الدولة حيناً آخر ، وكان كافور نفسه أحد القواد الذين نصبهم الإخشيد على جيشه المحارب لسيف الدولة ، ومن هنا نشأ التنافس بين سيف الدولة وكافور ، ذلك التنافس الذى جعل المتنبى يفكر في الالتحاق بمنافس أميره ، الذى لم يرع له حقوقه ، ولم يعرف له قدره ، وقد يجوز أن كافورا كاتبه بالمسير إليه ، حين علم بما حدث بينه وبين سيف الدولة من جفاء ، فأجاب المتنبى طلبه ، رجاء أن يبلغ عنده ما يغسل الإهانة التى لحقت به . أضف إلى هذا أن كافورا كان يحب الأدب ويعطف على الأدباء ، مما يجنب المتنبى فيه ويبعث فيه الأمل على أن ينال منه كل أمانيه .

- ٢ -

كافور الإخشيدى ، ويقال له : الأستاذ كافور ، ويكنى بأبى المسك ؛ أصله عبد حبشى خصى اشتراه الإخشيدى من بعض أهل مصر بثمانية عشر ديناراً ، فما زال يتقدم عند سيده ، حتى أصبح مربى ولديه ، وقائداً من أكبر قواده الذين اعتمد عليهم في تأسيس دولته ؛ لعقله ، وتدييره ، وشجاعته ، وحسن رأيه . فلما مات الإخشيد ، وكان قد أخذ البيعة من بعده لابنه أنو جور ، قام كافور قيما عليه ، لأن الأمير كان لا يزال قاصراً لا يستطيع إدارة البلاد ، فأصبح هو الأمير الحقيقى للبلاد ، وصاحب الحول والطول فيها ، حتى مات أنو جور عام تسع وأربعمائة ، وتولى بعده أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد ، فاستبد كافور بالأمر دونه ، حتى بلغ من شأنه أن منع الناس من الاجتماع بالأمير ، ويقال : إنه حين كبر ، وتبين ما هو فيه باح الشراب بما فى نفسه من ألم دفين : ألم ذى الحق المنصوب ، والأمر السليب ، تخاف كافور أن يفلت العرش من يده ، ففس له السم ، فمات

سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وهنا تولى كافور أمر مصر ، وأظهر خلعا وكتبا من الخليفة بولايته لمصر والشام والحجاز ، فتولاها حتى مات عام سبعة وخمسين وثلثمائة .

كان لكافور ناحيته المشرقة : من طموحه وهمته التي بلغت به الملك ، وله ناحية أخرى تضعه وتخط من قدره ، ولكنه ليس له يد فيها ، فهو عبد أسود خصى مثقوب الشفة السفلى ، بطين مشقق القدمين ، ثقیل البدن . إلى غير ذلك من صفات جسمية تنأى به عن الجمال والحسن ، وقد استغل أبو الطيب الناحيتين ؛ فنظر إليه من الناحية الأولى حين أراد مدحه ، ونظر إليه من الناحية الثانية حين هجاه وأقذع في هجائه .

- ٣ -

في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلثمائة ، نزل المتنبي الديار المصرية ، وكان القائم بإدارة الملك كافور الاخشيدى ، نائبا عن أنو جور لصغر سنه ، كما أسلفنا ، فأمر له كافور بمنزل خاص به ، وخلع عليه . وحمل اليه آلاف من الدراهم كما يقول الرواة ، فأنشد أول قصيدة يمدحه فيها ومطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسَبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وإذا نحن قطعنا النظر عن انتقاد الرواة لمطالع هذه القصيدة ، بدعوى أنه غير لائق بفاتحة قصيدة تقال في مدح الملوك - إذا نحن قطعنا النظر عن هذا ، وجب علينا أن نلصق الإحساسات والرغبات التي كانت تدور بنفس أبي الطيب حين أنشأ هذه القصيدة ، وإنا إذا فعلنا ذلك رأينا عكس ما يراه الناقدون ، إذ نرى هذا البيت ممثلا أعظم تمثيل لنفسية المتنبي ، الساخط على الصداقة والأصدقاء ، بعد أن أصابه في مجلس سيف الدولة ما أصابه . وفي الحق أننا نلصق ثلاثة هواجس كبرى أملت بالمتنبي حين أراد إنشاء هذه القصيدة ، فعبّر عن هذه الهواجس ، وجعلها فاتحة قصيدته في مدح كافور : أول هذه الهواجس سخطه العميق على الصداقة والأصدقاء ، وشدة ضجره من قسوة أعدائه عليه ، حتى

ليجهرون بعدواته من غير لثام ولا خباء ، وحسبك أن تقرأ هذين البيتين لترى
فيهما تلك الروح الساخطة :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنِّيَتْهَا لَمَّا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا ، فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

أما الإحساس الثانى فهو إحساس النفس الطموح ، تصاب فى أمانيتها ، فلا
تخضع ولا تلتين لعركة القدر ، ولكنها توطن أمرها على أن تجدد ، وعلى أن تعمل ؛
أنفة من العيش بذلة ، وكأن المتنبى حينئذ يحدثنا عما حداه إلى مغادرة سيف
الدولة ، وأنه طموح نفسه وأنفتح من الخضوع والخنوع . قال :

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلَا تَسْتَعِذَّنِ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا
وَلَا تَسْتَطِيلَنَّ الرِّمَاحَ لِنَارَةٍ وَلَا تَسْتَجِيدَنَّ الْعِتَاقَ الْمَذَاكِيَا
فَمَا يَنْفَعُ الْأُسْدَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى وَلَا تُتَّقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا

أما الإحساس الثالث فهو ذلك الإحساس الذى ملك عليه كل وقته أيام إقامته
بمصر ، وهو نزوع قلبه إلى سيف الدولة ، وبجاهدته هذا النزوع ، وفى الحق أن المدة
الطويلة التى قضاهما فى أكناف سيف الدولة ، والبر الذى ناله على يديه ، وجلال الذكر
ونباهة الصيت الذى حازه بسبب قربيه منه واستظلاله بظله ، كل ذلك كان له أثره
العميق فى نفس أبى الطيب ؛ فكانت نفسه تنازعه دائما إليه فيحن إلى عهده ،
ويتوق إلى أيامه ، ثم يعود إلى نفسه ، يلتمس لها عذرا فى مفارقتها ، لتصرف
حينئذ عن النزوع الشديد إليه ؛ فيرميه بالغدر ، وأن جوده شيب بالأذى ، وأن
وده غير صاف ، وقلبه غير واف . وإن مثل تلك الدعاوى ، تستوحىها النفس
المكرومة لتخفف بها ثورتها ، وتهدى لاجئها ، وأنصت إلى النزاع الذى دار بينه
وبين قلبه حين يقول :

حَبِيبُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ غَدَارًا ، فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ بِشَكِّكَ بَعْدَهُ فَلَسْتُ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِياً
فَإِنْ دُوعَ الْعَيْنِ غُذِرَ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا
إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خُلَاصاً مِنَ الْأَذَى

فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوباً ، وَلَا الْمَالُ بَاقِياً
أَقْلَّ اشْتِيَاقاً أَيُّهَا الْقَلْبُ ، رَبِّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مَنْ لَيْسَ صَافِياً
ولكن المتنبي لا يكتفى بهذا ، بل إنه ليذهب متسائلاً عن سبب هذا الحنين
المواصل إليه بعد ما لحقه من الإهانة في مجلسه ، فيعمل ذلك ويقول :
خُلِقْتُ الْوُفَا ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا

لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِياً

وخرج بعد ذلك إلى وصف الخيل التي أوصلته إلى كافور ، ثم إلى مدح
كافور ، ولقد رأيت فيما أسلفنا أن لكافور ناحيتين : ناحية يليق بها المدح ،
وأخرى يليق بها الهجاء ، ولقد استغل المتنبي ناحية الجمال في كافور ، فغالى في المدح
أيما مغالاة ، وافتن فيه أيما اقتنان ، في هذه القصيدة وسبع القصائد الأخرى التي
أنشدتها في المدة التي بقيها بمصر مدحاً لكافور ، وسنعرض لهذا المدح بعد ، غير
أنا نريد فقط أن نلصق الروح التي سرت في هذه القصائد ، والميزات العامة التي
تبدو عليها ، ويظهر أن أولى هذه الميزات إلحاحه المتواصل على كافور ، أن يوليه
ولاية ، أو يجعله على عمل ، لمح بهذا في أولى قصائده حيث قال :

وَعَبْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ مَلَكاً لِلْمِرَاقِينَ وَالْيَا
فَقَدْ تَهَبَّ الْجَيْشُ الَّذِي جَاءَ غَازِيَا لِسَائِلِكَ الْفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا

ثم طلب إليه صراحة أن يكل إليه أي أمر أراد ، فانه أسد القلب ، آدمى
الرواء ، فلما لم يكل إليه أمراً بعد مضي أربعة أشهر على قدومه مصر ، عاد يطلب
منه أن يوليه ولاية بالإغراء الملح حيث يقول :

قَالُوا: هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْعَيْثَ؛ قُلْتُ لَهُمْ

إِلَى غُيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّايِبِ
إِلَى الَّذِي تَهَبُ الدَّوْلَاتِ رَاحَتُهُ وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ
فلم يحجه كافور بعد كل هذا الإغراء، فظن أبو الطيب، أو أراد أن يلتقي في
روح نفسه، أن عدم توليته وتصديه على عمل، ربما يعود إلى أن كافورا يشك في
كفايته لهذا الأمر، فطلب إليه أن يجر به ليظهر له الحق من الباطل، وقال:

فَكُنْ فِي اضْطِنَاعِي مُحْسِنًا كَمَا كَجَرَّبِ

يَبْنَ لَكَ تَقَرِّيبُ الْجَوَادِ وَشَدَّةُ
إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَأَبْلُهُ فَأَمَّا تَنْفِيهِ، وَإِمَّا تَعْدُهُ
وَمَا الصَّارِمِ الْهِنْدِيُّ إِلَّا كَغَيْرِهِ إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النَّجَادُ وَغَمْدُهُ
وكان ذلك الحديث في ذي الحجة من السنة الأولى لدخوله مصر، فاصم
كافور أذنيه عن دعائه، ولم يحجه إلى طلبته، فلم ييأس أبو الطيب، وظل يضرب
على نعمة أنه يريد كيد أعدائه وإغاظة الشامتين الذين رجوا له البوار بعد فراق
سيف الدولة، فقال له:

أَبَا الْمِسْكَ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى الْعِدَا

وَأُمْلُ عِزًّا يَخْضِبُ الْبَيْضَ بِالْدَّمِ

وَيَوْمًا يَغِيظُ الشَّامِتِينَ، وَحَالَةَ

أَقِيمُ الشَّقَا فِيهَا مَقَامَ التَّنْعَمِ

وَمِثْلِكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فَوَادُهُ

فَكَلَّمَهُ عَنِّي، وَلَمْ أَتَكَلَّمْ

ولكن فؤاد كافور لم يكلمه عنه أيضا ، ولم يجبه إلى طلبته ، فضعج أبو الطيب من هذه الحال ، وضجر لبعد أمله ، وتعر نيله عليه ، فقال لكافور في شهر شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، أى بعد سنة ونصف من قدومه إلى مصر تقريبا :

أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالَهُ؟

فَأَنِّي أَغْنَىٰ مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ

وَهَبْتَ عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفِّي زَمَانِيَا

وَنَفْسِي عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفِّكَ تَطْلُبُ .

إِذَا لَمْ تَنْطَبِ بِى ضَيْعَةً أَوْ وَلَايَةً

فَجُودُكَ يَكْسُونِي ، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وكانت تلك الدعوة كسابقاتها ، لم تجد قبولا من نفس كافور ، فأصم أذنيه كذلك عن سماع رجائه ، فضايق أبو الطيب ذرعا ، وبدأ يرى أن كافورا لن يعطيه ولاية ، ولن ينصبه على عمل ، فضجر وسم ، ولكنه لم يشأ أن يأس وأن يستسلم ، فبعد سنتين من تاريخ إلقائه هذه القصيدة ، أنشده قصيدة أخرى كانت هي آخر ما أنشده ، وفيها يقول :

أَرَىٰ لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبِعَادِ يُشَابُ

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الَّذِي أُمِلْتُ مِنْكَ حِجَابُ

أَقُلُّ سَلَامِي حُبًّا مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ، كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ سَكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَازِلِي عَلَىٰ أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابُ

وَأَعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِي فَشَرُّوْا وَغَرَبْتُ ، أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ ، وَخَابُوا

غير أن ذلك لم يغير من الموقف شيئا ، ولم يمنحه كافور الولاية . وإن هذا اللجاج من المتنبى في طلب ولاية من كافور ليعلا شعره ، حتى إن قصيدة واحدة من قصائد مدحه له ، لم تخل من تحدّثه عن هذا الأمل ، ورغبته الملحة في إنجازه ؛ وهذا يصور أمامنا نفسية المتنبى ظاهرة دون خفاء ، فهو يرغب في الملك ويطمح إليه ، وقد ظن أن نبوغه في الشعر وكثرة مدحه لكافور يوصلانه إلى أمله ، فيغيظ حساده ، الذين كادوا له عند سيف الدولة ، ولكن كافورا كان أحكم من أن يغره مثل شعر المتنبى ومدمجه ، فاعتقده أولا غير أهل للولاية والسلطان وإدارة شئون عمالة من العمالات . وهى تلك العقيدة التى جد المتنبى كثيرا فى سبيل إبطائها . وطلب إليه أن يبلوه ويختبره ، لأن السيف مادام فى قرابه لا يميز جيده من رديته ، وعند الاختبار يبدو الصنم من النضار ، وهناك رواية تحدّثنا أن كافورا سئل : لماذا لم يول أبا الطيب ولاية ؟ فقال : إنه وهو فقير معدم قد ادعى النبوة بعد النبى ، فكيف به بعد أن بلى ، ويصبح له أتباع وأنصار ؟ إنه لا يأمن أن يستقل بولايته ، أو أن يرثه فى مصر كلها بعد مماته ، ويقولون : إن المتنبى طلب منه ولاية (صور) فى الشام : أو إحدى ولايات الصعيد . وهذه الرواية تبين السبب الأساسى الذى حدا بكافور أن يمنعه تولى ولاية بعد أن كان قد وعده بها ، ومناه ؛ فإن شعر المتنبى يدلنا على أن كافورا وعده بولاية بعض أعماله ، ولكنه لم يف له بهذا الوعد - ولقد لجأ المتنبى إلى طريقتين يستجلب بهما رضا كافور عن توليته عمالة من عمالات ملكه ؛

أولاهما : (وهى ثانية الظواهر الثلاث فى شعره بمصر) إظهار نفسه بظهور المترفع المتعالى ، ووصفها بأنها نفسية ملك حلت فى إهاب شاعر ، فهو يقول له مرة :

وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

ويقول له أخرى :

تَهْوَى بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ لِلْبُسِّ ثَوْبٌ وَمَا كُولٍ وَمَشْرُوبٌ
يَرَى النُّجُومَ بِعَيْنِي مَنْ يُحَاوِلُهَا كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِي عَيْنٍ مَسْلُوبٌ

ويقول في ثالثة :

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَنْسُورِ عَيْشِهِ وَمَنْ كُوبُهُ رَجْلَاهُ ، وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلَكِنْ قَلْبًا بَيْنَ جَنَبِيَّ ، مَالَهُ مَدَى يَنْتَهَى بِي فِي مُرَادٍ أَحَدُهُ

وقد حسب المتنبي أن ذلك يرشحه لمنصب الملك ، ويهيئه للعرش والسلطان ، فلا يحقره كافور بدعوى أنه شاعر لا علاقة له بالملك والحكم ، ولكنى أكاد أوقن أن ذلك من الأسباب الرئيسية التي خوفت كافورا من استخدامه وإبلاغه أمره ، فانه يخشى تلك النفس العظيمة التي بين جنبي المتنبي أن تعمل على الاستقلال والانفراد .

والطريقة الثانية : الاغراق في مدح كافور إلى آخر حدود الاغراق ، فانه قد استغل الناحية المشرقة من كافور استغلالا تاما ، وحسبك أن تسمع قوله في القصيدة الأولى :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْبَلَ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانٍ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا
نَجُوزُ عَلَمِيهَا الْمُخْسِنِينَ إِلَى الَّذِي نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالْأَيَادِيَا
فَتَى مَا سَرَيْنَا فِي ظُهُورِ جُدُودِنَا إِلَى عَصْرِهِ إِلَّا نُرْجَى التَّلَاقِيَا
تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَذَارِيَا
أَبَا الْمِسْكِ ، ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ تَائِقًا إِلَيْهِ ، وَذَا الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا
أَبَا كُلِّ طِيبٍ ، لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ وَكُلِّ سَحَابٍ ، لَا أَخْصُ الْغَوَادِيَا
يُدِلُّ بِعَنَى وَاحِدٍ كُلُّ فَاحِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا
وقوله في أخرى :

تَفْضَحُ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ شُشُومَ شَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءَ
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءَ يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءَ

إِنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ، وَإِيبَضُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ إِيْبَضِ الْقَبَاءِ
كَرَّمٌ فِي شَجَاعَةٍ، وَذَكَاءٌ فِي بَهَاءٍ، وَقُدْرَةٌ فِي وِفَاءٍ .
مَنْ لِيْبِضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبْدَلَ اللَّوْنُ نَ بِلَوْنِ الْأُسْتَاذِ وَالسَّخْنَاءِ ؟

فانظر اليه كيف ياتمس العذر للونه ، ويعدده من المفاخر التي يشرف الملوك
أن تبدل ألوان جلودهم بلون جلده .

وإذا كانت الطريقة الأولى لم تنجح في جلب ولاية للمتنبى ، فلم تكن الطريقة
الثانية بأنجح منها ، وأغلب الظن أن كافورا كان يودّ من أبي الطيّب أن يظل
في دولته تحت لوائه ، على أن يكون شاعره الخاص ، متعا بكل مظاهر الترف
والرفهنية ، على شريطة ألا يطمع فيما سوى ذلك ، ولكنها نفس أبي الطيّب
الطموح التي لا ترضى بالقليل .

الظاهرة الثالثة هي التي تحدثنا عن النزاع الذي كان قائما بين المتنبى ونفسه ،
وحينه الدائم إلى سيف الدولة ، فهو لا يكاد ينشئ قصيدة في مدح كافور إلا
ويذكر فيها سيف الدولة وألمه لفراقه ، وكان بجانب ذلك يتلس الأسباب التي
تهدىء من روعه حيناً ، وتخفف عليه شدة هذا الفراق حيناً آخر ، وإن رغبته
في تهدئة قلبه وضميره هي التي كانت تدعوه في كثير من الأحيان إلى أن ينسب
سيف الدولة إلى إهاتته وجفوته ، ثم يعود غير مطمئن إلى ذلك ، فيندم ويتحسر ،
ثم يعود وهكذا ، مما يدل على نزاع قلبه الدائم إلى سيف الدولة ، وإن شئت أن
تلس ذلك فاقراً قوله :

فِرَاقٌ ، وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمِّمٍ وَبِمَنْ يَمُنُّ خَيْرُ مُيَمِّمٍ !
وَمَا مَنَزِلُ اللَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلِ إِذَا لَمْ أُبْجَلْ عِنْدَهُ ، وَأُكْرَمِ
فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقْنَعٍ عَذَرْتُ ، وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمِّمِ
رَمَى ، وَاتَّقَى رَمِي ، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوَى كَاسِرٍ كُنِّي ، وَقَوَّيْ ، وَأُسَهِّمِي

أَصَادِقُ نَفْسِ الْمَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا فِي فَمْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ
وَإِنْ بَذَلَ الْإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُتَبَسِّمِ
وقوله :

وَلِلَّهِ سَيْرِي ! مَا أَفْلَ تَنْبِيَّةٌ عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الْحَدَالِي وَغُرَبُ
عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ
وفي الحق إننا لا نكون مغالين إذا قلنا : إن حنينه إلى سيف الدولة لم يفارقه
طول المدة التي قضاها بمصر في ظلال كافور .

— ٤ —

اتصل أبو الطيب المتنبي ، وهو بمصر بقائد آخر هو أبو شجاع فاتك ،
وأبو شجاع فاتك هو الذي يقول عنه ابن خلكان : إنه ملوك رومي الأصل ،
وكان سيده قد أعتقه بالرَّمْلَة ، عند ما أراد الإخشيد أن يأخذه منه كرها ، وكان
شجاعا مقداما ، ولذلك لُقِّبَ بالمجنون ، وكان رفيق الأستاذ كافور في خدمة
الإخشيد ، فلما مات مخدومهما وتقرر كافور في خدمة ابن الإخشيد ، أنف فاتك
من الإقامة بمصر ، كي لا يكون كافور أعلى منه مرتبة ، ويحتاج أن يركب في
خدمته ، وكانت الفيوم وأعمالها إقطاعا له ، فانتقل إليها ، واتخذها مسكنا ، فلم
يصح له بها جسم ، وكان كافور يخافه ، ويكرمه خوفا منه ، وفي نفسه منه ما فيها ،
فلست حكمت العلة في جسم فاتك ، وأحوجته إلى دخول مصر للمعالجة ، فدخلها ،
وبها أبو الطيب المتنبي ضيفا للأستاذ كافور ، وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة
شجاعته ، غير أنه لا يقدر على قصده خوفا من كافور ، وفاتك يسأل عنه ، ويراسله
بالسلام ، ثم التقيا بالصحراء مصادفة من غير ميعاد ، فلما رجع فاتك إلى داره
حمل لأبي الطيب في ساعته هدية قيمتها ألف دينار ، ثم أتبعها هدايا أخرى
فأستأذن المتنبي الأستاذ كافورا في مدحه ، فأذن له ؛ فمدحه بقصيدته المشهورة :
(لا خيل عندك تهديها ولا مال) . انتهت رواية ابن خلكان . وهي رواية يذكرها

جل مؤرخى المتنبى وفاتك؛ وإذا رجعنا إلى شعر المتنبى فى فاتك، وجدنا فيه روح الحب وروح صدق المودة؛ واسنا نستدل على ذلك بقصيدته التى مدحه بها . فقد يكون ذلك ناشئاً عن رغبته فى عطاياه . ولكننا نستدل عليه بقصائده التى رثاه بها؛ فهى ثلاث قصائد تفيض بالحب وصدق المودة؛ كما سنبين بعد بما يدلنا على أن روحهما قد تآلفا، وأن المتنبى أخلص له المودة وصافاه وأخلص له المصافاة؛ وكان ذلك من الأسباب التى حمت كافوراً على بنض المتنبى وكراهته . . . مدح المتنبى فاتك بقصيدته التى مطلعها :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا، وَلَا مَالٌ فَلَيْسَ مَدِّ النَّطْقُ، إِنْ لَمْ يُسَمِّدِ الْحَالُ
وهى قصيدة طويلة لم تبلغ إحدى قصائده فى كافور مبلغها؛ ولعل المتنبى أحس طولها؛ فأراد أن يعتذر من هذا التطويل الذى يكرهه بعض الناقدين للأدب، فقال :

وَقَدْ أَطَالَ تَنَائِي دَوْلُ لَا بِسِهٍ إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى التَّنْبَالِ تِنْبَالُ
وقد أوحى إليه فكره ماشاء أن ينسبه إليه من كرم وشجاعة وفضل ونبل . وغالى فى ذلك أيما مغالاة حتى قال :

كَفَاتِكَ، وَدَخُولُ الْكَافِ مَنَقَصَةٌ
كَالشَّمْسِ قُلْتُ، وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

ولم ينس أن يرد على من يلقيه بالمجنون بقوله :
وَقَدْ يُلَقَّبُهُ الْمَجْنُونُ حَاسِدُهُ إِذَا اخْتَلَطَنَ، وَبَعْضُ الْعَقْلِ عَقَالُ
أى أن حاسده يلقيه بالمجنون إذا اختلطت السيوف والرماح، لما يراه من شجاعته وإقدامه، مع أن العقل فى مثل هذه الحال لا يحمى
أما الذى نستدل به على وفاء المتنبى لفاتك، فهو كما قلنا قصائد رثائه فيه، وهى ثلاث :

أولاهما — أنشأها خاصة لرثائه، بعد أن ترك مصر، وقد حدثنا فيها عن

عواطفه إزاء الراحل العزيز لديه ، الحبيب إلى قلبه ؛ ثم سجل في شعره لفاتك خلال السمو والنبيل ، حتى لقد رفعه عن أهل زمانه ، وجعل قدره أسمى من أن يعيش معهم . وهو في هذه القصيدة قد أراد أن يغيظ كافوراً من ناحية . وأن يوازن بينه وبين فاتك من ناحية أخرى ، وكانت نتيجة هذه الموازنة وضماً من شأن كافور ، ورفعاً من قدر فاتك . ولأنقل هنا بعض هذه القصيدة لترى فيها بعض ما ذكرت ؛ قال :

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً	ذَهَبًا ؛ فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلَقَعُ
وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا	وَبَنَاتُ أَعْوَجَ ، كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ
الْمَجْدُ أَخْسَرُ - وَالْمَكَارِمُ - سَفَقَةٌ	مِنْ أَنْ يَمِيشَ لَهَا الْهُمَامُ الْأَرْوَعُ
وَالنَّاسُ أَنْزَلُ فِي زَمَانِكَ مَنَزَلًا	مِنْ أَنْ تُعَايِشَهُمْ ، وَقَدْرُكَ أَرْفَعُ
بَرْدَ حَشَايَ إِنْ اسْتَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ	فَلَقَدْ تَضَرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنْفَعُ
مَنْ لِلْمَحَافِلِ وَالْجَحَافِلِ وَالسُّرَى؟	فَقَدْتُ بِفَقْدِكَ نَيْرًا لَا يَطْلُعُ
وَمَنْ اتَّخَذَتْ عَلَى الضُّيُوفِ خَلِيفَةً؟	ضَاعُوا ! وَمِثْلُكَ لَا يَكَادُ يُضَيِّعُ
قُبْحًا لَوَجْهِكَ يَا زَمَانُ ؛ فَإِنَّهُ	وَجْهُ لَهُ مِنْ كُلِّ قُبْحٍ بُرْقُعُ
أَيُّمُوتُ مِثْلُ أَبِي شُجَاعٍ فَاتِكَ	وَيَمِيشُ حَاسِدُهُ الْخَمِصِيُّ الْأَوْكَعُ؟
أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ	وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَنْ يَقُولُ وَيَسْمَعُ
وَتَرَكْتَ أَتْنِ رِيحَةَ مَذْمُومَةٍ	وَسَلَّمْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

أما القصيدة الثانية فلم ينشئها قصداً لرثاء فاتك ، ولكنه عرض لرثائه في أثناءها ، والقصيدة في الواقع أنشأها المتنبي يصف لنا فيها خروجه من مصر ، ويحدثنا عن بعض الفلسفة التي أوحىها إليه المدة التي قضاها في مصر ، وسوف نعرض لهذا كله بعد ؛ على أن بضمة الآيات التي تحدث فيها عن فاتك لم تخل

من روح التعظيم له والاجلال ، فجعل الاحياء كلهم لا يشابهونه في شيعة ، فلما مات لم يبق له خلف فيهم ، وأنصت إليه يقول :

لَا فَاتَكَ آخَرُ فِي مِصْرَ تَقْصِدُهُ وَلَا لَهُ خَلْفٌ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ

مَنْ لَا تَشَابَهُهُ الْآخِيَاءُ فِي شَيْمٍ أَمْسَى تَشَابَهُهُ الْأَمْوَاتُ فِي الرَّمَمِ

عَدِمَتْهُ ، وَكَأَنِّي سِرْتُ أَطْلُبُهُ فَمَا تَزِيدُنِي الدُّنْيَا عَلَى الْعَدَمِ

أما القصيدة الثالثة ، فهي قطعة صغيرة لا تزيد على عشرة أبيات ، لم ينس فيها أن يعرض بملوك مصر ، وأنهم اذ أقيسوا بفاتك خرجوا أصفاراً أنفع من وجودهم عدمه ، وأجود من جودهم بخله ، وأحد من حدم ذمه ، وأشرف من عيشهم موته

— ٥ —

أقام المتنبى في مصر نحو ثلاث سنوات ونصف سنة ، مدح كافوراً في أثنائها بأربع قصائد في نصف السنة الأولى لمقدمه عام ستة وأربعين وثلاثمائة ، وباننتين في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وبدا بعد ذلك الضجر على أبى الطيب ، وداخله حقد على كافور ، لأنه لم ينله أمنيته ، فلم يمدحه في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة إلا بقصيدة ظاهرها مدح وباطنها هجاء مقدع مر ، وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ألقي آخر سهم في كنياته ، فمدحه في شوال من تلك السنة بآخر قصيدة ظل بعدها عاماً لا يلتقي كافوراً ، وإن كان يركب في معيته حذراً من غضبه عليه ، والقارىء لشعر المتنبى يلمس فيه قوة أمل أبى الطيب واتساع رجائه في أشعاره الأولى التي مدح بها كافوراً ، وقد لا نغالى إذا قلنا إن كافوراً من ناحيته قد أكرم مثواه ، وخلع عليه ، ووهبه ؛ فإن التاريخ يحفظ له أنه كان نصير الأدب ، وكان برأ بالأدباء ، جواداً معطاءً ، وإن كان كافور في هذه المدة قد داخله الشك في صحة احترام المتنبى له ، واعتقاده صدق ما يقول فيه ؛ فقد ذكر صاحب الصبح المتنبى أن المتنبى كان يتقف بين يدي كافور . وفي رجليه خفان ، وفي وسطه سيف

ومنطقة ، ويركب بجاجين من مماليكه ، وهما بالسيوف والمناطق ، وكان لا يجلس في مجلس كافور ؛ وروى الرواة أن كافورا دس إلى أبي الطيب من قال له : قد طال قيامك في مجلس كافور . يريد أن يعلم ما في نفسه له ، فقال ارتجالا :

يَقِلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرَّؤُوسِ وَبَذَلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النَّفُوسِ

وكثيرا ما سئل المتنبي عن السبب الذي حدا به إلى الوقوف بين يدي كافور مع رفضه ذلك بين يدي سيف الدولة ، والسبب في الحقيقة هو تلك الأمانة الكبيرة التي كان يرجو تحقيقها على يدي كافور ، فلما انقضى عامان على مقدم أبي الطيب بدأ أمه يبعد ، وبدأ يرى أن كافورا لن يبلغه مأربه ، فداخله الحقد عليه ، وهاجت به عوامل الثورة والنقمة ، حتى إنه حين ذكر قتل شبيب العقيلي الثائر على كافور ؛ لم يستطع أن يخفي ما بقلبه من ضغينة عليه ، فتهكم به ، وحدثه أنه نال ما ناله بالحظ ، لا بالسعي والجد ، وإذا كان كذلك فليس له فضل ولا فضيلة ، واستمع إلى التهم القاتل في قوله :

قَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلُ وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانٍ
فَمَا لَكَ تَخْتَارُ الْقِسِيَّ وَإِنَّمَا عَنِ السَّعْدِ يَرْمِي دُونَكَ الثَّقْلَانِ
وَمَا لَكَ تُعْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَاءِ وَجَدَّكَ طَمَآنُ بَغِيرِ سِنَانٍ
وَلَيْمَ تَحْمِلُ السَّيْفَ الطَّوِيلَ نِجَادُهُ وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْحَدَثَانِ !

ولما لم يجد من كافور سامعا لتلبية رغباته ، عزم على الرحيل من مصر ، وتجمعت فكرة الرحيل عن مصر في رأسه ، منذ عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة ، فقد أصابته الحمى ، في شهر ذى الحجة من تلك السنة ، فوصفها ، وفي أثناء وصفها عرض برغبته في الرحيل عن مصر ، وشكى حاله التعسة بها ، مما يشعرنا بأن الجفوة وجدت سبيلها إلى فؤادهما ، حتى أصبح كافور يتسم فقط إلى أبي الطيب من غير أن تكون هذه الابتسامة دليلا على صفاء الحب وإخلاص المودة ، والمتنبي من ناحيته يجازيه على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى لا تزيد على ابتسامته

ولعل أبا الطيب لم ينبج في مصر أيضا من الحساد والحاquدين ، وقلة الأصدقاء المخلصين ، مما جعله يزيد ملالا في مصر وأهل مصر ، وحقا إن مثل أبي الطيب ما كانت لتطيب له مصر ، أو ليهدأ فيها ، مادام أمله الذي جاء من أجله لم يتحقق فليغادرها إلى حيث يجد لنفسه الطموح مكانا ، واسمعه يقول في قصيدة وصف الحمى :

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِبَاً جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ ابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفَيْهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ، فَلَا وَرَائِي تَخُبُّ بِي الرَّكْبُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَّنِي الْفِرَاشُ، وَكَانَ جَنِّي يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامِ
قَلِيلٌ عَائِدِي، سَقِيمٌ فَوَادِي كَثِيرٌ حَاسِدِي، صَعْبٌ مَرَامِي

أَلَا يَا لَيْتَ شِعْرِي دِي : أَتُسَمِّي تَصَرَّفُ فِي عِنَانِ أَوْزِمَامِ ؟

يَقُولُ لِطَيْبٍ : أَكَلْتُ شَيْئًا وَدَاوُكُ فِي شَرَابِكَ وَالطَّمَامِ
وَمَا فِي طَبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ
وروى أن المتنبي قال : كنت إذا دخلت على الأسود ، كافور ، هش لمقدمي وفرح به وابتسم لي ، فلما أنشدته : ولما صار ودّ الناس خبّا . . البيت ، كفّ عن الابتسام والضحك ، وتلك الرواية تؤيد صحة ما استنبطناه فيما سبق ، غير أن كافورا لم يسمح لأبي الطيب بالرحيل عن مصر ، وأبى عليه أن يغادرها ، حتى لقد استأذنه مرة أن يرج إلى الرملة ، ليقضى مالا كتب له به فمنعه ، وحلف عليه ألا يخرج ، وقال : نحن نوجه من يقضيه لك ، فنضب أبو الطيب ، وحق عليه في قلبه

غير أن يتبن قائلها في تلك الحادثة أحب أن أوجه إليهما النظر قال :

إِذَا سِرْنَا عَنِ الْفُسْطَاطِ يَوْمًا فَلَقَّنِي الْفَوَارِسَ وَالرَّجَالَ
لِتَعْلَمَ قَدَرَ مَنْ فَارَقْتَ مِنِّي وَأَنْتَ رُمْتَ مِنِّي ضَيْئِي مُحَالًا
فهل حقاً كان كافور يقصد إذلال المتنبي وإلحاق الضيم به كما قال ؟ إن بعض
الروايات ترجح هذا الذي قاله ، ولعل كافوراً حين علم أن المتنبي ينفذه ويحتقره
ويدبر الهرب من مصر خشي أن يهجوّه ، ويقذع في هجائه ، فضيق عليه سبيل
الهرب قصد إيلاّمه وإذلاله .

— ٦ —

قلت إن آمال المتنبي التي أنزلها بوادي كافور لم تجد سبيلها إلى التحقق ، ولم
يظفر منها المتنبي ، بقليل أو كثير . فلم يبق بد من أن يحجم اليأس سبيله إلى قلبه ،
واليأس يبعث في نفس صاحبه الحقد والضعينة والغضب ، كما بعثت في قلب المتنبي
فثار وغضب ، وانقلبت محامد كافور في نظره مساوئ . ومخازي ، وبدأ يهجوّه
هجاء مرأ مقذعاً في تهكم قاتل مرير في أثناء وجوده بمصر ، فقد نظر مرة إلى شقوق
برجليه ، فقال قصيدة منها :

أَمِينًا ، وَإِخْلَافًا ، وَغَدْرًا ، وَخِسَّةً وَجُبْنًا ، أَشْخَصًا لُخْتُ لِي ، أَمْ مَخَازِيَا ؟
تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَةً وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا
وَتُعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ ، إِنِّي رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لَا تَذَرِي أَلْوَنُكَ أَسْوَدَ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ قَدْ صَارَ أَيْضَ صَافِيَا
وَيَذْكُرُنِي تَخْيِيطُ كَعَبِكَ شَقَّةُ وَمَشِيكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا
وَمِثْلُكَ يُؤْتِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِ يَا

وأخذ المتنبي يضرب على وتر هجائه ، ويرميه بمقذع القول ، حتى إن المتنبي
لم يشهر بهجاء مثل شهرته بهجاء كافور ، مما جعل كثيراً من الأدباء ينسبون كل
هجاء قاله المتنبي ولم يعرف فيمن قاله إلى أنه قاله في كافور ، وحقاً لقد أقذع فيه
كل الإقذاع كقوله فيه :

مِنْ أَيْةِ الطَّرْقِ يَأْتِي نَحْوَكَ الْكَرَمُ؟ أَيْنَ الْمَحَاجِمِ يَا كَافُورُ، وَالْجَلَمُ؟
 سَادَاتُ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ الْقَرَمُ
 أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تَحْفُوا شَوَارِبَكُمْ يَا أُمَّةً ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأَمَمُ
 أَلَا فَتَى يُورِدُ الْهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شَكُوكَ النَّاسِ وَالْثَمَمُ!
 فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ وَالْتَمَطِيلُ وَالْقِدَمُ

ولقد جلب المتنبى على نفسه عداوة وزير كافور أيضاً، وهو أبو الفضل جعفر بن الفرات، المعروف بابن حنزابة، فلم يمدحه مع أنه وزير كافور، والمقرب لديه، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة، ومن أهل العلم والأدب. وروى ابن خلكان أن المتنبى حين قصد مصر مدح كافوراً، ومدح وزيره أبا الفضل بقصيدته الرائية التي أولها: «بَادِ هَوَاكَ صَبِرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرًا».. وجعلها موسومة باسمه فتكون إحدى القوافي جعفرًا وكان منها

صُنِّعَتُ السَّوَارِ لَأَيِّ كَفِّ بَشَّرْتَ بِابْنِ الْفُرَاتِ وَأَيِّ عَبْدٍ كَبَّرَا
 فلما لم يرضه صرفها عنه، ولم ينشدته إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة قصد أرجان، وبها أبو الفضل بن العميد، فحول القصيدة إليه، ومدحه بها فأبدل ابن الفرات بابن العميد. اهـ ولهذا أحاطت العداوات بالمتنبى، ففكر جدياً في ترك مصر. وهنا في هذا الظرف العصيب ذكر سيف الدولة وما كان يلقاه في جانبه من الخفض والدعة فقال:

فَارَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ قَبْلَ الْفِرَاقِ أَذَى، بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ
 إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ

عمل المتنبى في الخفاء على ترك مصر، فبدأ يعد كل ما يحتاج إليه بلطف ورفق كي لا يعلم به أحد من غلمانه، وهو مع ذلك يظهر الرغبة في المقام، ثم كتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبس، يطلب منه دليلاً، فأرسل به إليه،

فدحه باربعة آيات فاذا كان يوم العيد الا كبر ستة خمسين وثلثمائة ، انتهر فرصة اشتغال الناس بالعيد ، حتى لا يلاحظ تغيبه ، وفر هارباً من مصر ناجياً من الضيق الذى أحاطه به كافر ، ويقول المؤرخون إن كافوراً لما علم بهربه بذل جهده فى اقتفاء أثره فلم يفلح ، ونجا المتنبي منه ومن سجنه ، ولا إخال أن كافوراً كان يخشى من المتنبي إلا لسانه وهجاءه المر المقذع ، وقبل أن يغادر المتنبي مصر يوم واحد ، أنشأ قصيدة قوية السبك متينة الاسلوب ، بدأها بهذا البيت المشهور :

عِيدٌ ، بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتُ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى ، أَمْ لَأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ ؟
وفى هذه القصيدة مبالغة فى الاقتذاع لكافور ، محسبك أن تقرأ قوله :

إِنِّي نَزَاتُ بِكَذَّابِينَ ضَيَّفُهُمْ عَنِ الْقَرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ مِنَ اللِّسَانِ ، فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ !
مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ تَنْهَاتِ عُدُ
أَكُلَّمَا أُغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدُهُ أَوْ خَانَهُ ، فَلَهُ فِي مِصْرَ تَهِيدُ ؟
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا فَالْحُرُّ مُسْتَعْبِدٌ ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ
الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنْ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسُ مَنْ أَكِيدُ
مَنْ عِلْمَ الْأَسْوَدِ الْخَصِيَّ مَكْرَمَةً أَقَوْمُهُ الْبَيْضُ ، أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ ؟
أَمْ أَذْنُهُ فِي يَدِ النَّخَاسِ دَامِيَةٌ ؟ أَمْ قَدَرُهُ ، وَهُوَ بِالْفَلَسِينِ مَرْدُودُ

ولم ينس فى شعره الهجائى أن ينال أهل مصر بالتقريع والهجو ، فهى أمة ضحكت من جهام الأمم ، لطاعتها كافوراً وخضوعها له ، ومصر أهل كل عجيبة بها كثير من المضحكات ، ولكنها مضحكات مبكيات ، قال المتنبي :

وَكَمْ ذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْجِكَاتِ ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكَ كَالْبَكَاءِ
 بِهَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَهْلِ السَّوَا دِ يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَاءِ
 وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
 قالوا : إنه أراد بالنبطى أبا الفضل الوزير ، وبالأسود كافور .

وحقد المتنبى على المصريين ، ووسمه إياهم بالجهل والغفلة ، إنما هو لخضوعهم
 لكافور ورضاهم به ملكا ، وفى الحق أن المصريين لا يعابون على ذلك ، بعد أن
 قبلوا الاسلام ديناً لهم ، والاسلام يحث على طاعة أولى الأمر من أى شعب
 كانوا ، ولسنا نريد أن ندخل فى تفصيل النظريات الاسلامية التى قبلها المصريون
 ودانوا بها ، تلك النظريات التى درسناها لم تعب على المصريين خضوعهم لكافور
 هذا وقد كان المتنبى أمام مشكلة جديدة : تلك هى مدحه لكافور ، فماذا يصنع ؟
 لم يكن بد من أن يكذب نفسه فيه ، ويقول :

وَشِعِرٌ مَدَحْتُ بِهِ الْكَرَّ كَدَنْ مَ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
 فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوًا الْوَرَى
 وليس أقوى من شعر المتنبى فى كافور ، دلالة على السخط على الحظوظ والنقمة
 عليها ، حين يرى مواهبه وملكانه تزيد على مواهب كافور (فى نظره هو)
 ولكنه لم يؤت حظه .

خرج المتنبى من مصر قاصداً الكوفة وحدثنا عن المواضع التى مر بها فى
 طريقه إليها ؛ فى ممتصورة أنشأها لهذا الغرض ؛ ولقد وصف خروجه من مصر
 فى قصيدة رثى فاتكا ؛ وفيها يقول :

لَا أَبْغِضُ الْعَيْسَ ، لَكِنِّى وَقَيْتُ بِهَا
 طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيهَا بِأَرْجُلِهَا
 قَلْبِي مِنَ الْحُزَنِ ، أَوْ جِسْمِي مِنَ السَّقَمِ
 حَتَّى مَرَقَنْ بِنَا مِنْ جَوْشٍ وَالْعَلَمِ
 تُعَارِضُ الْجُدُلَ الْمُرَخَّاةَ بِاللَّجْمِ
 تَبْرَى لَهْنٍ نَعَامُ الدَّوِّ مُسْرَجَةً

فِي غِلْمَةٍ أخطرُ والأرواحُهم ورَضُوا بِمَا لَقِينَا، رِضًا الْأَيْسَارِ بِالزَّلَّةِ
وهكذا كان مقامه بمصر ذكرى مؤلمة، تمر بقلبه، فتثير فيه عوامل الغضب
والحقد والأسى والحسرة، فتزيد نغمته على كافور، ويهجو ويهجو أيامه؛ هذا
ولأن المتنبي جاء إلى مصر لغرض خاص هو توليته ولاية في مصر أو في الشام،
لم يأبه كثيرا لآثار مصر وما توحى به إلى النفس من معنى الجلال والخلود، فلم نر
في شعره إلا ألفاظ النيل والهرم والمقطم فحسب في قوله :

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ، مَا يَوْمُهُ، مَا الْمَصْرَعُ؟
وقوله في قصيدة أخرى من قصائده الأولى في كافور بعد أن ذكر خيله وإبله :
وَسَمَنَّا بِهَا الْبَيْدَاءَ حَتَّى تَغْمَرَتْ مِنَ النَّيْلِ وَاسْتَذَرَتْ بِظِلِّ الْمُقْطَمِ
وفي الحق لقد شغل الأمل قلب المتنبي عن كل شيء، فأين هو من آثار مصر
وما في مصر من جمال وجلال؟

— V —

أثرت في نفسية المتنبي تلك المدة التي قضاها بمصر. فأوحت إليه بمبادئ
فلسفية آمن بها، لأنها كانت نتيجة اختباراته في المدة التي قضاها بمصر، فظهر
هذه المبادئ ثلاثة : أولها فلسفة النعمة على الدهر وسوء الظن به، والحقد على
تصاريفه، وذلك نتيجة طبيعية لما صادفه المتنبي من خيبة الأمل وانهار الرجاء،
مع اعتقاده في نفسه أنه خير كثيرا من هذا الذي يتقلد زمام الملك في البلاد،
وأولى منه بالرياسة والسطان، ولهذا كان أتعب الناس لدى المتنبي كبير الهمة،
بعيد الأمل، واسع المطامع، إذا لم يبلغ مآربه وقصر وجده عما تشتهي نفسه،
وخير دواء رآه المتنبي لذلك هو لقيان الدهر من غير اكتراث وتهوين ما يشق
على النفس وقعه (وإن كان هو لم يعمل بما قال) وأنصت إلى قوله :

وَأَتَعِبُ خَاقِ اللَّهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجَدُّهُ

ويقول في أخرى :

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مَكْتَرِتٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ
فَمَا يُدِيمُ سُورًا مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ

ثانيها فلسفة سوء الظن بالناس وعدم الثقة بوعودهم وأحاديثهم وصدقهم، ووفائهم، فلا خليل إلا وهو مشكوك في صحة خلته لأنه بعض الأيام، ولا صديق إلا وهو مطوى الصدر على الحب والخداع، فلا يغرنك منهم ابتسامة طويلة، ولا تحجب ظاهر تحته الغش والخيانة، وهذا نتيجة طبيعية لحياته مع كافر الذي لم ينل منه أمله، وإنما نال ابتساما فجازاه بابتسام، واسمعه يقول :

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِبَاءً جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَضْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

ويقول :

هَوْنٌ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ فَإِنَّمَا يَقْظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلْمِ
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِتُهُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغَرِيبِ بَانَ وَالرَّخِمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتَرُهُ وَلَا يَغْرُكَ مِنْهُمْ ثَمَرُ مُبْتَسِمِ
غَاضِ الْوَفَاءِ، فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ وَأَعُوْزُ الصَّدْقُ فِي الْإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ثالثها فلسفة كانت في الحقيقة نتيجة رحلته في مصر، تلك هي فلسفة القوة والسيف وبذ فلسفة القول، والشك في أنها تجدى، وذلك أنه رأى نفسه، مع تملكه عنان البلاغة وأزمة القول لم يبلغ ما كان يريد بلوغه من الولاية والملك والسيادة، فشك في فائدة الشعر ثم عاد فآمن بأن القلم خادم السياف، وأنه لا يجدى إلا إذا كان السياف هو الأمر المطاع، وأنصت إلى قوله :

حَتَّى رَجَعْتُ، وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي: الْمَجْدُ لِلْسَيْفِ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

أَكْتُبُ بِنَا أَبَدًا، بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ
 أَسْمَعْنِي، وَدَوَائِي مَا أَشْرَتْ بِهِ فَإِنْ غَفَلْتُ فِدَائِي قِلَّةُ الْفَهْمِ
 مَنْ اقْتَضَى بِسُوءِ الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلْ يَلَمُ
 وإذا تدبرت قوله «رجعت»، في الشطر الأول علمت أن تلك النتيجة كانت كما
 قلنا — أكبر ما جناه من رحاته بمصر (١).

أحمد أحمد بروي

(١) المراجع:

- أ — ديوان المتنبي .
- ب — الصبح المنى عن شخصية المتنبي .
- ج — وفيات الأعيان لابن خلكان .
- د — النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة .

المتنبي في مصر

بفلم علمي النجدي ناصف

مفتش المعارف بآوى

متى فكر في رميد الى مصر؟

لم تكن فكرة ارتحال المتنبي إلى مصر وليدة الساعة التي أزمع فيها الخروج من حلب، ولكنها كانت فكرة مدبرة، يرجع عهدها إلى تغير سيف الدولة عليه، وشعور المتنبي أن قد حانت آخرة أيامه عنده. وآية ذلك قوله في قصيدة العتاب التي أشده إياها على أثر الدسائس التي دسها أبو فراس وشيعته:

أَرَى النَّوَى تَقْتَضِي كُلَّ مَرَحَلَةٍ لَا تَسْتَقِيلُ بِهَا الْوَحَادَةُ الرَّسْمُ
لَئِنْ تَرَ كُنَّ ضَمِيرًا عَنْ مَيَامِنِنَا لِيَخْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتَهُمْ نَدَمُ
فضمير جبل قريب من دمشق، يكون على يمين السائر إذا انحدر الى الجنوب (١)

طريقه الى مصر:

إذا، فقد بارح المتنبي حلب، وإنه ليعلم أين يقصد؟ لذلك لا ندرى لماذا عاج على دمشق، ولم يمض لطيته قدما؟ أفتراه كان يتلبث بها لعل الأمير يراجع نفسه، ويعيد النظر في أمره، فيدوله فيه، ويعث في استرضائه؟ أم تراه قصد أن يتمهل ريثما تنتهي إلى كافور أخبار مفارقه سيف الدولة وسخطه عليه، فيطلبه، وتكون هجرته إليه بدعوة منه؟ لقد كان المتنبي في مصر نادما حزينا

(١) شرح التبيان ٢: ٢٦١

لفراق سيف الدولة. وما هو ذا يأسف أن أسرع المسير عنه ، وجانب الطريق إليه ، حيث يقول :

وَلِلَّهِ سَيْرِي ، مَا أَقَلَّ تَنِيَّةٌ عَشِيَّةَ شَرْقِ الْحَدَالِ وَغُرْبُ
عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّذِي أَتَجَنَّبُ^(١)

وسنرى عما قريب أنه لم يُغَدِّ السير إلى مصر حتى جاءه الطلب من كافور . نعم ، لقد كتب كافور إلى عامله في دمشق ، يطلب المتنبي ، ولكن العامل فيما نرجح لم يبلغ المتنبي رغبة كافور ، وكتب إليه يدعي أن المتنبي يقول : لم أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما أقصد إلا ابن سيده ، ذلك بأن العامل سأل أبا الطيب أن يمدحه ، فلم يفعل^(٢)

ولا ندرى كم لبث المتنبي في دمشق ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنه لم يلبث فيها طويلا ؛ لأنه دخلها على نية السفر ، ولم تكن علاقته بوالها مرضية .

في الرملة :

ثم انحدر إلى الرملة ، وكان أميرها الحسين بن طنج ، فأكرم وفادته ، وأهدى إليه هدايا نفيسة ، وخلع عليه ، وقلده سيفاً محلي ، وحمله على فرس بمركب ثقيل^(٣) . ونعتقد أن المتنبي لم يمدح الأمير بما أفضل عليه . فكل ما قاله فيه لا يزيد على قصيدة واحدة . وطائفة من المقطعات ، ارتجلها في مناسبات معروفة ، ليس بينها الشكر على هبات . فجميعها إذاً بما نظمه الشاعر حين زار الرملة من قبل ، تلبية لدعوة الأمير .

وإذاً يكون من العجائب حقاً أن يتقبل الشاعر عطايا الأمير ، ثم يسكت عن مدحه ، كأن لم يفد منه شيئاً ، وهو القائل لفاتك :

(١) الحدال بفتح الحاء وضمها موضع بالشام ، وغرب جبل هناك . التنية التلبث .

(٢) الصبح المنبي : ١ : ١٠٩

(٣) الصبح المنبي : ١ : ١٠٩ ، ١١٠

وَمَا شَكَرْتُ لِأَنَّ الْمَالَ فَرَحَنِي سَيِّئَانِ عِنْدِي إِكْثَارٌ وَإِقْلَالٌ
اَكْبَنَ رَأَيْتُ قَبِيحًا أَنْ يُجَادَ لَنَا وَأَنْنَا بِقَضَاءِ الْحَقِّ بُخَالٌ

فليت شعرى هل علم الشاعر أن الأمير لم يعطه هذه العطايا رغبة المدح، ولكن برا بسابقة المودة والتعارف ليس غير؛ لأنه لا يرى من حسن الذوق أن يمدحه المتنبى قبل أن يمدح ولى الأمر فى الدولة، بعد إذ صح عنده أنه فى طريقه إليه؟ ربما كان ذلك، ولكن ليس بعيدا أيضا أن تكون هذه الهبات من كافور لا من ابن طنج، بعثها إليه؛ ليستهويه، ويحبب إليه القدوم على مصر، وإذا يكون المتنبى قد ادخر الجزاء عليها إلى يوم ياتى صاحبها.

شوق كافور لبقاء المتنبى :

أما كافور، فكان يتحرق شوقا إلى المتنبى أن يقصده، ويقول فيه شعرا، نفاسة على سيف الدولة، وتزوعا إلى ما كان ينزع إليه سائر الملوك، وأصحاب الجاه والسلطان يومئذ، حتى لقد كان يسائل أصحابه حين وصل المتنبى إلى الرملة، يقول لهم فى قلق وإشفاق: أترونه يبلغ الرملة ولا يجيئنا؟ كأن ما نقله عامل دمشق كان يريه فى أمر المتنبى، ويأتى فى روعه أنه ليس بزائر، ولو قرب مزاره منه.

ثم كتب كافور إلى امير الرملة، يطلب المتنبى، فسار إليه، ودخل مصر سنة ٣٤٦. وربما كان ذلك (كما يقول العكبرى) فى أعقاب الصيف، أو مطلع الخريف (١)؛ لقوله فى إحدى كافورياته، يصف جو الصحراء، كما قاساه فى مقدمه على مصر:

أَلَا لَيْتَ يَوْمَ السَّيْرِ يُخْبِرُ حَرَّهُ فَتَسْأَلُهُ ، وَاللَّيْلِ يُخْبِرُ بَرْدَهُ

إفامنه بمصر:

وقد أمر له كافور بمنزل يقيم فيه ، ويظهر أنه كان منزلا حسن الأثاث ، وثير الفراش ، كما يفهم من قوله في قصيدة الحمى :

وَزَائِرَتِي كَانَ بِهَا حَيَاءٌ فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي

وعهد بخدمته إلى طائفة من الغلمان ، يلازمونه ، ويركبون معه إذا ركب . قال :

أَنَا الْيَوْمَ مِنْ غِلْمَانِهِ فِي عَشِيرَةٍ لَنَا وَالِدٌ مِنْهُ يُفْسِدِيهِ وَلَدُهُ
قالوا : وقد وكل به كافور جماعة ، وأظهر التهمة له (١) وإذا فقد وضع الشاعر تحت المراقبة منذ هبط مصر ، فلم يكن حرا يتنقل حيث يشاء ، أو يتصل بمن يريد ، غير مقيد ولا محاسب . ولا بد أن المتنبى قد ساءت هذه المعاملة الشاذة ، فأنكرها ، واحتج عليها . ولذا رأيناه يعرض عن مدحه ، ويصبر على الإعراض عنه حين طالبه به ، حتى اضطر كافورا أن يلاطفه ، يأخذه بالإحسان والمخادعة . تخلع عليه ، ووعد أنه يبلغه جميع ما في نفسه ، فهدأت ثائرة الشاعر ، ومدحه ، ورضى عنه إلى حين (٢)

ولعل آثار هذه المراقبة تبدو أوضح ما تكون في أمرين : أولهما أن ليس في أخبار الشاعر التي نعرفها ، ولا في شعره دلالة على أنه اتصل بأونوجور ، أو مدحه ، اللهم إلا أحيانا قلائل جاءت عرضا في مرثية رثى بها والده الأخشيد ، وليست في الديوان ، ومطلعها :

هُوَ الزَّمَانُ مُشِيتٌ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بَدْعَا

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٢

(٢) الصبح المنبى : ١ : ١١٢ ، ١١٣

ومن أبيات المدح فيها قوله :

ثَبَّتَ الْجَنَانِ، فَلَا نِكْسٌ وَلَا وَرَعٌ تَلَقَّاهُ مُتَزَرًّا بِالْحَزْمِ مُدْرِعًا
أَعْطَتْ أَبَا الْقَاسِمِ الْأَمْلَاقُ يَنْعَتَهَا وَلَوْ أَبَتْ أَخَذَتْ أَسْيَافُهُ الْبَيْعَا^(١)

وكان المتنبى كان يرى أن مدح أونوجور واجب لا مفر منه، ولا هوادة في أدائه ؛ لأنه ولى الأمر، وحاكم البلاد الشرعى، فلما أن تعذر عليه مدحه قصدا، رأى أن يعمل الحيلة لمدحه، فرثى أباه، ثم تخلص من الرثاء إلى التعزية والمدح.

بينه وبين فاتك :

الامر الثانى أن المتنبى لم يستطع أن يتصل بفاتك، أو أن يمدحه إلا بعد لآى ومصابرة، وترقب للصادقة المواتية أن تأتى بما لا يحتسب، فقد سمع المتنبى بفاتك فأحبه، وأعجب بشجاعته وسخائه. وكان فاتك يسأل عنه، ويرسل السلام إليه، ثم التقيا فى سفر على غير موعد، فتعارفا، وأنس كلاهما بصاحبه. ولما رجع فاتك حمل إليه هدية جليلة، قيمتها ألف دينار، ثم تابعت عليه صلاته وهداياها، فاستأذن كافورا فى مدحه، فأذن له، ولكن على كره منه ؛ لأنه كان يخاف فاتكا، ويتكاف له الحب والكرامة، مداهنة ورثاء^(٢) فدحه المتنبى بقصيدة واحدة، لم يزد عليها، مع أنه لبث فى مصر بعدها نحو ثلاث سنين . وتلك هى القصيدة الطنانة، التى مطلعها :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ، إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
وإذا صح أن فاتكا توفى فى شوال سنة ٣٥٠، وأن المتنبى لم يرثه إلا بعد فراره من مصر - يكون الشاعر قد شهد وفاته، ولكن حيل بينه وبين رثائه فى حينه^(٣) .

(١) راجع زيادات ديوان شعر المتنبى ١ ص : ٢٩ ، ٣٠

(٢) النجوم الزاهرة : ٤ : ٥

(٣) وفيات الأعيان : ١ : ٥١٤

ولئن كان المتنبي في مصر لم يستطع أن يؤدي حق فاتك عليه جيا وميتا،
لقد عرف بعد خروجه من مصر كيف يؤديه على الوجه الذي يرضى الشهامة
والإخلاص، فقد ظل على حبه والوفاء له، يرثيه ويتوجع لفقده كلما بدت
مناسبة؛ رثاه أولا بعينيه الرائعة :

الْحُزْنُ يُقْلِقُ ، وَالتَّجْمُلُ يَرْدَعُ وَالذَّمُّ يُنْهَمُّ — عَصَى طَبِيعُ
ودخل عليه صديق، وينده تفاحة من ندى، عليها اسم فاتك، وكانت بما
أهداه إليه فهاجته الذكري، وتملكه الأسى، فقال كلمته المؤثرة، التي منها :

يَذْكُرُنِي فَاتِكَا حِلْمُهُ وَشَيْءٌ مِنَ النَّدَى فِيهِ اسْمُهُ
وَلَسْتُ بِنَاسٍ ، وَلَكِنِّي يُجَدِّدُ لِي رِيحَهُ شَمُّهُ

ونظم بعد خروجه من بغداد سنة ٣٥٢، قصيدة ذكر فيها مسيره من مصر
والم فيها برثاء فاتك كذلك، وأولها :
حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النُّجْمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍ وَلَا قَدَمٍ ؟ !
ومن أبيات الرثاء فيها :

لَا فَاتِكَ آخَرُ فِي مِصْرَ تَقْصِدُهُ وَلَا لَهُ خَافٌ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ
مَنْ لَا تُشَابِهُهُ الْأَحْيَاءُ فِي شَيْمٍ أَمْسَى تُشَابِهُهُ الْأَمْوَاتُ فِي الرَّمَمِ

ولعل المراقبة التي فرضت على المتنبي لم تكن خاصة، ولعل سببها أن كافورا
كان يومئذ في موقف حرج تساوره المخاوف، وتأخذه الشكوك من كل جانب ؛
لكثرة حساده والمزاحمين له، أن أوتي من بسطة السلطان، وعلو الكلمة في
البلاد، ما لم يؤت أحد غيره، على سوء منبته، ونقص رجولته، فمن الخير له
ألا يتصل الناس إلا على رقة وتخوف، وألا يرتفع صوت بالمدح إلا له وحده
ليكبت الخصوم. ويأمن شر الدسائس .

وما كان كافورا في توجسه من ناحيتي أونوجور وفاتك وإهما ولا مسرفا

في الحذر؛ فقد حدث - والمتنبى بمصر - أن طائفة من الغلبان اتصلوا بأونوجور يريدون أن يكيدوا لكافور، ويفسدوا الأمر عليه، ففطن كافور لهم، وعرف ما يبيتون له، فطالب أونوجور بتسليمهم إليه، فسلمهم، وتم الصلح بينهما، وأنشأ أبو الطيب في ذلك قصيدته:

حَسَمَ الصِّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَادِ
وَأَرَادَتْهُ لِنَفْسٍ، حَالٌ تَذِيهِ رُكَّ مَا يَتْنَهَا وَبَيْنَ الْمُرَادِ
ومنها:

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ، وَالْأَبُ الْقَا طِعُ أَخِي مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ^(١)
لَا عَدَا الشَّرُّ مِنْ بَنَى لَكُمْ الشَّرَّ م وَخَصَّ الْفَسَادُ أَهْلَ الْفَسَادِ
أَتُمًّا مَا اتَّفَقْتُمَا - الْجِسْمُ وَالرُّو حُ ، فَلَا احْتَجَّتُمَا إِلَى الْعَوَادِ !
وَإِذَا كَانَ فِي الْأَنْأَيْبِ خُلْفٌ وَقَعَ الطَّيْشُ فِي صُدُورِ الصَّعَادِ
وأما فاتك فكان رفيق كافور في خدمة الإخشيد، فلما مات الإخشيد .
وأقيم كافور قima على أونوجور - لم يطق فاتك الإقامة معه؛ أنفة من أن يكون
أدنى رتبة منه، فرحل إلى الفيوم، وكانت إقطاعا له، وما زال بها حتى مرض،
وأحوجه المرض إلى دخول مصر للمعالجة، وكان فاتك رجلا كريم النفس،
بعيد الهمة، شجاعا مقداما^(٢). وإن رجلا له هذه المواهب والصفات، لجدير
إذا غبن أن يتقى بأسه. ويحذر جانبه.

انتهى كافرنا بالترجمة:

ويدعى المتنبى في غير تلوم ولا مواربة أن كافورا كان يأكل من زاده .
تجد ذلك في أهجيتين من أهاجيه فيه . قال :

(١) أى من الأولاد الواصلين، من إضافة الصفة للوصوف

(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٥١٣، ٥١٤

جَوْنَعَان ، يَا كُلُّ مَنْ زَادِي ، وَ يُنْسِكُنِي

لَكِنِّي يُقَالُ : عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

وقال :

لَوْ كَانَ ذَا الْإِلَاحِ كُلُّ أَزْوَادَنَا ضَيْفًا ، لَاؤْسَعْنَاهُ إِحْسَانًا

لَكِنَّنَا فِي الْعَيْنِ أَضْيَافُهُ يُوسِعُنَا زُورًا وَبُهْتَانًا

فَلَيْتَهُ خَلَّى لَنَا سُبُلَنَا أَعَانَهُ اللَّهُ وَإِيَّاَنَا!

وهي دعوى غريبة ، لا ندرى : أهى صادقة لا تخيل فيها ولا افتعال ، أم كاذبة دفعه إلى تلفيقها ، ووصم كافور بها مجرد الرغبة في ثلبه والتشنيع عليه ؟ فقد كان الرجل كريما كثير الهبات . يصنع في مطبخه مقادير وافرة من ألوان الطعام^(١) ويرى الواحدى أن هذه التهمة صحيحة ، ثم يذهب في تفسيرها والتماس العلل لها مذهبين : أحدهما أن المتنبي ربما أهدى إليه هدية فتقبلها منه ، ولم يكافئه عليها ؛ والآخر ، وهو أشبه بالصواب من قرينه ، وأقرب إلى المفهوم من قول الشاعر في ذلك - أن المتنبي ربما كان يأكل من خاصة ماله ، وينفق على نفسه بما حصل معه ، ثم كان يستأذنه في الخروج فلا يأذن له ، فلم يكن يطعمه ، ولا يسمح له أن يقصد غيره ، بمن يتوسم فيهم الخير والجود . والمعروف على كل حال أن المتنبي عند كافور لم يكن مكفى الحاجة كما كان عند سيف الدولة ، فلم تكن له جراية يأكل منها ، ولا طعمة يستغلها .

ومعه بالولاية :

ويذكر بعض الرواة أن كافورا وعد المتنبي بولاية بعض النواحي ، ولكنه لما رأى تعاليه في شعره ، وسموه بنفسه - أخلف الوعد ؛ مخافة أن يدعى الملك من بعده ، كما ادعى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم^(٢)

(١) النجوم الزاهرة : ٤ - ٣٠ - ٦ ، هامش ص : ٩

(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٤٥

وعجيب حقا أن يتورط كافور على هذا النحو في هذه الموعدة الجليلة ،
يضيق بها على نفسه واسعا ، ويلزمها ما ليس لازما ، وإن له عنها مندوحة وسعة .
فالخطب هين ، والرجل معروف بسعة الحيلة ، وحصافة الرأي (١) . وهولا جرم
يعلم أن كذبة الأمير ببقاء مشهورة ، كما يقول زياد . فهل تراه يوم وعد هذا
الوعد كان جادا فيه ، وعازما على الوفاء به ؟ وإذا فما باله غير رأيه ، ورجع عما
عزم عليه ؟ لا أظن السبب كما يقول بعض الرواة ، أن كافورا رأى منه في أشعاره
تعاليا وطموحا لا عهد له بهما من قبل ، لأن الذى أطفأ ثورة المتنبى بإيادية السماوة
عامل من عمال الاخشيدية ، ولأن المتنبى من قبل أن يدخل مصر كان أسير شعرا
وأنبه ذكرا من أن تخفى نفسيته ومطامعه على مثل كافور .

وليت شعرى لماذا وعده كافور بالولاية إذا لم يكن حقا يعرف نزوعه اليها ،
وشغف بها ، ولم يكن يريد بهذه الموعدة أن يصانع نزعته ، ويغلى مرضاته ، عسى
أن يختصه من مدحه بما لم يختص به أحدا من مدوحيه ؟ فقد درج الناس في مكافأة
الشعراء على الاكتفاء باسماء الجائزة ، ورفع المنزلة .

وليس في كلام البديعى ما يدل على أن كافورا وعد المتنبى بالولاية صراحة ؛
فكل ما ذكره في هذا المقام أن كافورا وعد المتنبى أن يبلغه جميع ما في نفسه (٢) .
وعندى أن هذا الأسلوب في مروته وعمومه أشبه بكلام الأكياس ومتعاطى
السياسة من الأمراء ، فهو جدير أن يصدر عن كافور ، وأن يصح انتسابه إليه ؛
وإذا لم يكن هناك وعد صريح بولاية ، ولا بأى مأرب معين ، وإنما كان هناك
وعد مرن يمكن أن يتسع حتى يشمل كل مأرب ، وأن يضيق حتى يغص بأى
مأرب ، لكن المتنبى على ما يظهر صرفه إلى الولاية ، وقصره عليها ، حتى كان
كأنه وعد بها . ولا غرو فقد كان السلطان أعلق الأمانى بذهنه ، وأكثرها
امتزا جابه ، وتسلطا عليه .

ولم يشأ المتنبى بعد ذلك أن يترك أمنيته هذه رهنا بإرادة كافور ، يتفضل بها :

(١) النجوم الزاهرة : ٤ : ٦

(٢) الصبح المتنبى : ١ : ١١٣

عليه متى أراد ، ولذا راح يتنجزها عنده ، كأنها حق من حقوقه الثابتة ، ولاندرى ما ذا كان جواب كافور يوم بدأ المتنبي يطالبه ؟ ولكننا نستطيع أن نفهم من تشبث المتنبي بالمطالبة ، وتماديه فيها - أن كافورا على الأقل لم ينكر عليه التطلع إلى الولاية ، ولم يصد عنه السعى لها .

وقد فصلنا أطوار هذه المطالبة كما تدرج فيها المتنبي ، منذ دخل مصر إلى خروجه منها ، في العدد الأول من أعداد السنة الثانية لهذه الصحيفة ، فارجع إليها إن شئت .

بين المتنبي ووزير كافور :

والظاهر أن كافورا لم يكن يأبى على المتنبي أن يتولى بعض أعماله ، ولكن الوزير ابن الفرات زين له ألا يتورط في ذلك ؛ لأنه كان يطمع أن يمدحه المتنبي لكن المتنبي أعرض عنه ، فخذ عليه ابن الفرات ، وانخذ غرضا للوقعة والدس . ووجد في بعض كافورياته منفذا إلى غايته ، قال الواحدى : . كنت بمصر ، وبها أبو الطيب ، ووقفت من أمره على شفا الهلاك . ودعنى نفسى - لحب أهل الأدب - إلى أن أحثه على الخروج من مصر ، فخشيت على نفسى أن يشيع ذلك عنى ، وكان هو مستعداً للهرب وإمافات أظافير الموت ، ومخالب المنية من قرب ، وهو جنى ذلك على نفسه ، لأنه ترك مدح ابن حنزابة وهو وزير كافور ، والمقرب منه . وأنشد القصيدة الياثية ، وأولها بما يتطير منه ، كيف لا وبراعتها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيًا
تَمَنِّيَتْهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا ، فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيًا
وهذا الابتداء بما تمججه الأسماع ، فقبح ابن حنزابة أثره ، ثم لم يزل يذكر

سواد كافور ووراءه من ينبه على عيوبه . (١)

المتنبى يخرج - في ابنه الكافور - من التلويح الى التصريح :

ومن الآيات التي تعتمد فيها أن يؤلمه ، ويسىء اليه في صراحة وقلة اكتراث قوله في إحدى مدائحه وقد تقدم :

وَلِلَّهِ سَيْرِي ، مَا أَقَلَّ تَذِيَّةٌ عَشِيَّةَ شَرْقِيٍّ الْحَدَّ إِلَى وَغُرْبٍ
عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّذِي أَتَجَنَّبُ

وقد أشار المتنبى إلى سعاية ابن الفرات في قوله في مدح كافور :

وَأَبْلَجَ يَمْعِي بِاخْتِصَاصِي مُشِيرَهُ عَصَيْتُ بِقَصْدِهِ مُشِيرِي وَلُؤْمِي
فَسَاقَ إِلَى الْعُرْفِ غَيْرَ مُكْدَرٍ وَسُقْتُ إِلَيْهِ الشُّكْرَ غَيْرَ مُجْمَعِمٍ

وكان ظاهر أمر المتنبى يدل على أنه كان يجلس كافورا أكثر من سيف الدولة ، إذ كان لا يجلس في مجلسه ، ولا ينشده إلا قائما . وكان كافورا رابه هذا الخضوع في مراسم الزيارة والانشاد ، يصطفيه به على سيف الدولة ، وقد كان سيف الدولة أحق به وأهله ؛ فدرس عليه من يقول له :

« قد طال قيامك يا أبا الطيب في مجلس كافور ، يريد أن يعلم ما في نفسه فقال :

يَقِلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرَّئُوسِ وَبَذَلُ الْكَرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ
إِذَا خَانَتْهُ فِي يَوْمٍ ضَحُوكُ فَكَيْفَ تَكُونُ فِي يَوْمٍ عَبُوسٍ ؟^(١)

على أن المتنبى قد زاد التكبر في مظهره ، بمقدار ما نقصر منه في حضرة كافور ، فقد كان يخرج وفي وسطه منطقة وسيف ، ويركب في موكب من مائيكه ، وهم بالسيوف والمناطق^(٢) . ومظهر هذا وذاك فيما يبدو - إلى طمعه في الولاية ، وتهيبه لها ، وشدة حرصه على الظفر بها .

(١) الصبح المتنبى : ١ : ١١٣ ، ١١٤ ، والبيان : ١ : ٣٦٤

(٢) المصدر الأول نفسه ، وأدب اللغة العربية في العصر العباسي : ٢٧٩

بأس المتنبي من كافور :

ولما طال عليه أمد الانتظار دون أن ينال من بغيته منالا، أراد أن يعلم نية صاحبه في الأمر، ليقطع بالرأى الحاسم هذه الحالة المعلقة، فإما نجاح معجل يبلغه الولاية في غير مراوغة ولا مطال، وإما حرمان لا تردد فيه يحل اليأس محل الرجاء، وينتهي به من صاحبه إلى وضع جديد، فتقدم إليه يسأله أن يوليه صيداً أو غيرها من بلاد الصعيد، فقال له كافور: أنت في حال الفقر، وسوء الحال، وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوة، فإن أصبت ولاية وصارك أتباع فمن يطيقك؟ ثم وقعت الوحشة بينهما، ووضع عليه العيون والأرصاء، خوفاً من أن يهرب؛ وأحس المتنبي بالشر (١)

ولم يعزب عن كافور وقد جابه المتنبي بالحرمان في هذا الأسلوب الجافي، أنه حرمه أكرم أمانيه وأعزها عليه، وصدمه صدمة قاسية، ستثير في نفسه الكراهة والحقد، وتتزع كل أثر من آثار الثقة به، والإخلاص له؛ فلذلك أعد كافور للأمر عدته، وشدد المراقبة على المتنبي مخافة أن يهرب، ويبسط فيه لسانه بالذم والتشهير. ولعله كان يعلم أن مجال القول في ذمه أوسع منه في مدحه، وأن المتنبي قادر على أن يذيقه من آلام الهجاء أضعاف ما أطربه من بدائع المدح، فأصر على استبقائه عنده حياً أو ميتاً. وقد مر بك قريباً أنه قيل أن يفر من مصر كان مشرفاً على الهلاك.

إصراره على الخروج من مصر :

وقد قابل المتنبي هذا الإصرار من كافور بإصرار مثله على الخروج من مصر؛ استمع له، وهو يلح إلى كراهة البقاء فيها، والعزم على الرحيل منها. قال:

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ، فَلَا وَرَأْيَ تَخْبُ بِنِي الْمَطِيِّ، وَلَا أَمَامِي
وَمَلْنِي الْفِرَاشُ، وَكَانَ جَنِّي يَمْلُ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ

وقال :

أَلَا يَأَلَيْتَ شِمْرَ يَدِي : أَتُنْسِي
وَهَلْ أُرْمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ
فَرُّ بَتْمًا شَفِيتُ غَلِيلَ صَدْرِي
وَصَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا
وَفَارَقْتُ الْحَبِيبَ بِلَا وَدَاعٍ
يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ : أَكَلْتَ شَيْئًا
وَمَا فِي طَبْعِي أَنِّي جَوَادٌ
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبَّرَ فِي السَّرَايَا
فَأَمْسِكَ ، لَا يُطَالُ لَهُ فَيْرَعِي
فَإِنْ أَمْرَضَ فَمَرَضَ اضْطَبَّارِي
وَإِنْ أَخْصَمَ فَمَا حُمُّ اعْتِرَازِي

واستأذن كافورا في المسير إلى الرملة ؛ ليخلص مالا له ، فبين كافور فيها يظهر
أنه يحتال للهرب ، فلم يأذن له ، وقال : نحن نبعث في خلاصه ، ونكفيك مئونة
السفر . فاستاء ، ونظم مقطعة يذكّر فيها هذه الواقعة ، قال :

أَتَحْلِفُ لَا تُكَلِّفْنِي مَسِيرًا
وَأَنْتَ مُكَلِّفِي أَنْبِي مَكَانًا
إِذَا سِرْنَا عَنِ الْفُسْطَاطِ يَوْمًا
لَتَعْلَمَ قَدَرُ مَنْ فَارَقْتَ مِنِّي
إِلَى بَلَدٍ أَحَاوِلُ فِيهِ مَالًا
وَأَبْنَدُ شُقَّةً ، وَأَشَدَّ حَالًا
فَلَقَّنِي الْفَوَارِسَ وَالرَّجَالَ
وَأَنْكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْعِي مُحَالًا

امنياء للخروج :

ورأى أخيراً أن يعمل الحيلة في أمره، ويستعين على نجاحها بالخديعة والكتمان، فأظهر الرغبة في المقام بمصر، وراح على مر الأيام يعد كل ما تحتاج إليه رحلته بلطف ورفق، ولا يعلم أحد من غلمانه شيئاً بما استقر رأيه عليه، ثم كان عيد النحر، وكان رسم السلطان - فيما يقول البغدادى - أن يُستقبل العيد يوم وتعد فيه الخلع والحلانات وأنواع المبار لرابطة جنده، وراتبة جيشه. وصيحة العيد تفرق، وثاني اليوم يذكر له من قبل، ومن رد واستزاد، فاهتبل المتنبي غفلة كافور، وخرج فدفن الرماح في الرمال، وحمل بغاله وجماله، وانطلق ليلة العيد سنة ٣٥٠، يطوى المفاوز، ويحتاز بالحلل والمياه في طريقه إلى الكوفة (١) ويروى البديعي أن فرار المتنبي كان يوم العيد نفسه (٢)، لكن المتنبي ذكر في القصيدة التي قص فيها قصة فراره أنه خرج ليلاً. قال :

وَنَامَ الْخَوَّيْدُمُ عَنْ لَيْلِنَا وَقَدْ نَامَ قَبْلُ عَمَّى، لَا كَرَى

أما كافور فقد ارتاع لمهربه ارتياحاً شديداً، ولم يترك وسيلة تخطر بباله، ويظن أنها قد تردده عليه إلا التمسها واستعان بها؛ فكتب إلى عماله في طلبه، وبذل الرغائب الجليلة لمن يجي به. فترصدته العيون بكل مرصد، وثار وراءه البادية والحاضرة من كل جانب، فلم يهتدوا إليه، ولم يظفروا به، كأنما غاص بين سمع الأرض وبصرها، حتى قال بعض البادية: هب سار، فهل يحا أثره؟ وحتى قال بعض المصريين من فرط الحيرة والدهش: لقد سلك طريقاً تحت الأرض (٣) ذلك لأن المتنبي كتم أمره، وأخفى طريقه، وأغذ السير في مراحل الأولى، ولأن كافوراً فيما يظهر من مراسم العيد - لم يعلم نأ فراره إلا ثاني يوم العيد، أي بعد يوم وليلة على الأقل. وبلغ المتنبي الكوفة في جمادى الآخرة سنة ٣٥١

(١) خزانة الأدب: ٣٠٨٠٢، ٣٠٩

(٢) الصبح المتنبي: ١: ١٣٩

(٣) المصدر نفسه

فدخلها جاهداً مكدوداً، بعد رحلة طويلة مضنية، شديداً ساورة فيها الوسواس والخاوف في كل طريق سلكه، وكل منزل نزل به.

مواث رملة :

ووقعت في هذه الرحلة حوادث، أحصاها المتنبي في شعره، وتحدث البديعي عنها، قال: ... ودخل أبو الطيب إلى موضع يعرف بنخل، بعد أيام، وسار حتى قرب من النقب، فرأى رائدين لبني سليم على قلوصين، فركب الخيل وطردهما حتى أخذهما، فذكر له أن أهلها أرسلوهما رائدين، فاستبقاهما. ورد عليهما القلوصين، وسلاحهما. وسار معهما حتى توسط يوت بني سليم آخر الليل، فضرب له ملاعب خيمة بيضاء، وذبح له، وسار إلى البقيع، فنزل ببادية معن، فذبح له، وسار إلى أن دخل حسمى. وهي أرض كثيرة النخل. وطابت له حسمى. فأقام بها شهراً؛ وكان نازلاً عند وردان بن ربيعة الطائي؛ فاستغوى عبيده... فكانوا يسرقون له الشيء بعد الشيء من رحله. وكاتب الأسود سائر قبائل العرب في طلبه... فلما أنكر أبو الطيب أمر العبيد. ووقف على مكتبة الأسود، ترك عبيده نياماً، وتقدم إلى الجمال فشد عليها أسبابه، وسار والقوم لا يعلمون برحله. وطرح عبيده على الإبل، وهم لا يعلمون. وأخذ في السير، ومن قوله يهجو وردان هذا:

إِنْ تَكُ طَيِّبٌ كَانَتْ لِيَامًا فَأَلَامُهُمَا رِبِيعَةٌ أَوْ بَنُوهُ
وَإِنْ تَكُ طَيِّبٌ كَانَتْ كِرَامًا فَوَرْدَانُ لِنَعِيرِهِمْ أَبُوهُ
مَرَرْنَا مِنْهُ فِي حِسْمَى بِعَبْدٍ يَمُجُّ اللَّؤْمُ مَنْخَرُهُ وَفُوهُ

ولما توسط بسيطة، وهي أرض تقرب من الكوفة، رأى بعض عبيده ثورا، فقال: هذه منارة الجامع، ونظر آخر إلى نعامة، فقال: هذه نخلة، فضحك أبو الطيب، وضجكت البادية التي كانت معه، وقال:

بُسَيْمَةٌ، مَهْلًا، سُقِيتِ الْقِطَارَا تَرَكْتُ عُيُونَ عَيْدِي حَيَارَى

فَظَنُّوا النَّعَامَ عَلَيْكَ النَّخِيلَ وَظَنُّوا الصُّوَارَ^(١) عَلَيْكَ الْمَنَارَا
وَأَمْسَكَ صَحْبِي بِأَكْوَارِهِمْ وَقَدْ قَصَدَ الضَّحْكَ فِيهِمْ وَجَارًا^(٢)

وفي الكوفة نظم المتنبي مقصورته المشهورة، يصف فيها رحيله من مصر،
ويذكر المفاوز التي مر بها أو استراح فيها، ويفخر بوفائه وإيائه، وشجاعته
ومضائه، ثم يهجو كافورا ويعرض بالوزير ابن الفرات، ومطلعها:

أَلَا كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلِي فِدَى كُلِّ مَاشِيَةِ الْهَيْدَبِي
ومنها في هجاء كافور:

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ: أَنْتَ بَذْرُ الدُّجَى

وَشِعْرِي مَدَحْتُ بِهِ الْكَرَّ كَدَنْ يَبْنَ الْقَرِيضِ وَيَبْنَ الرُّقَى

فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى

وجملة ما قال المتنبي في كافور سبع عشرة قصيدة، منها سبع في الهجاء،
وسائرهما في المدح والتهنئة.

ويظهر أن صدمة الحية التي منى بها في مصر كانت شديدة الوقع عليه،
عميقة الأثر في نفسه. ولذا نراه في شعبان سنة ٣٥٢، أي بعد فراره من مصر بقرب
من عامين - ينشئ قصيدة خاصة، يذكر فيها مسيره من مصر مرة أخرى،
ويحزن على ما فاتته فيها حزنا ممضا، تخالطه حرقه الغيظ، ومرارة اليأس؛ وأولها:
حَتَّامُ نَحْنُ نُسَارَى النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمٍ؟
وَلَا يُحْسُ بِأَجْفَانٍ يُحْسُ بِهَا فَقَدْ الرُّقَادِ غَرِيبٌ بَاتَ لَمْ يَنْمِ!

(١) القطيع من البقر

(٢) الصبح المتنبي: ١: ١٣٩ - ١٤٤، وشرح العكبري: ١: ٣٢٩

ومنها:

لَا أَبْغِضُ الْعِيسَ، لَكِنِّي وَقَيْتُ بِهَا قَلْبِي مِنَ الْحُزَنِ، أَوْ جِسْمِي مِنَ السَّقَمِ
طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيهَا بِأَرْجُلِهَا حَتَّى مَرَقْنَا بِنَا مِنْ جَوْشٍ وَالْعَلَمِ

ومنها:

هَوَّنَ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ فَإِنَّمَا يَقْطَعُ الْعَيْنِ كَالْحُلْمِ
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِتُهُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغَرِيبَانِ وَالرَّحِمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ وَلَا يَفْرُكُ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

الأعمال المتنبي وصف مصر:

ويعتب بعض المصريين على المتنبي أن أهمل وصف مصر وآثارها الفخمة، ولم يتغنَّ بجمال مشاهداتها الرائعة، كما فعل بيحيرة طبرية قبل أن يزور مصر، وكما فعل بشعب بوان ودشت الأرز بعد أن خرج منها. ولا شك أن محاسن مصر وآثارها الباهرة، جديرة أن تثير الإعجاب والروعة في نفس الوافد عليها، ولا سيما إذا كان كافي الطيب شاعرا متنبه الإحساس، متبهي الملاحظة، مستقيم الفطرة؛ ولكن أبا الطيب في الواقع كان منغص الإقامة، كثير الهموم. وهيات مع ذلك أن يلتفت الحس إلى غمامة أو جمال، التفاتا يثير داعية الشعر، ويحفز إلى التعبير عن خواطر النفس، واجتلاء صور الخيال؛ فقد جاء مصر مغاضبا سيف الدولة أحب بمدوحه إليه، وأكثرهم أيادي عنده؛ وفي مصر ضيقت حريته، وضربت الرقابة عليه، وحطمت آماله، وأحرق الخطر بحياته من قريب؛ ولذا غلب على شعره في مصر التبرم والانقباض، حتى ما تكاد تخلو عنهما قصيدة مما نظم وهو فيها، أو بعد خروجه منها وكانت ذات صلة بها.

فجأؤه للمصريين :

فلأبى الطيب من هذه الناحية شفاعته مسموعة ، يمكن أن تدرأ عنه الملامة والعتب ؛ ولكن الذى يستحق عليه المؤاخذه ، فلا يغنى فى نفيها عنه شفاعته ولا اعتذار - أن يحمله شأن كافور على أن يهجو المصريين ، ويرميهم بالجهل الفاضح تشيع أخباره ، ويضحك الناس بحمقه ومفارقاته ، قال :

جَازَ الْأَلَى مَلَكَتْ كَفَاكَ قَدَرَهُمْ فَمَرُّوْا بِكَ أَنَّ الْكَلْبَ فَوْقَهُمْ
لَا شَيْءَ أَقْبَحُ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذَكَرُ تَقْوَدُهُ أُمَّةٌ لَيْسَتْ لَهَا رَحِمُ
سَادَاتُ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ الْقَزَمُ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُخَفُّوا شَوَارِبَكُمْ؟ يَا أُمَّةً ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ !
نعم ، لا نعرف سببا لهذا الهجاء إلا حقد أبى الطيب على كافور ؛ وإلا فإى ذنب جناه المصريون على أبى الطيب ، فاستحقوا منه كل هذا التحقير والازدراء ؟ إنهم ولا شك لا ذنب لهم فيما أصابه من الخيبة والإخفاق ؛ فلا هم دعوه إلى زيارة بلادهم ، فيتخذ من إخفاقه فيها ذريعة للثقة عليهم والانتقام منهم ؛ ولا هم غرروا به وأطمعوه حيث لا مطمع ؛ ولا هم وعدوه ثم أخلفوه ما وعدوا ؛ بل لعلمهم لم يسيثوا إليه أى نوع من أنواع الإساءة .

إتنا نوافق أبا الطيب على أن إحفاء الشوارب ليس غاية الدين ، ونزيد أنه ليس ركنا فيه ، ولا شرطاً له ، ولا عملاً من أعماله الواجبة ؛ ولكننا لا نوافق أبا الطيب ، ولا نعرف أحداً يوافقُه أيضاً ، على أن إسناد الولاية إليه عمل من أعمال الدين كتب على المصريين أن يجاهدوا فى سبيله ، ويستحلوا دماء من يحول دونه ، فإن فعلوا فقد أدوا الواجب ، وإن لم يفعلوا فجزاؤهم لعنة الله وهجاء أبى الطيب .

أليس ذلك هو ما يومى . إليه أبو الطيب فى آياته السابقة ، ويدعو بسببه صراحة إلى صفع كافور وقتله ، حيث يقول :

أَيْدٍ مُّقْطَعَةٌ حَوَالَى رَأْسِهِ وَقَفًّا يَصِيحُ بِهَا: أَلَا مَنْ يَصْفَعُ؟
وحيث يقول:

أَلَا قَتَى يُورِدُ الْهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولُ شُكُوكُ النَّاسِ وَالثُّهْمُ؟
إن أقل ما يقال عن إحقاء الشوارب أنه عمل غير ضار، ولكن ماذا عسى أن يقال عن هذه الصيحة من أبي الطيب إلا أنها دعوة باغية، تمحض على سفك الدماء، والتضحية بأمن الجماعة من أجل مأرب خاص، كل ما فيه من خير أو منفعة إنما يعود على امرئ لا يعنيه من أمره كثير ولا قليل.
وإذا كان إحقاء الشوارب والقعود عن الفتنة والقتل من أجل أبي الطيب - بما يدل في رأيه على الجهالة العمياء، فعلام تدل صيحته هذه في شرعة الحق والإنصاف؟

الحق أن أبا الطيب لم يكن منصفا في هجاء المصريين، ولو كان هذا دأبه في كل أهاجيه لكان التحامل والعدوان أظهر صفاته وألزمها له في الهجاء.
وما لأبي الطيب لم يذكر الكرامة وعزة النفس يوم سعى إلى كافور، وأنزل بساحته آماله، وراح يتملقه ويبالغ في مدحه ماشاء؟ وهل لو ولى أبو الطيب صيداء مثلاً كان يهجو المصريين ويتمكم بهم؟ أو كان يقول كما قال، والأمر بينه وبين كافور على ما يجب:

فَا لَّا تَكُنْ مِصْرُ الشَّرِّ أَوْ عَرِيَّتُهُ فَإِنَّ الَّذِي فِيهَا مِنَ النَّاسِ أَسَدُهُ؟
غفر الله لأبي الطيب، وأثابه أجزل الثواب على ما أسدى إلى اللغة والثقافة من صنيع.

على النجدي ناصف

مفتش المعارف بعلوى

الوصف في شعر المتنبي

بقلم المنولى فاسم

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية الاميرية للبنات

- ١ -

الوصف في الشعر العربي من أهم أغراضه وأجداها على اللغة ، لخصبه وتنوع فنونه ؛ فإنه كالرسم والتصوير ، يتناول من الكون نواحي شتى : فيمثل المناظر الطبيعية ، من السماء بليالها ونهارها ، ونجومها وشمسها وقرها ، وغيمها وصحورها ؛ ومن الأرض بما عليها من بحار وأنهار ، وبحيرات وغدران ؛ وما فيها من صحارى ذات رمال ، ووحش وحيوان ، ومن بساتين وحقول ، تهتز وتموج بالنجم والشجر ، والزهر والثمر ؛ وينتظم ما يصطنعه الناس على هذه الأرض ، من آثار باقية ، وقصور رفيعة ، وقلاع حصينة ؛ بل إنه ليسجل لنا ما لا يطول أمده : من المجالس وما تزدان به ، وما يجرى فيها من حركات ، وما يسمع من أحاديثها وأغانيتها ؛ ويجلو علينا ما فاتتنا رؤيته وشهوده ، من الحرب والطرده والصيد ؛ بل إنه لينقل إلينا شعور النفوس وإحساسها ، ويعرض على أبصارنا وأسماعنا خلجات القلوب ووجدانها ، وصفات الناس وسجاياها .

فهو غرض واسع النواحي ، بعيد ما بين الأطراف ؛ وقلما يلم الشاعر بأطرافه جميعا ، فضلا عن الإجادة فيها ؛ ولكل من الشعراء الوصافين فن أو فنون من الوصف ، تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ؛ وذلك بحسب مناظر البيئة التي تغلب فيها ، والظروف التي اكتتفتها واتصلت بإحساسه ، وتغلغلت آثارها في مجرى حياته ، فكان يمثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكروها شعوره ؛ فلا ينتظر من الشاعر أن يجيد إلا في الناحية التي هيأته لها

حياته ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ، ومثار آماله وآلامه .

وكذلك الناس في حياتهم ؛ فقد زرت (المعرض) ومعى شيخ من كبار الزراع ، له مع الزراعة صداقة خمسين سنة وخبرتها ، وكان يصحبنا شاب خلى من تبعات الحياة . فهو لا يزال سادرا في اللهو واللعب ، مقبلا على هواه . . . فلما أجزنا الباب ، وتوسطنا الساحة التى تقضى إلى أقسام المعرض ، وقفنا نُجِلِ الرأى فيما يحسن البدء بزيارته : فاقترحت أن نعجل بمعرض - وزارة المعارف ، ورغب الشيخ الفلاح فى المعروضات الزراعية ؛ أما الشاب فلم يؤثر شيئا على آخر ، فما كان همه إلا الإسراع ، لتبقى له فسحة من الزمن فى (الملاهي) . وهكذا حال الشعراء الوصافين ؛ فمنهم من يسرف فى وصف الطبيعة الجميلة ؛ لغرامه بها ، وتقليه بين مناظرها . وقلة ما يصرفه عن اجتلاء محاسنها . . . ومن يصف المفاوز والأبل وحيوان البر ؛ لكثرة ما تتقاذفه الفياق ، وطول ما عاش بين رمال البوادي ، فهى دنياه وبجلى هواه . . . ومن يصف البحر وما فيه ؛ لكثرة ماركبه وعانى من أحواله ، وتكرار ما شاهده فلكه وجزره وخلجانه . . . إلى غير ذلك مما لا سبيل إلى استيفائه الآن .

— ٢ —

ولقد كان شاعرنا أبو الطيب رجلا بعيد الهم . طموحا إلى المجد ، يشعر بأن له حقا عند الأيام تمطله به ، فهو يسعى جهده لإدراكه ؛ وقد نشأ منذ نعومة أظفاره على الهمة ، كبير النفس ، بعيد مرمى الأمانى ، مشغولا بتحقيق مطالبه ، وإدراك مآربه ؛ وقد رأى أن الوسيلة إلى ذلك إنما هى القوة والحرب ؛ فلن ينال ما ينبغي من هذه الحياة ، إلا بالقنا المشتجرة ، والسيوف المرحقة ، والخيول السوابق ، والجنود الأقوياء ؛ وقد شهد الحرب منذ نشأته . ووعت نفسه الشاعرة مناظرها ، وهيئات المحاربين وآلات القتال ؛ واتصل بكثير من القادة فى حياته ، وعاشر سيف الدولة ، ولازمه زمنا مديدا ، وحضر وقائعه مع الروم ، ومع الحارجين عليه من الأعراب ؛ وانغمس فى تيار الحياة لعده ، وهى تدور على

قطب الحرب والقتال ؛ فلا غرو بعد ذلك أن يجيد أبو الطيب وصف الجيوش ،
وساحات الوغى ، وآلات القتال من خيل وسيوف ورماح ، ومظاهر الاتصار
والانهزام . . .

وهذه صورة لجيش الحسن بن عبيد الله بن طنج ، قد رسمها المتنبى ، فجلا
أمامك هذا الجيش ، كأنك تسمع جلبته ، ويملك سمعك ضوضاؤه ، وترى كثرته
تغطي الأرض ، فرماته لا يفلت الطير من نبالهم ، ولا يفوت الوحش المزعج
عن مكانه سهامهم ، بل لا يلبث كلاهما أن تناله أيديهم وسلاحهم ؛ ثم تقلب
وجهك في السماء ، فترى النور تزدحم فوقه حائمة محلقة ، فلا تجد الشمس
طريقا إلى الأرض من زحمة القشاعم وتلاصق ريشها ؛ فإذا صادف ضياؤها
فرجة رسم دراهم مستديرة على المغافر ؛ وتشهد لمعان السلاح في جوانبه يطنى
على البرق فيخفيه ، وتسمع همهمة الفوارس تملو هزيم الرعد فتغطيه :

وَلَا يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إِلَّا مُهْجَةً	مُعْظَمَةً مَذْخُورَةً لِلْمُعْظَائِمِ
وَذِي لَجَبٍ ، لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ	بِنَاجٍ ، وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمٍ
تَرَى عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ	تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً	تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ فَوْقَهُ	مِنْ اللَّعْنِ فِي حَافَاتِهِ وَالْهَمَاهِمِ

وقد وصف إيقاع سيف الدولة بينى عميل ، وقشير ، وبنى العجلان ، وبنى
كلاب ؛ فصور الطراد بين الجيش ، وانهزام الثائرين من هذه القبائل ، ومثل
شدة اضطرابهم حينما لاذوا بالفرار ، وإرهاق نسايتهم المردفات على الخيل ، ووقوع
الأطفال تحت سنايكها ؛ وهذا كله بتصوير بليغ ، لا تشك إذ تقرؤه أنه يعرض عليك
مناظر واضحة متتابعة على سبيلية الخيالة (١) فقال (والضمير لحيل سيف الدولة) :

تَشِيرُ عَلَى سَلَمِيَّةٍ مُسَبِّطَةً تَنَازَرُ تَحْتَهُ لَوْلَا الشَّعَارُ^(١) -
عَجَاجًا تَمُتُّ الْعِقْبَانُ فِيهِ كَأَنَّ الْجَوَّ وَغَثُ أَوْ خَبَارُ^(٢) !
وَوَظَلَ الطَّنُّ فِي الْخَيْلَيْنِ خَلْسًا كَأَنَّ الْمَوْتَ يَنْهَمَا اخْتِصَارُ
فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالِ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ^(٣)
مَضُونًا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ لِأَرْوُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِشَارُ
يَسْلُمُو بِكُلِّ أَقْبَى نَهْدٍ لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ^(٤)
وَكُلُّ أَصَمٍّ يَمْسِلُ جَانِبَاهُ عَلَى الْكُعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مَمَارُ^(٥)
يُنَادِرُ كُلُّ مُلْتَفٍ إِلَيْهِ وَلَبَّيْتُ لثَعْلَبِهِ وَجَارُ^(٦)

وَجَاءُوا الصَّحْحَانَ بِلَا سُورِجٍ وَقَدْ سَقَطَ الْعِمَامَةُ وَالْخِمَارُ^(٧)
وَأَرْهَقَتِ الْمَذَارَى مُرْدَفَاتٍ وَأَوْطِئَتِ الْأَصْبِيَّةُ الصَّغَارُ.

ألا ترى إلى إبراز المعاني ماثلة للأبصار ، آخذة بالآللاب ؟ إني كلما أنشدت هذا أو مثله من شعر المتنبي ، تذكرت على الفور بيتين للأستاذ الجارم في شعر المرحوم شوقي بك :

(١) سلمية : مكان - المسبطر : الغبار النائر الممتد - الشعار : علامة تميز الفرسان

(٢) الوعث : الرمل تغيب فيه القوائم - والحبار : الأرض اللينة .

(٣) لزهم : ألجأهم .

(٤) الأقب من الخيل : الضامر - النهد : العالي المشرف .

(٥) الأصم من الرماح : الشديد غير الآجوف - يمس : يضطرب - ممر :

اسم مفعول من أماره إذا أساله فهو الجارى .

(٦) الثعلب من قنأه الرمح ما يدخل في السنان - الوجار : بيت الضبع .

(٧) الصححان : المكان المستوى من الأرض .

وإن وصف الحرب خلت الحراب تسد من الأرض أقطارها
فتمسك جنبك ذعراً ، تخاف قنأها ، وترهب بتارها !

وفي إحدى مدائح لكافور ، يقصّ عليه بعض متاعبه في أسفاره ، فيقول : إنه
كان يمكن النهار ويسرى الليل ، خشية أن يشغله أعداؤه عما هو بسيله ، وكان
(في مكانه) يتخذ أذن حصانه مقياساً للأمن والفرع ، فيجعل بصره معقوداً
بهما ؛ فإن الحصان إذا رأى شيئاً نصبهما متشوقاً ، فيعلم الفارس ذلك ؛ وهنا تسبح
الفرصة لوصف الحصان ، فيغتمها الشاعر ، ويوفيه بعض حقه ، ولا يقتصر
على جسمه ، بل يصف مرحه ونشاطه ، وسرعة عدوه وقوته وصلابته ، حتى
ليدركه الوحوش فلا يدركه نصب ولا يحس الكلال :

وَيَوْمَ كَلِيلِ الْمَاشِقِينَ كَمَتُهُ أَرَأَيْبُ فِيهِ الشَّمْسُ : أَيَّانَ تَغْرُبُ ؟
وَعَيْنِي إِلَى أُذُنِي أَغْرَّ كَأَنَّهُ مِنْ اللَّيْلِ ، بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ تَجِيءُ عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلُمَاءُ ، أُدْنِي عِنَانَهُ فَيَطْنِي ، وَأُرْخِيهِ مِرَارًا فَيَلْمَبُ
وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ

ولخبرة شاعرنا بالخيال ، وكثرة معاناته لأمورها ، يقف بالسامع بعد هذا
الوصف يلقي عليه درس خبير بصفاتهما ومنافعها ، ويحذره أن يشغله عن
الصفات ظاهر أعضائها ؛ ولكنه لا ينسى أن يلتفت إلى معنى يملك عليه نفسه
فيسجله ، وهو ندور الإخلاص في الأصدقاء .

وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا (كَالصَّدِيقِ) قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مَنْ لَا يَجَرُّبُ
إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا ، فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبٌ

وهنا نلاحظ أن أبا الطيب لا يقف كثيرا عند ظاهر الألوان والحركات ؛ ولا يلبث أن تسابق بصيرته المفكرة عينه المبصرة ، لتسجيل صفات الأشياء وما يرجو من جدواها ؛ فانظر إلى وصفه للخيل بقوة الحوافر وصلابتها ، وصدق النظر في الظلام وبعد مداه ، وحدة السمع ، ووضوح ما تسمع ، على ما به من شديد الخفاء :

تَمَاشَى بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَاقَتْ الصُّفَا نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ الْبُرَاةِ حَوَافِيَا ^(١)
وَتَنْظُرُ مِنْ سُودِ صَوَادِقِ الدُّجَى يَرَيْنَ بَعِيدَاتِ الشُّخُوصِ كَمَا هِيَا
وَتَنْصِبُ لِلْجَرَسِ الْخَفِيِّ سَوَامِعًا يَخْلَنَ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيَا

ومثل ذلك وصفه للسيوف برقة المضارب ، لتكون أسرع نفاذا في الضرائب ؛ وباللسان كشعل النار ، لتكون أشد رهبة في نفوس الأعداء ؛ وبالعرى كالمخزمين مع أنها تدين بحل الدماء :

وَعَوَارٍ لَوَامِعٍ دِيْنَهَا الْحُلُّ ، وَلَكِنَّ زِيَّهَا الْإِحْرَامُ
وأجل ما وصف به السيف أنه يهتدى إلى المقاتل في ظلام النقع ، حيث لا يرى المحارب نفسه :

يَرَى حَدُّهُ غَامِضَاتِ الْقُلُوبِ إِذَا كُنْتُ فِي هَبْوَةٍ لَا أَرَانِي
ولكن لا يفوتنا هنا أن نشهد لابن دريد سبق أبي الطيب إلى هذا ، بل كان أبلغ منه وأكثر مبالغة ، إذ يقول في مقصورته :

يُرَى الْمُنُونُ حِينَ تَقْفُو إِثْرَهُ فِي طَلَمِ الْكَبَادِ سَبِيلًا لَا تُرَى
ويصف أبو الطيب أسنة الرماح فيقول :

قَوَاضٍ مَوَاضٍ ، نَسِجُ دَاوُدَ عِنْدَهَا (إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ) كَنَسِجِ الْخَدْرَتَنِ ^(٢)

(١) الصفا : الصخر ، وهي تؤثر فيه أشباه صدور البراة

(٢) الخدرتق : العنكبوت

تَفَكُّ عَلَيْهِمْ كُلُّ دِرْعٍ وَجَوْشَنٍ وَتَقَرَّى إِلَيْهِمْ كُلُّ سُورٍ وَخَنْدَقٍ
غير أن هذا الوصف (الذى يميل نحو المعنويات) لا يصح أن يشغلنا عن
رواية يبتين له في وصف السيف حسيا ، لما فيهما من جمال التصوير ، فانظر إلى
شُطْبِ السيف التي تشبه طرق النمال ، كيف يتخيلها أبو الطيب ماء استعمال في
الرقم على لب النار ، فكان أدق شيء كالخط الذي في العوذ (الاحبة) ، وأعجب
كيف يبرق البصر ويتحير من رفاق ماء السيف وتموجاته :

تَحْسَبُ الْمَاءَ خَطًّا فِي لَهَبِ النَّارِ أَدَقُّ الْخُطُوطِ فِي الْأَخْرَازِ
كُلَّمَا رُمَتْ لَحْظُهُ مَنَعَ النَّارَ ظَرْمَوْجًا ، كَأَنَّهُ مِنْكَ هَازِي

- ٣ -

أما البادية فلها أكبر الأثر في نفس أبي الطيب ، فهي تعرفه وهو يعرفها
ويستريح إليها ، وكم عاش فيها ، وتقلب بين نواحيها ، وكم سلك منها مهالك تحون
الذئب فيها نفسه ، وتخذل الغراب قوائمه ، حتى صار بها مغرما ، يئلب على شعره
ذر منظرها ، ويصطبغ بصبغتها أسلوبه ؛ بل إنه ليؤثرها على الحاضرة ، ويفضل
في غزله أن يهيم بالبدويات ذوات الحسن الأصيل الموهوب ، دون الحضريات
ربّات الجمال المصطنع المجلوب :

هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَافِيَّةٍ سَكَنَتْ بَيْتًا مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمُدُّ لَهُ طُنْبًا

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِطَرِيَّةٍ وَفِي الْبَدَاةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ

أَفْدَى ظِبَاءَ فَلَاةٍ ، مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ ، وَلَا صَنِغَ الْحَوَاجِبِ

فليس عجيباً أن يختزن في نفسه صور حيوان البادية : من نوافر الظباء ، وأوابد
الوحوش ، ونجائب الابل ، وعناق الطير ، وكلاب الصيد ؛ حتى إذا عرض له
ما يدعو إلى وصفها كانت صورها واضحة في ذهنه ، لا يحتاج إلى استدعائها ، ولا
يعنى نفسه في تلسها واستحضارها ، بل إن أوصافها لتفيض على لسانه لأقل

الدواعي والمناسبات . استمع اليه إذ يصف الجيش كأنما ينظر إليه من طيارة ،
فتسبق إليه صورة العقاب ، فلطالما رآها وألف مشاهدتها ، حتى ارتسمت في قلبه
وتمثلت في عينه :

يَهْزُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ كَمَا هَزَّتْ جَنَاحَيْهَا الْعُقَابُ

فالبيداء هي مدرسته الأولى ، التي غدت بمنظرها خياله ، وأطلقت في تصويرها
خياله ، وحسبك دليلا على ذلك أن تراجع ديوانه ، فترى أنه لم يجعل الوصف
من الأغراض التي يخصص لها قصيدة ، إلا فيما يمت إلى البادية بأقوى الأسباب ؛
فليس في الديوان (على شرة ما فيه) قصيدة قائمة على الوصف فحسب ، إلا
أرجوزة في حصان تأخر عنه ظهور الكلا لوقوع الثلج ، وأخرى طويلة يروى
أنه نظمها ارتجالا في وصف كلب صيد عن له غزال ، فانقض عليه واقتنصه بعد
طراد ؛ وثالثة قصيرة في نزهة جبلية وكلاب صيد أيضا ، ومقطوعة صغيرة في
وصف باز انطلق على حجلة فدق عنقه .

وهو في أكثر هذا الوصف يمثل رؤية ، والعجاج ، وأبا النجم ، في أراجيزهم
(على بعد العهد بهم) ولا عجب فقد استوحى البادية الأغراض ، واستلهمها
الخيال ، واستملأها الألفاظ ، حتى لقد آثر في جلها أن يجعلها في معرض
الرجز ، وهو بحر البادية ، ووزن الترحل بين أرجائها ، وغناء المأخمين والمأتمين
بالدلاء على الآبار ؛ ونلاحظ هنا أن الروح الحربية قد ساعدت النزعة
البدوية : أما في الحصان فإنه من عدة الحرب كما أسلفنا ، وأما البقية فهي صيد
وقنص ، ولا شك أن البراعة في الصيد والطرود تخدم المهارة في الحرب وتعين
عليها . على أن الطرد حرب ، وإن خلا القرن فيه من السلاح والضعيفة
والأحقاد . وهنا نجد شعر المتنبي متسقا مع نفسه ، مصورا لشعوره أصدق
تصوير ، حتى في الميزان والأسلوب .

وقع الثلج وطال أمد إقامته ، فتأخر ظهور الكلا ، ثم ذاب الثلج ، وظهر
مكانه نبت قصير في أما كن متباعدة ، فانطلق مهر أبي الطيب يرعى هذا النبت
القليل ، فجعل ينظر اليه ، ويصفه وصفا غريبا ، وكأنما اصطلحت الظروف على

الإغراب، فكان اسم ذلك المهر أشد غرابة، فالتفتي يقدمه للقارىء باسم (الطخور)، وجاءت الأرجوزة على حرف القاف مثال الشدة والقلقة؛ ولكنه مع هذا وصف بارع بديع؛ وإنى أسوق صدرا منه واعداء بشرحه، فلا تكون غرابته حائلةً دون روايته وتدبير معانيه :

مَا لِلْمَرْوَجِ الْخُضِرِ وَالْحَدَائِقِ يَشْكُو خَلَاهَا كَثْرَةُ الْعَوَائِقِ ؟
أَقَامَ فِيهَا الثَّلْجُ كَالْمُرَافِقِ يَمْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رِيقَ الْبَاعِقِ
ثُمَّ مَضَى، لَأَعَادَ مِنْ مُفَارِقِ ! بِقَائِدٍ مِنْ ذَوْبِهِ وَسَائِقِ

فهو يقول: إن نبت هذه المراعى الفسيحة، قد منعه التبكير في الظهور مواعيد جمّة، كالبرد، والثلج الذى طالت إقامته فيها، ولشدة برده يجعل ريق الباصق جامداً على أسنانه (وهذا وصف بدوى جاف أبرد من جليد القطبين) ولما أذابه الحر انحسر، فمضى متدفعا يسوق بعضه بعضا.

وبعد ذلك يصف النبت بالقصر والقلّة، وكأن المهر (إذ يرعاه متقللاً مسرعاً لتباعده) منطلقٌ إثر إنسان هارب يبغي إدراكه؛ ويزيد في وصف النبت أنه لاصق بالأرض، وأن تناول الحصان له (متردداً هنا وهناك) شبيه بمخوك الخبر من الصحائف، متقللاً من هذه إلى تلك مسرعاً، ثم يشبهه بالشاهين (في عبارة بدوية لا أثر فيها للحاضرة) :

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقِ يَا كُلُّ مَنْ نَبَتٍ قَصِيرٍ لَاصِقِ
كَقَشْرِكَ الْخَبَرِ مِنَ الْمَهَارِقِ أُرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُودَاتِقِ ^(١)

ويصفه بمخالفة يمينه باقى القوائم لونا، وبطول عنقه، وغلظ أطرافه، وتداني مراقبه، وسعة صدره، وشرف أخلاقه لكرمه وعتقه، واتساع منخره،

(١) السوداتق: الشاهين مغرب، والكاف بمعنى مثل، والهاء في أروده للنبت، وفي منه للحصان - أرود هذا النبت بمثل الشاهين من هذا الحصان.

وضمور خاصرته ، والتججيل ، وارتفاع الجسم وإشرافه ، وحرمة لونه حرمة متوسطة ، وتوسطه بين السمين والمهزول :

بِمُطَلَقِ الْيُمْنَى ، طَوِيلِ الْفَائِقِ عَبْلِ الشَّوَى ، مُقَارِبِ الْمَرَافِقِ ^(١)
رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ذِي مَنْخَرِ رَحْبٍ ، وَأُطْلٍ لَاحِقِ
مُحَجَّلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقِ .

وقبل أن نودع هذا الحصان لا يفوتنا أن نروى فيه آياتاً أخف من السابقة ؛ ولكنها أدل على بدوية أبي الطيب ، وسعة معرفته بالبادية وحيوانها ومظاهرها ، فهو يزعم لحصانه من الفضل : أنه فاق الخيل العتاق الضاربة في السن ولما يفارقه شعر البطن ، وأرى على ذُكران النعام بدقة الساق وصلابتها ، ويبالغ في قوة حوافره وصلابتها ، فوقع حوافره في الأرض أشد من فعل الصواعق ؛ ثم يزعم أنه أوفى على الأرانب في انتصاب الآذان ودقتها ، وهو بعدُ أحذر من العقق (وهو طائر كالغراب يضرب به المثل في الحذر) - وهنا تحمى بالمتنبي مبالغته فيضني على حصانه صفات لا يمتاز بها كثير من بني الإنسان ، فهو خير بالكلام يعرف هزله وجده ، ذكي حاد لا ينام الليل ، بل يحرس الركب النيام ، وينذرهم باللص إذا أحس اقترابه ، وهو ماهر حكيم فيما يأتي وما يدع ، ولكنه قد يظهر بعض الحق ، لشدة جريه ، وتناهيه في عدوه :

بَذَ الْمَذَاكِي وَهُوَ فِي الْعَقَائِقِ وَزَادَ فِي السَّاقِ عَلَى النَّقَائِقِ
وَزَادَ فِي الْوَقْعِ عَلَى الصَّوَاعِقِ وَزَادَ فِي الْأُذُنِ عَلَى الْخَرَائِقِ
وَزَادَ فِي الْحِذْرِ عَلَى الْمَقَاعِقِ يُعَيِّنُ الْهَزْلَ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَيُنْذِرُ الرَّكْبَ بِكُلِّ سَارِقٍ يُرِيكَ خُرْقًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاقِقِ

ويروى أن أبا علي الأوراجي أرسل كلباً على ظبي فقنصه ، فتدفق أبو الطيب

بحرا متلاطم الموج، وجعل يهدر في تصوير هذا المنظر بأرجوزة طويلة، حتى استكمل الصورة، برسم مكانها، وتصوير الظبي، ثم الاطئاب في الكلب وطرده. الظبي حتى غلبه وعلاه: فوصف الروض الذي نزلوه بأنه غير معد لأقامتهم، بل هو منزل تباكره أيدي السحائب الهواطل، فهو رطب الخزامى، ذكي رائحة القرنفل، تغدو فيه الوحوش وتروح، وليس يحله الناس:

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ وَلَا لَغَيْرِ الْغَايَاتِ الْهَاطِلِ
نَدَى الْخُزَامَى، ذَفِرَ الْقَرْنَفُلِ مُحَلَّلٍ مِ الْوَحْشِ، لَمْ يُحَلَّلِ^(١)

ثم انتقل إلى الظبي فكان فيه متغزلا رقيقا، كأنما ينسب به ويشب تشبها، فوصفه وصفا تحسده عليه الغايات لولا قرناته، وأنه هالك بعيد النجاة:

عَنْ لَنَا فِيهِ مُرَاعَى مُنْزَلٍ مُحَيَّنُ النَّفْسِ، بَعِيدُ الْمَوْتِ^(٢)
أَغْنَاهُ حُسْنُ الْجِيدِ عَنْ لُبْسِ الْحُلِيِّ وَعَادَةُ الْعُرَى عَنِ التَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضْمَخٌ بِصَنْدَلٍ مُعْتَرِضًا بِمِثْلِ قَرْنِ الْأَيْلِ
يَحُولُ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالتَّائِلِ

وتدفع سيله في وصف الكلب عن تجربة واختبار، فقال: إنه واسع الشدين. ذو ساجور وسلسلة في عنقه، ضامر مقتول، يسطو بشراسة، وفي خلقه طول، وليس يلهيه ولا يفزعه ويحيره بغام الغزال، بل يمضى في الانقضاض عليه، مع شدة متته وفقاره، ولين مفاصله، ليكون مقداما سريع العدو والقفص: وهو (فوق ذلك) كثير التلفت، حديد البصر؛ فيرى مدبرا كما يلحظ مقبلا، وعينه في صفاء المرأة، يسرع في الحزون سرعته في السهول، فإذا تسابق مع كلاب آخر وكان في أول الشوط تاليا متأخرا، بلغ نهاية الشوط سابقا متبوعا لاتابعا:

(١) يريد من الوحش، خذف النون على لغة تجرى بها ألسنتنا الآن في الدارجة

(٢) المنزل: الظبية وراها ولدها. ومراعيها: ظبي يرعى معها - والمحين من

فَحَلَّ كَلَّابِي وَثَاقَ الْأُخْبَلِ عَنْ أَشْدَقِ بُسُوجِرٍ مُسْلَسَلِ
 أَقْبَ، سَاطِ، شَرِسٍ، شَمَرْدَلِ مِنْهَا، إِذَا يُنْفَعُ لَهُ لَا يَنْزِلُ^(١)
 مُوَجَّدِ الْفِقْرَةِ، رِخْوِ الْمَفْصِلِ لَهُ - إِذَا أَذْبَرَ - لَحْظُ الْمُقْبِلِ
 كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ سَجَنَجَلِ يَمْدُو - إِذَا أَحْزَنَ - عَذْوُ الْمُسْهِلِ
 إِذَا تَلَّا جَاءَ الْمَدَى وَقَدْ تَلَّى

ثم ما ذا يرى القارىء في هيئة الكلب مقبياً لأخذ الصيد، إذ يرسمه المتنبي بهذا البيت :

(يُقْنِي جُلُوسَ الْبَدْوِيِّ الْمُصْطَلِي) ؟ إنه لتصويرٌ عبقرى مفتنٌ ! انظر كيف يجلو أمامك هذه الصورة في هيئة البدوي الجالس مقبلاً على النار بأعلى جسمه مباعداً بين ركبتيه ؛ ليستوفى أكثر ما يمكن من الدفء لاكثر الأعضاء . والأرجوزة طويلة جداً ، وجل آياتها في الحسن سواء ، ومن حق المتنبي أن نرويهما كلها ، والمقام يضيق عنها كاملة . فلنقتصر (بعد مامر) على طرد الكلب للظبي الذي وقع في قبضة المذون ، بأنياب ذلك الكلب الحديد كالنصال ، وفيها الهلاك :

فَانْبَرِ يَا فَذَيْنِ تَحْتَ الْقَسْطِ قَدْ ضَمِنَ الْآخِرُ قَتْلَ الْأَوَّلِ
 فِي هَبْوَةٍ كِلَاهُمَا لَمْ يَذْهَلِ مُقْتَحِمًا عَلَى الْمَكَانِ الْأَهْوَلِ^(٢)
 يَخَالُ طُولَ الْبَحْرِ عَرْضَ الْجَدُولِ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ : نِلْتَ ، أَفْعَلِ

(١) الثغاء : صوت الشاة شبه به بغام الغزال - وجزم فعلين باذا - وهو خاص بالشعر في لغة . كما قال الأول :

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل .

(٢) الهبوة : الغبرة ، والقسط : الغبار أيضاً .

اِفْتَرَّ عَنْ مَذْرُوبَةٍ كَالَا نَصْلِ لَا تَعْرِفُ اَلْهَدْ بِصَقْلِ الصَّقِلِ
مُرَّ كِبَاتٍ فِي الْعَذَابِ الْمُنْزَلِ كَانَهَا مِنْ سُرْعَةٍ فِي الشَّنَالِ
كَانَهَا مِنْ ثَقَلٍ فِي يَذْبَلِ كَانَهَا مِنْ سَعَةٍ فِي هَوَجَلِ (١)
كَانَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالْمَقْتَلِ عِلْمَ بَقْرَاطَ فِصَادَ الْاُكْحَلِ

ولما أوقع عضد الدولة بالأكراد، عاد يتلهى بالصيد في بَرِيَّةٍ جبليَّةٍ في طبرستان، مأهولة بصنوف الطير المائي، وضروب الحيوان الوحشي: من أيائل، وأسود وخنازير، وأشبال وخنائص (٢)، وديبه وُغزلان، ونعام ورنال، وضباب وأورال (٣)، وبقر وثيران؛ وهنا وجدت شاعرية صاحبنا مناظر خصبة، فيها لعينه مجال، ولخياله مدد فياض، ووجد هو مكان القول ذا سعة فقال، وأوسع تلك البرية وصفا، ولم يمدح عضد الدولة بمقدار ما أسرف في وصف حيوانها، ولا سيما الوعول (التيوس الجبلية) فقد أبدع في تصويرها تصويراً أسخراً بليغاً، وكانت ليحائها أشد ما هاج سخريته البارعة؛ فانظر إليه يصف قرونها، فيجلوها قسيّاً من شجر الضال طويلة مسترسلة على ظهورها، لا تفتّر أطرافها عن نخس أكفالتها، حتى لتكادُ تنفذ من خواصرها:

وَأَوْفَتِ الْفُدْرُ مِنْ الْأَوْعَالِ مُرْتَدِيَّاتٍ بِقِيسِ الضَّالِ (٤)
نَوَاحِسَ الْأَطْرَافِ لِلْأَكْفَالِ يَكْذَنَ يَنْفُذَنَ مِنَ الْأَطَالِ

(١) الهوجل: الأرض الواسعة.

(٢) الخنائص جمع خنوص: صغار الخنازير.

(٣) جمع ورنل: دوية شبيهة بالضب.

(٤) الفدر: جمع فدر على فعل «بضمتين»، وأسكنها للوزن. والفدور من الوعول: المسنة الضخمة. وأوفت: أشرفت.

ثم انظر كيف استخفت لحي الأوعال وقاره، وذهبت برزاته واتزانه،
فاوسعها استهزاء وسخرًا لا يخلو من معنى مقصود سنعود إليه بعد :

لَهَا لِحَى سُوْدٌ بِلَا سِبَالٍ تَصْلَحُ لِلِإِضْحَاكِ لَا لِالْجَلَالِ^(١)
كُلُّ أَثِيثٍ نَبَتْهَا ، مِتْفَالٍ لَمْ تُنْزَ بِالْمِسْكِ وَلَا النِّوَالِ^(٢)
تَرْضَى مِنَ الْأَذْهَانِ بِالْأَبْوَالِ وَمِنْ ذِكِّ الْمِسْكِ بِالْأَمَالِ^(٣)
لَوْ سُرِّحَتْ فِي عَارِضٍ مُحْتَالٍ لَعَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ الْمَالِ
يَبْنِي قُضَاةَ السُّوءِ وَالْأَطْفَالِ

ولا بد هنا من استكمال صورة الأوعال، وهن يتساقطن من رؤوس الجبال،
بعد أن أختها سهام الرماة بالجراح، فهن يعدون على فقار الظهور والاققاء،
غير شاكيات من الكلال، فقد كفاهن الانحدار إياه، ولا خائفات من الضلال،
غالارض غاية السفر ونهاية مداه :

فَهِنَّ يَهُوِينَ مِنَ الْقِلَالِ مَقْلُوبَةَ الْأَظْلَافِ وَالْإِرْقَالِ
يُرْقِلْنَ فِي الْجَوِّ عَلَى الْمَحَالِ فِي طُرُقِ سَرِيعةِ الْإِيصَالِ^(٤)
يَنْمَنَ فِيهَا نِيْمَةَ الْكِسَالِ عَلَى الْقُنْيِ أَعْجَلَ الْعِجَالِ
لَا يَتَشَكُّنَ مِنَ الْكِلَالِ وَلَا يُحَاذِرْنَ مِنَ الضَّلَالِ

(١) السبال : شعر الشفة العليا

(٢) الأثيث : الكثير الملفف ، ومتفال : منتنة الريح

(٣) الدمال : زبل الدواب (السرقين : السرجين)

(٤) الإرقال : نوع من السير ، فعله أرقل يرقل ، والعامية المعنيون بالدواب يقلبون

عاقفه جيما مصرية

— ٤ —

وليس عجيباً أن يتبع المتنبي هذا الأسلوب في هذا النوع من الوصف ،
ويؤثر الإغراب فيه على الوضوح ، ويختار له وزن الرجز خاصة ؛ فإن أبا
نواس مع كثرة دعوته للتجديد ، وشدة نفرتة من الأساليب البدوية ، أراد أن
يظهر براعته وسعة علمه بالغريب ، فنظم في مثل أسلوب أبي الطيب (بل أقوى
منه وأصلب) أرجوزته التي أولها : وبلدة فيها صعر - ويقول فيها :

مرّت إذا الذئب اقتفر^(١) بها من القوم الأثر^(٢)

كان له من الجزر كل جنين ما اشكر^(٣)

ولا تعلّاه شعر ركبها على غرر... الخ

وله فوق هذا أرجوزتان في كلب الصيد ، هما مثال الجزالة والإغراب ؛ وإن
بشاراً نظم أرجوزته التي أولها : (يا طلل الحى بذات الصمد) تحدياً لمن استعجزه
أن يجيد النسخ على هذا المنوال ، وهما بعد من الموالى غير المحافظين في لغة
العرب على القديم ؛ فكيف بالمتنبي وهو العربي الصميم ، والبدوي القح حتى في
الغزل والنسيب ؟

وإذ ترمى بنا القول إلى بشار وأبي نواس ، وجب أن نذكر عاملاً ثالثاً كان
عميق الأثر في شاعرية أبي الطيب ؛ وفي هذا النوع من الوصف على الخصوص ؛ ذلك
هو استيعابه لكثير من شعر السابقين ، وليس من شك في أنه كان جيد الحفظ
قوى الذاكرة ، وقد سبق عهد التدوين أيامه ، واستبحرت دراسة الأدب القديم ،
وقد كان (فيما يروى) يغشى الوراقين ويطل اللبث عندهم ، ويتناول كتبهم
فيشبع منها نهمه في طلب الأدب ، ويروى غلته بحفظ الشعر الكثير ، وكان
(فيما يقال) يحفظ ديوان أبي تمام ويعجب به ؛ ومن كل ذلك نرى أنه قد حفظ
كثيراً من الشعر القديم (ولا سيما ما يتعلق بالبادية) حفظ متدبر ، وهضم
محفوظه ، فاستطاع أن يثله ولكن على طريقته . يقول أبو نواس في الخمر :

(١) اقتفر : اتقى وتبع الأثر

(٢) اشكر : نبت عليه شعر البطان ، وهذا كناية عن إجهاض النوق

في كنوس كأنهن نجوم جاريات ، بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا

فيتأثره (أو مثله) المتنبي في التصوير ، فيصف السيوف قائلا :

خُلِقْنَ شُمُوسًا ، وَالنُّوُودُ شَارِقٌ لَمْ يَنْ ، وَهَامَاتُ الرِّجَالِ مَغَارِبٌ
أما بيان مبالغ تأثره القدماء ومقدار تأثير شعرهم في شعره ، فبحسبنا الآن أن
نلاحظ حرصه على الرجز في الطرد ، وأنه لم يتحال من طريقة الأقدمين ، فكان
الطرد عندهم لا يجمع إلا في حلل الأراجيز ؛ أما استيعاب هذا الموضوع فيجوز
بنا عن القصد ، ولا نستطيع هنا أن نأتي فيه بما يشئ الغليل ، ويكفي أن نشير
إلى بعض أطرانه في تضاعيف الكلام . وقد تجمعت كل العوامل السابقة ،
فأعانت على الإجابة والإيقان في كثير من الوصف ، ولا سيما وصف الأسد ؛
فناظر البادية متمكنة من نفسه ، والروح الحربي يمتلك لشعوره وحسه ، وهو
طبعاً قرأ وحفظ وصف البحترى والفرزدق للذئب ، واجتمع إلى كل هذه العوامل
إعجابه بالرجال الأقوياء ، الذين يرجو أن يعود على أيديهم مجد العرب سيرته
الأولى ، كبدر بن عمار (الرجل) الذي نازل الأسد وتغاب عليه ، وكان قد أعجله
عن انتضاء سيفه ، فبادره بالسوط ، وكانت لابن عمار الغلبة ، وهو منظر يستدعي
الشعر ، ويدعو إلى التجويد فيه والإبداع ، وكلام المتنبي فيه متعالم مشهور ،
فلا نروى منه إلا بيتا يدل على مبالغ دهشة الشاعر وإعجابه بابن عمار . استمع
إليه وهو يصيح مناديا :

أَمْعَفَرُ اللَّيْثِ الْهَزْبِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَعْقُولَا ؟!

— ٥ —

وأنت ترى أبا الطيب يستوحى هذين العاملين القويين في تكوين خياله
وأسلوبه : (البادية وحيواناتها ، والحرب وآلاتها) فإذا شهد ما يمت إليهما بنسب ،
ويتصل معهما بسبب ، جاشت شاعريته ، فكان مصورا لبقا بارعا ، وأتى بالعجب

العجاب ، ومن ذلك وصفه لفازة كان فيها سيف الدولة . وهي خيمة ديباج ، عليها صور رياض ذات دوح وطير وحيوان ، وهي مؤلفة من عدة أثواب ، كل منها ذو وجهين ، وعلى حواشيه دوائر يرض لطيفة ، كأنها اللؤلؤ المنظوم ، وقد رُسم الحيوان في هيئة المهارشة والمهاجمة والمدافعة ، لكنه في الصورة جماد ليس بينه هراش ولا هجوم ولا دفاع ، فاستمع إليه ، وانظر إلى الصور الجمادية ، التي ينفخ فيها من روح الشعر ، ويضفي عليها من قوة الخيال ، ما يحرّكها أمام ناظريك ، وينقل أصواتها إلى مسميعك :

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبةِ كُلِّهِ حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهُ (١)
عَلَيْهَا رِيَاضٌ ، لَمْ تَحْكَمْهَا سَحَابَةٌ وَأَغْصَانُ دَوْحٍ ، لَمْ تُغْنِ حَمَائِمُهُ
وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مَوْجَهُ مِنْ الدَّرِّ ، سَمِطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاطِمُهُ
تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُضْطَلِحًا بِهَا يُحَارِبُ ضِدُّ ضِدِّهِ ، وَيُسَالِمُهُ
وتأمل البيت الآتي بوجه خاص . فهو ينقل اليك صورة الخيل في الميدان ، وصورة الأسد تختل الظباء لتصيدها ، وتطردها لتدركها (يعبر عن ذلك بالفعل تدأى)

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ ، كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِيهِ ، وَتَدَأَى ضَرَاغِمُهُ
وإنه ليدكرنا قول البحترى في إيوان كسرى وما عليه من نقوش حربية :
وَالْمَنَائِيَا مَوَاتِلَ ، وَأَنُوشِرُ وَأَنْ يُرْجَى الصَّفُوفُ تَحْتَ الدَّرَفُسِ (٢)
يغتنل فيهم ارتياني حتى تتقراهمو يداى بلبس
وكذلك قول أبي نواس في كأس ذهبية ، عليها نقوش فارسية :
تدار علينا الراح في عسجدية حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

(١) يريد بقوله (حيا بارق) سيف الدولة على الاستعارة التصريحية .

(٢) الدرفس : العلم .

قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهأ تدرىها بالقسى الفوارس
ومن بين تلك النقوش (على الفازة) رسم ملك الروم ، وقد تخيله المتنبي
(مادم سيف الدولة بإخلاص) ذليلاً مهيناً ، لكثرة ما أوقع به ذلك الممدوح ،
حتى إذا رسم الصانع صورته على هذه الثياب ، فلا مفر من ظهور الذلة عليها ؛
إذا أصبحت ضربة لازب على هيئته لا تفارقها :

وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ لَا بُلَجَ ، لَا تَيْجَانُ إِلَّا عَمَامَةٌ
ويرى بعض الباحثين المعاصرين (فيما حاضر به عن سيف الدولة ونزعتة
الفنية) :

(١) أن لسيف الدولة صورة على أحد وجهي الفازة ، وأمامها صورة
ملك الروم في ذلة وخضوع . وإنا نلتبس له بعض العذر فيما ارتأى ، ففي بعض
شروح الديوان بعد هذا البيت ما يأتي : « يقول صورة ملك الروم على هذا
الثوب ساجد (كذا) لسيف الدولة ، وقد خضع له وتذل على عادته وإن كان
متوجاً ، لاحظ قوله (على عادته) يساعدك فيما تستقبل من رأينا .

(ب) ويرى أيضاً أن ثلاثة الآيات الآتية تكملة لوصف النقوش التي على
الفازة ؛ وها هي ذى .

تَقْبَلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَهُ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُهُ وَبَرَا جُمُهُ (١)
قِيَامًا لِمَنْ يَشْنِي مِنَ الدَّاءِ كِيَهُ وَمَنْ بَيْنَ أَذْنَى كُلِّ قَرِيمٍ مَوَاسِمُهُ (٢)
قَبَائِلُهَا تَحْتَ الدَّرَافِقِ ، ذِلَّةٌ وَأَنْفَذُ مِمَّا فِي الْجُفُونِ عَزَائِمُهُ (٣)

ولا عذر لمن يصطنع هذه الدعوى الثانية ، فليس في الكلام ما يُسِفُّها .
والذي نرضاه هو أن حقيقة ملك الروم في خيال المتنبي ذليلة (كما أسلفنا)

- (١) البراجم : عظام ظاهر الكف ، أو رموس مفاصل الأصابع .
(٢) يكنى بالداء عن غوائل الأعداء ، وبالكى عن الضرب والطمع ، والقرم =
السيد ، والمواسم : جمع ميسم ، وهو الذى يوسم به ، شبيه بالمكواة .
(٣) القبائع جمع قبيعة ، وهى الحديدية على مقبض السيف .

وأن هذه الفائزة (فيما نرى) ليست من صنع العرب ، وإنما هي من عمل الروم ، وقد تكون وقعت لسيف الدولة مغنا أو شراء ؛ وقد كانت المتاجر متبادلة بين المتجاورين ؛ وقد أهدى سيف الدولة لأبي الطيب (فيما كان يهدى) ثياب ديباج من صنع الروم ، وعليها صور بعض ملوكهم ، وصور قيان مغنيات وخيل وأشياء أخرى ، فقال فيها :

ثِيَابُ كَرِيمٍ مَا يَصُونُ حِسَانَهَا إِذَا نُشِرَتْ كَانَ الْهَبَاتُ صَوَانَهَا
ثُرَيْنَا (صَنَاعُ الرُّومِ) فِينَا مُلُوكَهَا وَتَجَاوَرُ عَلَيْنَا تَقَشُّهَا وَقِيَانَهَا
وَلَمْ يَكْفِهَ تَصْوِيرُهَا الْخَيْلَ وَحَدَهَا فَصَوَّرَتْ الْأَشْيَاءَ إِلَّا زَمَانَهَا
وَمَا ادَّخَرَتْهَا قَدْرَةً فِي مُصَوِّرٍ سِوَايَ أَنَّهَا مَا أَنْطَقَتْ حَيَوَانَهَا^(١)

فأنت ترى (معي) أن هذه الثياب من الديباج ، والفائزة من الديباج ؛ وعلى كل منهما صورة ملك الروم والخيل ، وزادت الثياب صورة القيان ، واختصت الفائزة بالأسد والحيوان والدوائر البيض . ثم ترى نصا صريحا في البيت الثاني هنا أن الثياب المهداة من عمل (صناع الروم) لاشبهة في ذلك ؛ فهل من شك (بعد هذا النص وهذا التشابه في أكثر الصور) أن الفائزة من صنع الروم ؟ بل إن ثياب الفائزة (فيما نرى) من نوع ثياب الهدية . وقد وصف كليهما الشاعر ، فأتى ببعض الوصف مشتركا فيهما ، واختص كلا منهما بزيادة يقتضيها مقامها . (وبعد) فلا أرى أن صناع الروم كانت تفكر في رسم سيف الدولة . فضلا عن تصويره عظيما ، وتصوير ملكها أمامه ساجدا ذليلا خاضعا ؛ فلا نرضى كلام الشرح ، ولا ما ذهب إليه الباحث الذي اعتمد عليه ؛ وفي قول الشرح (على عادته) لا تعترف به صناع الروم ، بل لا يوافق إلا خيال المتنبي في تصوير خصمه وخضمم بمدوحه ، ووسمه بالذلة والهوان .

ونذهب في الدعوى الثانية (بعد ما عرفت من رد النتمش إلى صناع الروم)

(١) ضمن ادخر معنى حرم ، فعداه إلى مفعولين ثانيهما قدرة .

أن لا صورة على الفازة لسيف الدولة وللملوك خاضعين يقبلون بساطه ؛ بل هذا استكمال لحقيقة سيف الدولة في خيال الشاعر ؛ وهو قد استأنف المدح بعد الوصف فأراد أن يذكر (لمناسبة ذلة الرومي) رفعة مقام الممدوح على الملوك وخضوعهم له ، يعمم بذلك ولا يخص ملك الروم ؛ والمضارع (تقبل ...) في أول ثلاثة الأبيات للاستمرار التجددى ، أى أن هذه الهيئة تتكرر كثيرا حيناً بعد حين ، ولو صح أن الصورة تمثل تقبيل البساط ، وقد وقع الملوك إلى الأرض ساجدين ، لما صح في البيت الثاني (قياما ...) وليس من المعقول أن يقعوا للبساط مقبلين ، وقبائع السيوف تحت المرافق (في البيت الثالث) - وملاحظة أخرى تحول دون إساغة هذا التأويل ؛ وهى ذلك الشطر الأخير (وأنفذ بما في الجفون عزائم) فكيف يكون مدحا تفضيل العزائم على السيوف الصورية ؟ إنه ذن عزائم من مذروء الهشيم ، وسوا فى الهواء ، وسوايح الهباء ! ألم تر أن السيف يقبح وصفه إذا قيل : هذا السيف خير من العصا ؟ !

— ٦ —

ولئن كان أبو الطيب ينبعث على سجية نفسه ، وينسجم مع مصادر شعوره وحسه ، حينما يجد مناظر البادية أو ما يقاربها ، إنه ليستغل خيالها فيما هو أبعد من ذلك : يرى سبى سيف الدولة من نساء الروم في وقعة على نهر (أرسناس) وقد ركب السفن لعبور هذا النهر ، فيثب خياله إلى كُنس الظباء في جوف البادية ، فيقول (يحكى عن سيف الدولة ، وضمير فوقه لنهر أرسناس) : -

فَتَلَّ الْجِبَالَ مِنْ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنْ الصُّلْبَانِ
وَحَشَاهُ (عَادِيَةً) بِغَيْرِ قَوَائِمٍ عُقْمَ الْبُطُونِ ، حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ
تَأْتِي بِمَا سَبَتِ الْخِيُولُ ، كَأَنَّهَا (تَحْتَ الْحَسَانِ) مَرَابِضُ الْغَزَلَانِ
وهذا وصف بارع جميل لولا المبالغة في البيت الأول ، وليست غريبة من

شاعرنا، فكأنه أبوعذرهما، وحافظ سرها؛ ألا ترى إلى السفن خيلا عاديات
بغير قوائم، ليس من شأنها الولادة والتاج، ينتظمها كلُّها لون واحد هو لون
القار؟ والشطرنج الأخير ولا سيما (مرابض الغزلان) فيه جمال لا يقوم به كلام
آخر في هذا الباب، ويشف عن رقة غزلية، لانتهايا إلا لنفس ناعمة هاتئة؛ ولعل
نشوة النصر قد أثلجت صدره، وهزت عطفه، وأشعرت هذوه البال، ولعله في
هذا الطور من حياته كان يحس هدنة بينه وبين الدنيا على غير عادته، أو لعلها
خطرة من الخطرات تسنح ثم تمضي!

أما وصفه لبحيرة طبرية فقد استلهم فيه خياله البدوي، واستجاش شعور
الحربي: يذكر في هدير الموج قول الأبل تهدير بين النياق من غير شهوة للضراب
(قَطَمَ) ويتخيل في سبح الطير فوق زبد الماء مضطربة ذاهبة كل مذهب، منظر
فرسان ركضوا مهارا بُلُقًا، قد انتكشت أعنة لجُمها، فهي تذهب حيث تشاء،
ولا بد أن يستحضر نزالا وطمانا بين جيش: هازم ومهزوم، إذ يرى الرياح
تضربها، فتصطفي الأمواج، فتضطرب الطيور يتبع بعضها بعضا: —

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزِيدَةٌ تَهْدِرُ فِيهَا ، وَمَا بِهَا قَطَمٌ
وَالطَّيْرُ (فَوْقَ الْحَبَابِ) تَحْسِبُهَا فُرْسَانٌ بُلُقٍ تَخُونُهَا اللَّحْمُ
كَأَنَّهَا (وَالرَّيَّاحُ تَضْرِبُهَا) جَيْشًا وَغَى : هَازِمٌ وَمُنْهَزِمٌ

فاذا انتقل إلى منظر البحيرة العام وما يحف بها، لم يزد على غيره من الشعراء
إلا لفظة البدوي الغريب، وإلغازه الممقوت المغيب؛ وذلك فيما نروى لك هنا،
والغز عن السمك في البيت الثاني:

كَأَنَّهَا (فِي نَهَارِهَا) قَمَرٌ حَفَّ بِهِ مِنْ جَنَانِهَا ظَلَمٌ
نَاعِمَةُ الْجِسْمِ ، لَا عِظَامَ لَهَا لَهَا بَنَاتٌ ، وَمَا لَهَا رَحِمٌ
تَفَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا وَجَادَتِ الرُّوضَ حَوْلَهَا الدِّيمُ

فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مُطَوَّقَةٌ جُرِّدَ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ

ومن يقرأ هذا الوصف فلا بد أن ينتقل ذهنه فورا إلى قصيدة البحترى في بحيرة المتوكل ؛ فيجد فيها جمالا ورقة حضرية ، وتصويرا لبقا ، ليس للمتنبي من كل ذلك ما يسامى البحترى فيما نرى ؛ وبحسبنا أن نشير إليها عامة ، ونذكر منها هذا البيت خاصة عنوانا على محاسنها :

كأنما الفضة البيضاء (سائلة من السبانك) تجري في مجاريها

وليس في المقام سعة لروايتها كلها والموازنة بينهما ؛ فليرجع إليها من يشاء .
يحمد كـيلا الشاعرين قد تأثر في وصفه بيئته وحياته ؛ وليس علينا أن نطيل القول هنا .

— V —

وإذ قد تراءى بنا القول إلى ذكر المعاني الحضرية في الوصف ، فإننا نلاحظ أن المناظر البدوية كانت تطفئ على نفسه ، وتكاد تستأثر بها ، فلا تترك فيها مجالا لمناظر الحاضرة ، وكأن الآثار الأولى التي تحرك لها حسه ، وحفلت بها نفسه الشاعرة ، هي التي بقيت على مر الزمان ، منقوشة على صفحة قلبه ، فجعلت تراحم بالمناكب والمرافق كل جديد ، فلا يظفر هذا الجديد بخيلة ترسمه رثما واضحا جلجا ؛ هذا إلى الهموم التي تصطرع في قلبه ، فتقاضاه أن يقصر عليها ما عنده من تفكير وشعور . فنسمعه يهتف من أعماقه صائحا :

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخِرًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ إِلَيْهِمْ فِيهَا مُعَذَّبٌ !
ويشكو من الدهر كثرة مساويه إليه ، وتراحم رزاياه عليه ، فيستصرخ غير سميع بأندى صوت وأعلاه :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ !

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامُ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ !

وينظر في نجوم الليل ، فلا يقول فيها ما يقول ابن المعتز ، المنعم في قصر

الخلافة: (درر نثرن على بساط أزرق) بل لا يجوز عليها بأنها حلى على حالك
ليل، إلا ليطيل بعد ذلك في وصف طول الليل، وليعد هذه النجوم الدرارى
أرقاما حساية، يحصى بها ذنوب الزمان وبلاياه:

أَقْلَبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي أَعْدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا !

ولذلك لا يتوقع منه أن يفرغ لوصف المناظر الحضرية الجميلة، كالبحترى
وابن المعز، ولا يتقلب بين جنات هذه الدنيا، حتى يدع في وصف الأنهار
والبساتين، كابن خفاجة وابن حمديس، ولا تطيب لنفسه كثيرا مجالس الأنس
والغناء. لكى يعزف مع ابن الرومى على أوتار القيان، ويركض معه في
هذا الميدان:

تَغْنَى كَأَنهَا لَا تَغْنَى مِنْ سَكُونِ الْأَوْصَالِ وَهْنِي تُجِيدُ
لَا تَرَاهَا - هُنَاكَ - تَحْظُظُ عَيْنُكَ مِنْهَا، وَلَا يَدْرِي وَرِيدُ
مِنْ هَدْوَةٍ، وَلَيْسَ فِيهِ انْقِطَاعُ وَسُجُوتٍ، وَمَا بِهِ تَبْلِيدُ
مَدَّةٍ فِي شَأْوِ صَوْتِهَا نَفْسٌ كَأَنَّهَا فِي، كَأَنَّهَا عَاشِقِيهَا مَدِيدُ
وَأَرْقَى الدَّلَالُ وَالْغَنَجُ مِنْهُ وَبَرَاهُ الشَّجَا، فَكَادَ يَبِيدُ
فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا مُسْتَلَذَّ بَسِيطُهُ، وَالنَّشِيدُ

وليس هو بالذى يشرب على الورد من حمراء كالورد، فيتابع أبا نواس،
وينهز مع الغواة بدلوهم، ويُسَمِّمُ سِرْحَ اللُّهُوِّ حَيْثُ أَسَامُوا، وَيَتَدَاوَى مِنْ دَاءِ
الْحُمَارِ بِدَاءِ الْعَقَارِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى هَذِهِ الرَّاحِ، وَيَتَفَنَّنُ فِي تَزْيِينِهَا بِالْبَارِقِ اللَّاحِ:

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّتِ الْبَرَاءُ فِي السَّقَمِ

فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُرُجَتْ مِثْلَ فَعْلِ الصَّبْحِ فِي الظُّلَمِ

وَأُنْثَى لَهُ كُلُّ هَذَا. والخمر ليس من أربه كما ينادى، ولا يهتز للأغاني فيما يقول:

أَصْخَرَةٌ أَنَا؟ مَالِي لَا تُخَرُّ كُنِّي هَذِي الْمُدَامُ، وَلَا تِلْكَ الْآغَارِيدُ؟

وكذلك لم يجد في دنياه صديقا يأنس إليه، ويستريح إلى صداقته، وكم

لقى من عنت الأيام ولوَّم الأنام! فهل في قلبه بقية لم يحوها الظلام؟ ثم إنه لم

يفسر إلا في نفسه وحقه على الدنيا، فيمر بكثير من المناظر لا يجود عليها بنظرة ولا التفاتة، كما تخرج إلى الشارع. تسعى لأمر يعينك أن ينتهي إلى تمام، فترى الأشياء ولا تراها، فإذا سئلت عن منظر في طريقك أنكرته، وغيرك يعرفه ويعيه، وفارغو البال من حولك يُسبِّهون^(١) في الطريق. ويقتلون البصر فيما وراء المعارض الزجاجية، من ثياب مطوية ومنشورة. إلى حلى براقه مصفوفة، إلى غيرها من كل ملهسي ومنظر (أنيق لعين (الفارغ) المتوسم) ومن هنا نرى حقيقاً باللوم من يلحى أبا الطيب، وينعني عليه أنه ورد مصر وتقياً في ظلها، فلم يظفر منه النيل بقصيدة، ولم تفر الأهرام منه بمقطوعة؛ فقد كان في مصر (كما يقول) حراً يتما بين عبدان ثام:

حَصَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَيْدِ كَأَنَّ الْحُرَّ يَنْتَهُمُ يَتِيمٌ
فلم يستروح نسيم الجمال في أفائها، ولا أحس فضل النيل على أهلها، كما أحسن ذلك أستاذنا (الشيخ عبد المطلب) رحمة الله عليه فقال:

يا نيل مصر سقينا ماء الحياة نмира
لولاك ما فاح النسيم بارض مصر عبيرا
والله لقانا بفضلك نضرة وسورا
لا زال فيضك جاريا بين البلاد غزيرا
يكسو الأباطح سندسا من نسجه وحريرا
فترى الرياض نضيرة وترى النبات نضيرا
أنواره زهر، تريك اللؤلؤ المنشورا
وما عرف فضل بناء الأهرام، ولا كان يعباً بجلالها، ولا يبالى ما تدل عليه، حتى يقول فيها ما قال البارودي وصبري وشوقي (رحمهم الله!)

وما نظنه أجاد وصف شعب بوان في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز،

(١) سهل: مشى في الطريق جيئة وذهوبا لغير عمل (يضرب بالطة) ومن كلام عمر رضى الله عنه: وإني لأكره أن أرى أحداً سبَّهلاً، لاني عمل دنيا ولا في عمل آخرة.

إلا متحسراً على مجد العرب ، الذى غلب عليه أولئك الأعاجم ، واستأثروا بهذه الجنة من جنات الدنيا وأمثالها دونهم ، فصار العربى فيها غريباً : وجهاً ، ويدا ، وكلاماً ! وتجده هذه الحسرة ظاهرة فى بعض لفتاته فى القصيدة التونية ، التى نروى لك صدرها هنا ، وفى تدبر هذه اللفظات مقنع أى مقنع :

مَنَانِي الشَّعْبِ طِيْبًا فِي الْمَنَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّيِّعِ مِنْ الزَّمَانِ
(وَلَكِنْ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ)
(مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانٌ ، لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ)
طَبَّتْ فُرْسَانَنَا وَالْخَيْلَ ، حَتَّى خَشِيتُ (وَإِنْ كَرُمْنَا) مِنَ الْحِرَانِ
غَدَوْنَا تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ (١)
فَسِرْتُ وَقَدْ حَجَبَنَ الشَّمْسَ عَنِّي وَجِئْتُ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا تَقْرَأُ مِنَ الْبَنَانِ

ولا بد أن نقف عند هذا البيت ، وتصويره ضوء الشمس إذ يتسلل من بين الورق المتراحم ، فيمثل الدنانير التى لا تستقر فى الكف ، بل تسرع هاربة من البنان ، ونرجع إلى بيت آخر فى مثل هذا المعنى ، وقد مرت لنا روايته فى حرياته :

إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

فانظر تجده مبدعاً فى كلا البيتين ؛ ولكنه تدارك فى بيت الشعب ما فاتته فى بيت الحرب ، من تسجيل حركة الضوء الدائبة ، لكثرة التذبذب فيما يحول دون الضوء ويحجبه ، من الورق هنا ، وريش القشاعم هناك ؛ وكأنه عاش ليستكمل هذا المعنى البديع فى خريف حياته ؛ ثم هنا ملاحظة أخرى ، وهى

(١) يقصد قطرات الندى ، فهى تحكى الجمان ، وهى حبات من الفضة مستديرة شبيهة بالؤلؤ .

غرامه بذكر الدراهم والدنانير ، التي يراها الطريق إلى المجد ، والوسيلة للمحافظة عليه .

ثم نعود إلى ما نحن بسيله ، فننقل بقية وصفه ولفاته :

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأُشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلَا أَوَانٍ

فهل تجد أحسن من هذا في وصف الثمار بركة البشرة ، حتى لتشف بشرتها عما تحتها من الماء ، كما ينم عليه صافي الزجاج ؟ ثم استمع إلى صلصلة الحصى تحت الماء الجارى ، الذى يدرجها ، ويمتزج صليلها بخبره

وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَايِ

وفيما يأتى يظهر التهمك هؤلاء الأعاجم ، الذين لا يستحقون السكنى حول هذه الجنة ، وفي طيات هذا الاستهزاء ، من التحسر آهات وأنات :

إِذَا غَنَّى الْحَمَامُ الْوُرُقُ فِيهَا أَجَابَتْهُ أَغَانِيُ الْقِيَانِ

وَمَنْ بِالشَّعْبِ أَخَوْجُ مِنْ حَمَامٍ إِذَا غَنَّى وَنَاحَ إِلَى الْبَيَانِ

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جَدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

ومن الخير أن يضم إلى هذه الآيات ، ذلك البيت الذى يسهم بشدة العجمة ، حتى إن سليمان لا يفهم عنهم ، ولا هم عنه يفهمون إلا بترجمان ؛ وأعجب من هذا كله أن المتنبي (وليس مثل سليمان) يفهم عن حصانه ، بل ينطقه بالشعر البليغ على لسان الحال إذ يقول :

يَقُولُ بِشَعْبٍ بَوَّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعْمَانِ ؟

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ الْمَعَايِ وَعَلَّامُكُمْ مُفَارَقَةُ الْجِنَانِ !

وكما يشير إلى حسرة اللاذعة وألمه الدفين بيت (ولكن ..) يحلوها هنا واضحة على لسان الحصان . (أعن هذا ؟) ، (سن المعاصي) ، (مفارقة الجنان) إن هذه الكلمات لتفيض بالآنين ، وتصد لبيب الزفرات ، وتموج بمتوقد اللوعات !!

على أنه في هذه القصيدة يتمنى أن لو كانت هذه المغاني (هى دمشق) إذن
لكان له فيها شأن غير هذا الشأن، فدمشق مستقر العرب الأجداد، ومنازل
الأسخياء الأجواد :

وَلَوْ كَانَتْ دِمَشْقُ ، ثَنَى عَنَانِي لَبِيقُ الثُّرْدِ صِدْيُ الْجِفَانِ ^(١)
يَلْنَجُوجِي مَا رُفِعَتْ لِضَيْفٍ بِهِ النَّيْرَانُ ، نَدَى الدُّخَانِ ^(٢)
فهو يستكثر هذا النعيم على أبناء العجمة ، ويود لو انتقل ما عندهم من الخير
لأبطال العروبة .

ولقد نراه مع هذا قد جاوز في هذه النونية حدود الإبداع والإتيقان ، وبث
كل مافي نفسه من هموم وأشجان ؛ فوق أيا توفيق ، وأبدع ما شاء له الإبداع ؛
فلو صفا له الجو ، ونال ما يرجو من المطالب ، وعاش في الحواضر عيش الحضري
المهنا النفس ، الناعم الحال ، الهادى البال - لرجونا أن تجلو شاعريته بحسن
الحضر ، ومنظر السماء والسحاب والمطر ، والبساتين النواضر ، غب الغمام
المواطر ؛ ولتوقعنا أن يحود على هذه النواحي التى أهملها باوصاف تشفى الآذان ،
وتزرى بنغمات الأوتار والعيان ، وتفوق ألحان الأطيوار ، فى نسائم الأسحار .
فلقد فاتنا من سحر أبى الطيب وإبداءه فى فنه خير كثير . إنه نزل لبنان وعاش
فيها زمنا ، ولكن لم يكن كالمرحوم شوقى بك مصطافا للذة والمتاع ، والاحتفال
بحسن المناظر ، واهتبال النهضة لاجتلاب السرور ، بين إخوان له مكرمين ،
وعلى راحة نفسه حريصين ، فلذلك لم يكن يهش لها حتى يقول مثل شوقى فى
قصيدته الثائية مثلا ، ومطلعها :

السحر من سود العيون لقيته والبالي بلحظهن سقيته

(١) لبيق الثرد : حسن الثريد

(٢) الينجوج عود يتبخر به ، وكذلك الند ، ومعنى النسب إليهما : أنه يوقد النار
للضيقات بذاك العود ، ودخانها يساعد رائحة الند .

إذ يقول منها:

لُبْنَانُ وَالْخُلْدُ اخْتِرَاعُ اللَّهِ ، لم يُوسَمَ بِأَزِينٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
وَكَانَ أَيَّامَ الشَّبَابِ رَبُوعُهُ وَأَكَانَ أَحْلَامُ الْكَعَابِ يَبُوتُهُ
وَكَانَ رِيغَانُ الصَّبَا رِيحَانُهُ سر السرور بجوده ويقوته (١)
وَكَانَ أَثْدَاءُ الْكَوَاعِبِ تِينُهُ وَكَانَ أَقْرَاطُ الْوَلَائِدِ تَوْتُهُ

وهذا شعر ينم على شعور بالنعمة عميق، وحب للطبيعة الجميلة شديد، ونفس فرغت (ولو إلى حين) من هموم الحياة إلى اللذة والمتاع؛ بل أكاد أقسم: تالله ما هذا شعرا؛ إنه هو إلا مداعبة لطفلة مضحك لعوب، وتدلّيل لطفل غرير بسام، ومناغة عذبة، ما أحلى وقعها في الأذان، وما أخف ألحانها على القلوب والنفوس. أما المتنبي فقد نزل لبنان نزول الرعيان، وقطاع الطريق ورجال العصابات في ذلك الزمان؛ وإنه ليحدثنا عن هذا في قصيدة له يمدح بها عضد الدولة، ويستعيد ذكريات لبنان وقد بعد عهده بها، والذكريات (جميلة أو غير جميلة) عزيزة على النفس، حبيبة إلى القلب، كأنها أفلاذ الأكباد:

أَحِبُّ رَحْمَةً إِلَى خُنَاصِرَةٍ وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ مَحْيَاهَا
حَيْثُ التَّقَى خَذَهَا وَتَفَاحُ لُبْنَانٍ وَتَغَرَّى عَلَى مَحْيَاهَا
وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ بِالصَّحَّاحَانِ مَشْتَاهَا
إِنْ أَغْشَبَتْ رَوْضَةً رَعَيْنَاهَا أَوْ ذَكَرَتْ حِلَّةً غَزَوْنَاهَا
أَوْ عَرَضَتْ عَانَةً مُقَرَّعَةً صَدْنَا بِأُخْرَى الْجِيَادِ أَوْلَاهَا (٢)
أَوْ عَبَّرَتْ هَجْمَةً بِنَا تَرَكْتُ تَكُوسُ بَيْنَ الشُّرُوبِ عَقْرَاهَا (٣)

(١) بجوده: يطره من جاده، مثل جادك الغيث... ويقوته: يطعمه.

(٢) العانة: القطيع من حمر الوحش - مقرعة: مفرقة كالقزع، وهي قطع الحجاب.

(٣) الهجمة من الابل: ما بين السبعين إلى المائة - كاس البعير يكوس: مشى على

وَالْخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ تَجْرُ طُولِي الْقَنَا وَقُصْرَاهَا^(١)

فكيف نطلب إليه (بعد ذلك كله) أن يحول بصره عن البادية وخشوتها ، إلى الحياة الناعمة اللينة ؛ ليجلو علينا مباهجها ، ويبرز لنا محاسنها تترأى في حلة من الشعر مزدانة ، وتختال في معرض من التصوير يأسر الألباب ؟ أرأيت نجد يا يصف غابات الهند ؟ أم هل سمعت قطييا يتغزل في شمس خط الاستواء ، وألوان الطيف منها عند مساقط الماء ؟ ... لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

— ٨ —

وإن تعجب فعجب أن المتنبي (على براعته) قد يهرب من الوصف حينما يطلب إليه ؛ ولعلك تحسب هذه الدعوى منا جرأةً وتقنياً عليه ؛ ولكن لا تعجل ولا تذهب مع بعض الظنون ، فقد نسوق إليك البرهان ، ونحاول تعليل ذلك بدواعي الاطمئنان :

(١) إن كافورا بنى دارا ، ورغب إلى أبي الطيب أن يذكرها في شعره ، والذي أستطيع فهمه في مثل هذا المقام أنه يطلب وصف الدار بذكره محاسنها ، أما التهئة بها ، والدعاء للباقي بطول البقاء والتمتع بها ، وإنشاء أمثالها ، فكل ذلك يحى عرضا في حواشي الغرض ، والوصف هنا هو عمود الكلام — . فماذا فعل أبو الطيب ؟ إنه زاغ من الوصف ، إلى وربك ؛ ولا وحرمة الأدب ما سخت شاعريته لها عن شطر واحد ، بله البيت والآيات !! ولكنه وقف يتهم بكافور ويضحك منه ومن سواد لونه ، بذلك النوع الخبيث من المديح ، في قصيدة همزية مطلعها :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلْأَكْفَاءِ وَلِمَنْ يَدْنِي مِنَ الْبُعْدَاءِ
وَأَنَا مِنْكَ ، لَا يُهْنِي عَضْوُ بِالْمَسَرَّاتِ سَائِرَ الْأَعْضَاءِ

(ب) وقد مد نهر حلب حتى أحاط بدار سيف الدولة ، فماتتدى لسان

ثلاث والرابعة معقورة - الشروب : جمع شرب : جمع شارب ، أى شاربى الخمر -
العقري جمع عقير ، مثل قتلى وقتيل .

(١) الطولى والقصرى : أنشأ أطول وأقصر

صاحبنا بقطرة واحدة في وصف هذا المنظر، بل انطلق يرتجز ارتجالاً، في نفس ليس بالقصير، واتخذ المدّة توكأة ومعتماً، كي يقول في مدح البحر الأكبر الذي يزرى بالبحار؛ وصار يظن الماء، يزاحمه في طلب العطاء؛ أو يريد مباراة الممدوح... الخ

حَجَبَ ذَا الْبَحْرِ بِحَارٍ دُونَهُ يَذُمُّهَا النَّاسُ وَيَمْحَدُونَهُ
يَا مَاءُ هَلْ حَسَدْتَنَا مَعِينَهُ؟ أَمْ اشْتَهَيْتَ أَنْ تُرَى قَرِينَهُ؟

(ح) ونثر عضد الدولة في مجلسه ورداً، وأبو الطيب حاضر، فبدأ شعراً في المدح وأتمه بالمدح، ولم يعرض للورد إلا بيت واحد، وهو على ذلك غث بارد لا روح فيه:

كَأَنَّمَا مَائِجُ الْهَوَاءِ بِهِ بِحَرْ حَوَى مِثْلَ مَائِهِ عَنَمَا

(د) وأحضر له أبو العشائر جوشنا (درعا) وقال: كيف تراه؟ والمراد بالطبع أن يصف، فارتجل بيتين كأنهما ليسا من شعر المتنبي، يقول فيهما: إن من يلبسه يأمن على نفسه بين الصفوف، وينصح لأبي العشائر أن يتركه، فإنه من قوم تغنى شجاعتهم وسلاحهم عن الدروع.

فاذا عرض للوصف في مثل هذه الأحوال، كان فاتراً لا تماسك به ولا غناء (١) أحضره أبو الفضل بن العميد بحجرة محشوة بالترجس والآس، والدخان يخرج من خلال ذلك، فقال فيها:

أَحَبُّ أَمْرِئٍ حَبَّتِ الْأَنْفُسُ وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهُ مَعْطِسُ
وَنَشَرٌ مِنَ النَّدِّ لَكِنَّهُ بِجَامِرُهُ الْآسُ وَالْتَرَجِسُ
وَلَسْنَا نَرَى لَهَا هَاجَهُ فَهَلْ هَاجَهُ عِزُّكَ الْأَقْمَسُ؟
وَإِنِ الْفِتَامَ الَّتِي حَوْلَهُ لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الْأَرْؤُسُ

الفقام : الجماعة ونراه هنا من الموصوف مسا خفيفا ، وحفه بالمدح من بين يديه ومن خلفه ، والمبالغة السخيفة ، فقال (كما في الشرح) إن الروم تحسد الأرجل لقيامها في خدمة الممدوح .

(ب) وناوله محمد بن طنج سيفاً ؛ فأشار الشاعر به إلى بعض الحاضرين قائلا :
أَرَى مُرْهَفًا ، مُدْهِشَ الصِّقْلَيْنِ وَبَابَةَ كُلِّ غُلَامٍ عَنَّا ^(١)
أَتَأْذُنُ لِي (وَلَكَ السَّابِقَاتُ) أَجْرُهُ لَكَ فِي ذَا الْفَتَى ؟
(اطلع يا قاتل !)

وإنك لتراه في أكثر ما سبق غير مخلص لفنه من الوصف ، فلا يرضى الناحية الفنية بقدر ما ينبغي رضا ممدوحه ؛ ويتخذ الحادث سلبا لإرضاء نزعهم إلى المدح ورغبتهم فيه ، ولعله كان يعرف فيهم هذه الرغبة ، فيضحي بالفن الخالص في سبيل تملقهم ؛ وقد تحيرت في تفسير هذه الظاهرة ، حتى هداني أبو الطيب نفسه إلى هذا التعليل ، فإنه حضر عند بدر بن عمار وهو على الشراب ، والفاكهة حوله ، فقال فيه مدحا جاء في تضاعيفه :

بَابِي رِيحُكَ ، لَا نَرَجِسُنَا ذَا وَأَحَادِيثُكَ ، لَا هَذَا الشَّرَابُ !
أما الغريب حقا فهو أن يطلب إليه سيف الدولة وصف حصان لكي يهديه إليه ، فلا ينشط للوصف ، ولا يجيء إلا بثلاثة أبيات فائية : أولها مدح ، وفي ثانيها إجمال لوصف الحصان بلفظ (مطهم) والثالث تفويض الأمر إلى الأمير فيما يختار مع شيء من المديح .

— ٩ —

والظاهر أن المتنبي كان متكبرا واثقا بنفسه ، فلا يهتز لمثل هذه الأمور ؛ فقد أحضر له بدر بن عمار (بمشورة عدوه الأعور ابن كرّوس) لبة في مجلسه ليختبر بداهته وسرعة خاطره ؛ وهي ذات شعر ، وفي يدها طاقة ريحان ، وتدور

على رجل واحدة، فارتجل فيها ثلاثة أبيات من بحر؛ ثم ثلاثة من بحر آخر، يغلب على الجميع المدح والوصف المعنوي، وقد كان فطن للاختبار، فسأل بدرًا في ذلك، فقال: أردت أن أنثى الظنة عن أدبك، فقال بيتين نروى ثانيهما الذي يفيض ثقة بالنفس:

إِنِّي أَنَا الذَّهَبُ الْمَعْرُوفُ مُخْبَرُهُ يَزِيدُ فِي السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارًا ١١

وهذا يذكرني موقف ابن حمديس الشاعر من ابن عباد الملك: دخل عنده لأول مرة فأجلسه، وأمره أن ينظر من نافذة وراءه، فرأى نارا مشبوبة وراء طاقين مفتوحين، وقد جعل الموكل بها يقفل كلا من الطاقين، ثم يفتحه على التبادل، ثم ترك أحدهما مفتوحا تترامى منه النار، والآخر مقفلا يمنع ضوءها، فقال ابن عباد: أجز

انظرهما في الظلام قد نجما فأجاب: كما نأ في الدُّجَّةِ الأسدُ
فقال:

يفتح عينه ثم يقفلها (١) : فعل أمرى في جفونه رمد
فقال:

فابتزه الدهر نورًا واحدة : وهل نجم من صروفه أحد؟
فهل لنا أن نفضل ابن حمديس على المتنبي بسرعة البديهة والاجادة في الوصف بديها؟ إن موقف ابن حمديس يدعو حقا إلى الإعجاب، يجيب بسرعة على وزن لغيره لا خيار له فيه، والمتنبي في مثل موقفه مطلق حر الاختيار، ويتبدل عن الوصف، ويستن في ميدان المديح ١١

لكن لا يفوتنا أن الشاعر الصقلي ورد ساحة ملك شاعر، راجيا الخطوة عنده، ولا وسيلة له ولا شفيح يكشف عن مكاته للملك، وهو بعد لا يعرفه،

(١) يريد يقفلها - والشيطان إذا اصطحبا وقام كل منهما مقام صاحبه، جرى عليهما كثيرا ما يجري على الواحد. قال الشاعر:

لمن زحلوة زل بها العينان تنهل؟

راجع تنبيه البكري على أمالي القالي ص ٣٩ طبع دار الكتب المصرية

فكان هذا داعية الإبتقان ، أما أبو الطيب فكأنما يرى مختبريه أطفالا ، وبحسب كلامهم نقيق ضفادع ، فلا يابه لهم ولا يبالهم . وهو بعد مولع بالحرب وأسباب المجد ، فلا يصرف همه إلى مثل هذه الصغائر ، التي يراها لونا من العيب ، وضربا من فضول العقل واللسان . رأى في يد أبي العشائر بطيخة سوداء حولها قشر من الخيزران ، والظاهر أنها نوع من اللعيب التي كانت تعرض له في مجالسه ، فقال :

مَا أَنَا وَالْخَمْرَ وَبَطِيخَةً سَوْدَاءَ فِي قَشْرِ مِنَ الْخِزْرَانِ ؟
يَسْغُلْنِي عَنْهَا وَعَنْ غَيْرِهَا تَوَطَّيْنِي النَّفْسَ لِيَوْمِ الطَّمَانِ !

ودخل عند أبي العشائر أيضا ، فوجد بين يديه من ينشد ، قصيدة وصف لبركة في داره ، فأنف لأبي العشائر أن يُلقي السمع لمثل هذا الهراء ؛ وأبدى رأيه جليا فيما يحسن فيه الكلام ، وما يليق به الترك والإهمال ؛ فاستمع لما ينشد مرتجلا :
لَئِنْ كَانَ أَحْسَنَ فِي وَصْفِهَا لَقَدْ تَرَكَ الْحُسْنَ فِي الْوَصْفِ لَكَ
لِأَنَّكَ بَحْرٌ ، وَإِنَّ الْبَحَارَ لَتَأْنَفُ مِنْ مَدْحِ هَذِي الْبِرْكِ !
وإن هذا وحده ليفسر لنا إغراضه عن الوصف إلى المدح في أكثر الأحوال .

— ١٠ —

وقد آن لنا أن نراجع بعض لفتاته في الوصف ، وإنها لكثيرة في شعره بجميع ضروبه ، وقد لاحظنا أن هذا الضرب لا يخلو منها ؛ وقد مر بك في صدر المقال (عند وصف الحصان) أنه يشكو قلة الأصدقاء المخلصين الأوفياء (وما الخيل إلا كالصديق قليلة) ، ويرشد بعد ذلك إلى الحذر من الاغترار بالظواهر ، ويوصيك بالتغلغل وراءها . لتدرك مبلغ صدق عنوانها على باطنها (إذا لم تشاهد ...) وكأنه يضرب ذلك (في الخيل) مثلا لحكم عام يجعله ميزانك في كل الأمور .

وقد رأيت كثيرا من هذه اللفات في وصف شعب بوان ، وعرضنا ثم ليان مصدرها وموردما ، أما الذي مر في وصف الأوعال ، والضحك والالضحك

من لحاها ، فلعله يقصد به إلى قوم بأعيانهم ، قد اتخذوا مظاهر التقوى والصلاح جُنة لهم يستدفعون بها انتقاد الناس ، ويظهر أنه كان يطلع على خاتمة منهم ، فليس هو بالذي يغره الغلاف ، فتخذه زينتته عن استبطان صحائف الكتاب ، والتفتيش عما وراء السطور والكلمات ، وأكبر الظن أنه يريد بعض من يدعون للعلوية ، وليسوا منها ولا قلامه ظفر ، لا عملا ولا نسا ولا خلقا ، يضاف إلى هذا التفاتيه إلى ذيل الكلب في أرجوزة الطرد : (يَخُطُّ فِي الْأَرْضِ حِسَابَ الْجُمْلِ) والذين يدعون العلوية يزعمون أن عليا (كرم الله وجهه) كان عالما بكل الحوادث المنتظر وقوعها ، وأودع علمه ذلك (كتاب الجفر) الذي يحوى عبارات رمزية ، لا تلقى إليك بأسرارها ، حتى تعالجها علاج الرموز ، بوضع الأرقام والأعداد موضع الحروف والكلمات ، ثم تستشف ما وراءها من تواريخ ، ووقائع ، وأعلام أشخاص ، وأسماء أماكن وبُلدان . ويصطنعون حساب الجمل لمعرفة تلك الأمور الغيبية من صعود ونحوس ، وإقبال وإدبار ؛ ولا شك أن المتنبي كان يتحرق على هؤلاء الأدعياء غيظا ، ولعلهم هم الواترون ، وهو المواتور ألا ترى إلى أوضح التفاتة في وصف بحيرة طبرية :

يَشِينُهَا جَرِيْمُهَا عَلَى بَلَدٍ بِشَيْنِهِ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَزَمُ

وأوضح من هذا قوله في موطن آخر (يقصد طبرية)

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً بِهَا عَلَوِيٌّ (جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ)

ويقول في قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

-- ١١ --

ولأبي الطيب (بعد هذا كله) أوصاف تتصل بالنزل . وقد أبدع في أكثرها ، وجاء فيها بفتة القلوب والأسماع ، وإنا لنثبت بعضها مستغنين بالطل عن الويل . قال في خصر جميل يحثب العيون من حوله ، فثبت فيه ولا تتحول عنه كأنها عليه نطاق :

وَحَصْرُ تَنْبُتِ الْأَبْصَارِ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نِطَاقَا

وينظر إلى غانية يزين التثني والبخترية مشيتها فيقول :

كَأَنَّمَا قَدْ هَا إِذَا انْقَلَّتْ سَكْرَانُ مِنْ خَمِرِ طَرَفِهَا تَمِلُ

وكان ابن زيدون قد لمح هذا البيت حينما قال فأحسن في السبك :

ما للهدام تُديرها عينك فيميل في سكر الصبا عطفاك ؟!

ويقول في حسن التبخر مع نعومة الجسم وجمال الثغور :

حِسَانُ التَّثْنَى، يَنْقُشُ الْوَشْيُ مِثْلَهُ (إِذَا مِسْنٌ) فِي أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَيَنْسِنَ عَنْ دُرِّ تَقْلَدَنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِي زُنُتَ بِالْمَبَاسِمِ^(١)

انظر كيف يترك الوشي شبيه صورته في تلك الأجسام الناعمة ؟ وله في

موقف وداع :

وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا حَسَنُ الْغَزَاءِ (وَقَدْ جُلِينِ) قَبِيحِ

فَيْدٌ مُسَلِّمَةٌ، وَطَرَفٌ شَاخِصٌ وَحَشَا يَذُوبُ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحٌ !!

وفي موقف مثله أيضا :

حُشَاةٌ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ : أَيْ الظَّاعِنِينَ أَشِيْعُ ؟

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ، فَجَدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْآمَاقِ، وَالسَّمُّ أَدْمَعُ !^(٢)

— ١٢ —

ولقد أتى بالبارع الباهر في الأوصاف المعنوية، وعواطف النفوس وما يصدر عنها ؛ فمن ذلك وصفه لموقف سيف الدولة في الحرب : هادئا والموت

(١) التراقي : جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر ومنه قوله تعالى : حتى إذا بلغت التراقي .

(٢) السم : لغة في الاسم ، وميمه مخففة ؛ والسين مثلثة

يَتَخَطَفُ الْأَرْوَاحَ مِنْ حَوْلِهِ، بِاسْمِهَا وَالْأَبْطَالُ يَمْرُونَ بِهِ عَبَسَ الْوَجْوهُ؛ وَهُوَ
مَتَعَالَمٌ مَشْهُورٌ. وَمِنْهُ أَثَرُ الْوَهْمِ فِي النَفُوسِ، كَمَا يَصُورُ هَرَبَ الدُّمُسْتَقِ:

وَلَكِنَّهُ وَلَّى، وَلِلطَّمَنِ سَوْرَةٌ إِذَا ذَكَرَتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الْجَنَبَا

وكذلك هرب بنى تميم، وضيق الأرض بهم، أمام جيش سعيد بن عبد الله
ابن الحسن الكلابي، فالوهم يخلق لهم أشباحا، فينفخ فيها قصير رجالات:

وَصَافَتْ الْأَرْضُ، حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

وما أجل وصفه للحب، إذا تردد بين خوف القطيعة ورجاء الوصال:

وَأَخْلَى الْهَوَى: مَا شَكََّ فِي الْوَصْلِ رَبَّهُ

وَفِي الْهَجْرِ: فَهَوَ - الدَّهْرَ - يَرْجُو وَيَتَّقِي

ويصف بعض ممدوحيه بالوقار مع خفة الروح، ويعجب من اجتماع هاتين

الخلتين عجا يذهبك إلى جمال البيت:

يَرُوعُ رَكَاةً، وَيَذُوبُ ظَرْفًا فَمَا نَذَرِي: أَشَيْخٌ أَمْ غُلَامٌ؟!

ومثله في الجمع بين وصفين متباعيين، جمعه بين الحياء الخجول والشجاعة

المتجهم:

نُصِرُّهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً وَتَذُبُّ عَنْ وُجُوهِهِمُ السَّهَامُ

.....

حَيِّوْنَ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِي نِزَالِهِمْ أَقْلُ حَيَاءٍ مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ

وفي خوذ بمنعة بصواة أهلها وحمايتهم لها يقول:

بَيْضَاءُ، تُطْمِعُ فِيمَا تَحْمُ، حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طُلِبَا

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ: يُعْنِي كَفَ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا، وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وفي أخرى مثلها:

فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرُ السُّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا
ووصفه الحمى التي أصابته بمصر أبلغ تصوير في أبدع طراز :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءَ فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَاقَبَتْهَا ، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ جِسْمِي وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَّلْتَنِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصَّبِيحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي مَدَامِهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامِ
أَرَأَيْتُ وَقْتُهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقِبَةَ الشَّوْقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا ؛ وَالصَّدْقُ شَرٌّ إِذَا الْفَالَكُ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ

وهذه القطعة الفنية غنية بنفسها عن التعليق ، تسبق معانيها إلى الأذهان .
الفاظها إلى الآذان . ولكن انظر إلى إبرازه الصورة المعنوية ، بحيث ترى
ملبوسة محسوسة . ألم يخدعك أبو الطيب : فتصورت عادة حسناء ، تسعى إليه
تزوره على استحياء ، فتدفع لذلك جلباب الظلماء ، خوفا وخفية من أعين
الرقباء ؛ حتى إذا أقبلت استقبلها مرحبا كالمشغوف بها ، وقدم إليها الفرش
والغطاء ؛ ولا تزال به منخدعا حتى ينهلك إلى الحقيقة من طرف خفي ،
إذا أبت الزائرة المطارف والحشايا ، وباتت منه في العظام . وحينئذ فقط تدرك
الحديعة ، وتعرف الحقيقة ، وتعلم ما كان من قبل يريد .

وما أنس من شيء لا أنس وصفه لتيه الأسد وثقته بنفسه ، إذ يشي على
الأرض متمهلا ، كأنه يريد أن يشعرها بمشييه فوقها ، لتأخذ حذرها ، فلا يأخذها
مينا ولا اضطراب :

يَطَأُ الثَّرَى، مُتَرَفِّقًا، مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ آسِي يَجْسُ عَلِيلاً
فما قرأت هذا البيت، أو سمعته، أو تدبرته، إلا ذكرت منظرًا شديداً به،
لنمر بإحدى غاب الهند، تراءت صورته على سبيل الخيالة، فشاهدته يمشي هادئاً
مترفقاً، يمد قوائمه إلى الأمام، وينقل الخطو بانتظام، كأنما يوقع الخطأ على
أوتار العطرسة في نفسه والكبرياء، وعينه تجول حوله، غاية في الهدوء ونهاية
في السكون.

هذا إلى وصفه الزمان وتقلبات الأيام، بما لا يتفق مثله لكثير من الشعراء.

— ١٣ —

وبعد: فإني قدرت لهذا الموضوع (حين استقبلته) كراسة أو ما يدانيها،
فلما أقبلت أجيل الرأي فيه، تشعب أمامي وتباعدت نواحيه، فما زلت به أروض
نوافره، وأجمع متفرقه، حتى استقادت وتدانت أطرافه، وفي نفسي أني ما شفيت
منه نفسي، فقد كنت آمل أن أجلو منزلة المتنبي في الوصف بين الشعراء الوصافين،
بطريقة يسندها البرهان، ويطمئن لها العقل والوجدان. ولكنني رأيت ذلك
محتاجاً إلى تأليف كتاب ضخم، يتناول جل وصف المتنبي، وكثيراً من وصف
سابقه ولاحقه: عرضاً وتحليلاً، ونقداً وموازنةً وتعليلاً، حتى نتبين مبلغ
تأثيره السابقين، ومقدار تأثيره في اللاحقين، فهل إلى ذلك من سبيل؟ إن قلبي
يحدثني بمحاولة هذا الكتاب، فيما يستقبل من الزمان، فعسى الله أن يصرف
الشواغل، ويرزقني التوفيق فيما أحاول؛ فإنه (تعالى) هو الموفق والمستعان.

المنولى قاسم

شدوذ المتنبي

بقلم الأستاذ محمود مصطفى

مدرس الآداب في كلية اللغة العربية بالازهر

- ١ -

الشدوذ هو الخروج عما ألف : من خلق ، أو عادة ، أو شكل في صورة ، أو قول . هذا هو مصداقه في جميع العلوم والفنون ، وهو بهذا الإطلاق يشمل الخروج مرضيا ومسخوطا ، ومقبولا ومرفوضا ؛ ولكن الاصطلاح يخصه بما ينبو عنه الطبع ، على حين يحبو الجانب الآخر بالألفاظ الجميلة ، فيقول الناس عن الرجل الذى يفوق الرجال : إنه نابغة ، وعبقري ، ونسيج وحده . كما يقولون عن الخلق إذا ارتقى في مدارج الكمال : إنه الكمال المطلق ، والشرف الباذخ .

بهذا اتضح مرادنا من شدوذ المتنبي ، فتحسن نريد أن نحصى عليه بعض عيوبه ، وأن نعد عليه من ذنوبه : نريد أن نحاسبه . فهل يتفق هذا المنحى مع ما اندفع فيه أهل جيلنا من إطرائه إطراء لا يشوبه تنقص ؟ هل يوافق هذا المنحى إحياء ذكرى المتنبي لمرور ألف عام على وفاته ؟

رأينا الناس في مصر وغيرها قد طلّعوا علينا بمجالس جلسوها ، ومحافل أقاموها ، وكتب أصدروها ، في شأن المتنبي ؛ ولا تكاد تجد فيها إلا إطراء والاندفاع فيه ، والتحبيذ والتقصي له : فالمتنبي شاعر العربية ، وهو شاعر الحكمة وشاعر النفس المتوثبة ، والهمة التي لا تعرف الانخزال ، بل هو شاعر الحياة ، هو الشاعر الخالد ، والشاعر الذى لم تلد الأجيال مثله . . .

قد تجتمع في امرئ صفات من الكمال ، وقد تتعدد هذه الصفات تعددا ظاهرا ، ولكن الانصاف والنقد الصحيح ، يوجبان على الناقد ألا يغفل المعايير

إذا هو استقرأ المحاسن؛ فإن في غوى عمله إشعاراً بخلو ممدوحه من العيوب، وهو أمر أجمع الناس على استحالة فيما خلا الله سبحانه وتعالى.

لقد هالني أن رأيت معاصريّ قد نسوا أول شرط من شروط النقد، وهو وزن الحسنات بالسيئات، وهم حين كانوا ينقمون هذه الخصلة، كانوا يلصقونها بالمتقدمين إلصاقاً، ويعلم الله أن المتقدمين يضربون لنا بحديثهم عن الرجال أرقى مثل للنقد، وأشرف منزع له؛ ولكنتا نرميهم بدائنا الذي تجلى في إحيائنا لذكرى المتنبي!

طغى على أفهامنا خطأ أن إحياء الذكرى بمثابة التأين للبيت، أو التكريم للحى، وأنه لا يجتمع في الذوق أن يدفعنا الإعجاب بالرجل إلى إحياء ذكراه، ثم نشوب ذلك بذكر مآخذ عليه. هذه هي الفكرة التي طغت على أدباء العصر في هذه السنة التي استنوها، ولكنهم سجلوا فيها على أنفسهم عيباً لا صفاً. إن الذي أفهمه من إحياء الذكرى هو جملة معان تتسامى وتلاحق في نفس المحيين لهذه الذكرى: أولها الاعتراف بالوجود لهذا المحتفل به، ثم الإحساس بأنه جدير أن يشغل الناس بالحديث عنه؛ فحين نحتفل بالمتنبي اليوم بعد مرور ألف عام عليه، نعترف بأن المتنبي كان من رجال العهد الماضي الجديرين بأن نحس بوجودهم؛ فكم كان عصره يموج بالناس، ويعج بالآحياء؛ ولكن المتنبي من بينهم في باب الشاغرية هو الذي استرعى أبصارنا. وشغل أفكارنا، فنحن نخصه من بين عُشَرائه وأهل زمانه بأن نفرده بالحديث. وهذا المعنى من التكريم سام تتطال إليه الأعناق فلا يناله إلا مثل المتنبي.

تكريم المتنبي قد تم في عقد المجالس. وجمع المحافل، وإصدار الأعداد الخاصة من المجلات في الحديث عنه؛ ولكن ذلك لا يمنع أن يكون ذلك الحديث جارياً على أصول النقد، مستوفياً لشروطه.

إلى جانب هذه المعاني في إحياء الذكرى، معنى آخر أعود على المحتفلين بها: هو تصوير ما تهاى لهم من أسباب الفهم والحكم، والدلالة على ما وصلوا إليه في مرتب الأدب من منزلة يغتبطون بها، فهم يقولون لمن سيري بجهودهم

في تمحيص حياة المحتفل به : إننا قد وصلنا إلى هذا الحد من البحث والتنقيب واستشفاف الحقائق من وراء الحجب ، وإنطاق الآثار بما أضمر فيها أصحابها من معانٍ ودلالات ، يعرضون ذلك مدلتين به ، وبما صار لهم من صبر في البحث ونفاذ في شعابه ، وهم إذا أرادوا أن يمثلوا عصرهم أتم تمثيل ، نحواً جانباً أحكام السابقين وآراءهم في أقوال المحتفل به ، ثم أقبلوا على هذه الأقوال يفهمونها بفكرهم الجديد ، واستعدادهم المهيأ بغير وسائل القدماء ، فأبرزوا صوراً من الفهم ، وجلّوا طرفاً من الاستدلال ، وحكموا أحكاماً أدت بهم إليها أسباب لم تنهياً لغيرهم ؛ فتزيد بذلك ثروة الأدب ؛ ونجد عن المتنبي - مثلاً - صورتين جليتين واضحتين : صورة انطبع فيها العصر القديم بهماله وما عليه ؛ وصورة أظهرت عصرًا يختلف عن القديم في كثير من مظاهره ؛ ثم إذا جرى الخلف على سنة السلف ، وجاء عصر يمتاز عن عصرنا ، وصار لجيله فهم غير فهمنا وحكم غير حكمنا ، وكان له استقلال غير استقلالنا - رأينا صورة ثالثة ، ولا شك أن هذه ثروة تتضاف للأدب فينمو على مر الأيام وبذل الجهود .

من أجل ذلك أردت أن أتناول من المتنبي ناحية لا ينكرها أحد ، ولا يستطيع أن يدفعها عن المتنبي متعصب له ، مهما بلغ به تعصبه ؛ تلك هي شذوذه ولم أرد أن أحده بقول أو فعل ، بل سأجعله عاماً يتناول جميع حالاته . سأتناول شذوذ المتنبي : في خلقه ، ورأيه ، وعبارته ، وما أدعى أني بذلك سأخلق بحثاً لم يتناوله الأقدمون ، ولكنني أرى أن الانصاف للتاريخ ولنفس المتنبي لا يكون إلا بجمع عيوبه إلى محاسنه ؛ ووزن فضائله بنقائصه .

أسباب الشذوذ في المتنبي :

حياة المتنبي في متناول كل أديب ليس فيما روى عنها بُعد عن أيّ مطلع ؛ لأن حياة المشهورين تبرز في المتداول من الكتب ، وما كان في زاوية منها بعيدة عن الأنظار حيناً ما ، قد أظهره تتبع الناس لأخبار هؤلاء المشهورين وتقصيلهم لمجرى حياتهم ، فلنظمئن إلى أن كل ما يروى عن المتنبي من حياته وشعره ومأثور كلامه ، في متناول كل يد الآن ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون

ذلك المروتى ليس بالثابة التى تظهرنا على المتنبي طفلا وغلاما ويافعا ومراهقا؛ كما أننا لا نطمع منها أن تبرز لنا بيته ونصيب أمه وأبيه من الذكاء وحالهما من الثروة، وكيف تهيات لهما تنشئته على ما يريدان له من الثقافة .

هذا السبب أو النقص فى حياة المتنبي، ليس نقصا طارئا فى الأدب العربى خصت به حياة المتنبي مصادفة واتفاقا؛ ولكنه شئ يعم الأثرية من الذين يهمننا معرفة حياتهم بالتفصيل؛ فأبو تمام، والبحتري وغيرهما من شعراء وكتاب بل ملوك وسلاطين، يعوزنا ما يحتاج إليه البحث الحديث من تفصيل لحياتهم الأولى، أليس هذا الغموض هو الذى أساغ لبعض الحاقدين على المتنبي أن يدعى أن أباه كان سقيا، وأنه انتقل به من الكوفة إلى الشام؟

أو ليست هذه التهمة نفسها، أو ذلك النبز بعينه، هو الذى رمى به أبو تمام حين قالوا: إنه كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط؟ وإن فى اختيار سقاية الماء حرقة لكل مجهول الحرقة، لمعنى يدل على أن هذا المدعى حين أراد قبولاً لدعواه، واستساعة لتهمة، التمس الحرقة الشائعة الكثيرة الرواية فى تلك العصور، حين لم تكن وسيلة إلى الماء إلا تناوله من مجاريه بالقرب، وتوزيعه بعد ذلك فى الأنحاء القرية والبعيدة؛ فلا شك أنها حرقة كثيرة المحترفين، لا يخلو منها بلد من بلاد الله إذ ذاك، ولا بد أنها كانت من الكثرة والشيوع بحيث هانت وهان أصحابها على الناس، فصارت دعواها مقبولة فى كل إنسان لا تعلم حرقة بالتحقيق. ثم حملت مع ذلك هذا النقص الذى جره شيوعها وكثرتها وهوانها على الناس. ومن هنا دخل الشاعر إلى هجاء أبي الطيب بقوله:

أى فضل اشاعر يطلب الفضل من الناس بُمُكْرَةٍ وعشياً؟

عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء،، وحيناً يبيع ماء المَحْيَا!

من أجل هذا الغموض فى حياة المتنبي الأولى لا نستطيع أن نستنبط أو نغلل ما صار إليه فى مستقبل أمره، كما جرت عادة الباحثين فى أيامنا. ولو أن هذه الحياة كانت مبسطة أمامنا، مبصرة لنا نراها رأى العين، ما استغنا أيضا

أن نكون كهؤلاء الذين يؤمنون بالإيمان كله بصلة النبوغ بها ، واتباء الانغمار إليها ؛ لسان من هؤلاء المؤمنين بتلك النظرية التي يبالغ أهل جيلنا في تطبيقها . يقولون كما يقول بعض الأطباء : « قل لي ماذا تأكل ؛ أقل لك من أنت ، فأدبأونا يقولون : « قل لي ماذا قرأت ، وماذا حفظت ، ومن هم أستاذوك وخطاؤك ؛ أقل لك من أنت ،

قد يروئك من أصحاب هذا الرأي ضخامة الأساس الذي يبنون عليه حكمهم : « إن المرء صنعة البيئة ، وقول سبنسر : « كل شيء يصيب المادة يترك فيها أثرا لا يزول ، فهم يفخمون في مقدار استنباطهم على قدر ما لنظريتهم من ضخامة في الصدق ؛ فهناك الاستعداد ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها . ولو بنينا أسباب النبوغ أو التخلف على الفطرة وحدها ، لكنا أقرب إلى الصواب ، لأن الاستعداد سبب أقرب من البيئة ، فطاوعة النتائج له أقرب إلى العقل من مطاوعتها للبيئة . وإني لأذكر خطأ آخر وقع فيه الكيميائيون قديما ، فشقوا وأشقوا الناس مهمهم ؛ هذا الخطأ مبني على نظرية صادقة متينة الأساس ، واضحة النهج ؛ ولكن الصلة بينها وبين ما بنى عليها ينقصها شيء غاب عن أذهان المفكرين ، فضاع من أجله جهدهم ، وفنى نشاطهم ومالهم في تحقيق هذا الاتصال ، الذي ظل تنقصه حلقة واحدة لو أنها وصلت بين طرفيه لا تصل تفكيرهم وتحقق حلهم .

تلك هي نظرية الكيمياء الخيالية ، كيمياء الذهب ، التي زعموا فيها إمكان تحول بعض المعادن الدنيئة إلى معدن الذهب النفيس ، قالوا : إن كل معدن يتكون من ذرات مختلفة العناصر ، بنسب يترتب على اختلافها اختلاف تلك المعادن ، فالتحس يتركب من ذرات إذا تغيرت نسبتها كان من نتائج ذلك تكون الذهب ، وهذه النظرية صادقة يؤيدها التحليل الحديث ، ولكن العقدة في التحليل والتركيب ، فإذا تيسر لنا ذلك ، حصلنا على الذهب الوهاج ١١ وفي هذا التحليل والتركيب تحللت قوى القدماء ، وركبتهم الهومو التي اغتالت عقولهم ، واستنفدت مادتهم ؛ كذلك نحن في وصل حياة الناس ببيئتهم ينقصنا اعتبار ذلك السر الذي يد الله مفتاحه ؛ وهو الذكاء الموهوب الذي لا فصل إلى وزنه وبيان كنهه وكيفه .

فلست بطائر مع الذين يقولون : إن اتبنا المتنبي إلى (جعني بن سعد العشيبة) من قبائل اليمن ، ونشأته في (محلة كندة) ، وسفر أبيه به إلى الشام ، وانتقاله به في باديتها وحضرها ، ومدرها ، ووبرها ، وإسلامه إلى المكاتب ، وتردده بين القبائل - لأقول إن هذا هو السبب وحده في أن كان المتنبي بهذه المثابة التي ذكرها عنه من النبوغ في اللغة ؛ فربما لانجد في البدو الذين لزمو البادية في أيامه ، ونشأوا بين خيامها ، من يداني المتنبي فيما صار إليه من فضل ، ولكن شيئا آخر يكون أول في مقام الاستدلال ، هو موهبته الطبيعية الفطرية ، هو الذكاء الذي ركه الله في نفسه ولا ندرى مأتاه : أهو وراثي من أحد أبويه ، أم من كليهما ، أم هبة خاصة لا علاقة لها بالوراثة ؛ ذلك هو السبب الجوهرى الذي لو أدركنا كنهه وعرفنا قياسه ، لأمكننا أن نحكم صادقين بما كانله من آثار عظام في حياة الرجل . وعلى هذا نقيس القول في همة المتنبي ، وطموح نفسه ، وبعد غاياته ، وكبره الذى ضاق به سِلْخُهُ ، بل ضاق به رجب الدنيا في عينيه ؛ هنا مصداق قولنا ؛ فأين الصلة بين سقاية الماء وحقارة شأنها ، وبين هذا الطموح الذى لا حد له ؛ وأى صلة بين ركوع السقاء وانحناء صلبه دائما ، ونضوحه بعرق القرية ؛ وبين هذا الكبر الذى لم نعرف مثله عن ملوك عصر المتنبي ؛ أليس هذا الاختلاف بين البيئة وما نشأ عنها ، والتضاد بين الأسباب ومسبباتها ، دليلا على صدق ما نقول ، من أن هناك أسبابا خفية خاصة بكل أحد من الناس ، هى التى يرجع إليها اختلافهم وقد اتحدت بينهم ، وتشابهت تربيتهم ، بل تحدت بهم أصلاب واحدة ، وأرضعتهم لبان ثدى واحد .

إذن كان المتنبي همam النفس طموحها ، متكبرا لا حد لكبره ، نزاعا إلى الإغراب في كل ما يعتقد ويقول ؛ تؤمن بذلك ولكننا لانجد أنفسنا في تعرف أسبابه إلا بقدر لاجزم معه .

آن أن نحصى نواحى شدوذ المتنبي فنقول : إنها هى من نواحى نبوغه أو هى أطراف هذه النواحى

فمن نواحى نبوغه علو همته وطموح نفسه . وما يستنكر على أحد الهمة والطموح ، ولكن المستنكر فيها أن يحاول بهما امرؤ فى مثل نشأة المتنبي ووضاعة يثته ، وصولاً إلى الحكم والولاية لأمر الناس ، وذلك ما قاله المتخرجون من المبالغة أو تصديقها فى شأن المتنبي . ومهما يكن من تعدد الولايات فى أيامه ، أو تحققها لغير ذوى الأهلية لها ، فإننا نعد تطلع المتنبي لها شذوذاً أو خروجاً على المألوف فى عرف الناس . نعم وثب خصى دَمِيت أذنه فى يد النخاس ، وكان للفلسين أثر فى تقديره يوم بيع . ولكن بين موقف كافور فى يد النخاس ، وتربعه فى دست الملك حدثت أمور وجرت أقدار صار معها تحقق هذا الحلم أمراً جائزاً ، فكافور الخصى تنقل فى خدمة سيده الإخشيد وساعده ذكاؤه ونفاذه فى الإخلاص لسيده ، واطمئنان هذا السيد إلى جانبه ، وارتياحه إلى خضوعه - على أن سما قدره حالاً على حال وطبقاً عن طبق ، ولم يكن فى انتقاله فى تلك المراتب طفرة تستغرب ، حتى صار الخصى معلم ابن الإخشيد ، فوصيته ، ولعله لم يُرد لهذه الوصاية إلا حين أمن أولو الشأن جانبه ؛ فى غفلة هؤلاء واستنابهم إليه ، استطاع أن يصبح بين يوم وليلة صاحب الأمر ، المستبد به دون سيده ؛ وقد دب استبداد كافور بالأمرد بيباً خفياً ، وسرى سريانا بطيئاً ، فكان كديب الغذاء فى الأعضاء ، أو ديب الملل فى مستهامين إلى غاية من البغضاء . يدلك على ذلك أنك لم تجد نكيرا من أحد ، ولا ثورة من عامة ، ولا حركة من جيش ؛ فهما تصورنا المصريين نياماً عن حقوقهم ، معطلين لأمر مملكتهم ، لم يفتنا أن لتناسب الحالات التى تنقل فيها كافور ، وانتهائها انتهاء طبيعياً أو كالتطبيع إلى توليه أمر البلاد - أثراً فى قبولهم لتلك النهاية التى ترى البون شاسعاً بينها وبين بدايته وينبئ أن نفهم أن قلب مملكة أو الوثوب إلى ولاية ليس أمراً سهلاً ، بل هو من أصعب الأمور ، ويكنى أنه لا يتم إلا مصحوباً بالثورة والدم والهرج والمرج ، مهما تجمعت له أسباب ومكنت منه مؤهلات . وما نطيل بذكر ما يحتاج إليه هذا الأمر من عصية تمتد إلى عهود سابقة وينضم إليها حقوق مهضومة فى

هذا التراث المطلوب ، حتى يكون للأعوان صلابة في هذا الحق الذى يريدون ،
ووجهة في دفع المغتصب الذى يزعمون .

أفلا يكون المتنبي بعد ذلك شاذاً في طموحه ، خارجاً عن مألوف الناس في
طلبه ، حين ظن أن الملك يستفاد بهذه الأزيمة الرثة ، ويبنى على هذه الأسس
الواهية ، وحين خيل له أن جماعة من أوشاب الناس وأفنائهم يهيج بهم الجوع
في الصحراء ، فيطمعهم المتنبي بالشبع في ولايته ، فيخرج بهم من حدود صحرائهم ،
وما هي إلا أنباهة من أمير حمص ، وثلة من جنوده المرابطين ، حتى يذعر هذا
الجمع ، ويقع المتنبي في يد لؤلؤ ، فيكون منه البكا . والشكاية المرة والاعتذار
الصياني حين يقول لهذا الأمير :

تُعَجِّلُ فِي وُجُوبِ الْحُدُودِ وَحَدَى قُبَيْلِ وُجُوبِ السُّجُودِ

ومنها يتوجع من القيد ويدل بالاستعطاف :

أُمَّا لَكَ رَقِي ، وَمَنْ شَأْنُهُ هِبَاتُ اللَّجَيْنِ وَعَتَقُ الْعَمِيدِ

دَعَوْتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ، وَالْمَوْتُ مِنِّي كَجَلِ الْوَرِيدِ

دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَّانِي الْبَلَى وَأَوْهَنَ رِجْلِي ثَقْلُ الْحَدِيدِ

ولنقف وقفة قصيرة عند ذله هذا واعتذاره فنقول : إن طلب الملك غالباً
يصحبه صلابة في العود ، وشدة في الشكيمة ، واستحصاد في المرة ، يقوى أركانها في
النفس وجهة الفكرة التي دفعت التأثير إلى ثورته ؛ حتى لا يكاد يعدل عن طلبه
بين السيف والنطع . هذا شأن التأثيرين الجادين الذين نبا بهم الحظ في الوصول
إلى ما يريدون ، ولم يخنهم في أنفسهم ، ولا في إيمانهم بفكرتهم ، فبذلت لهم آمال
دون آمالهم ، وسيقت إليهم رغائب بدل رغبتهم ؛ فلم يعدلوا عنها وآثروا أن
يموتوا في سبيلها .

هذا هو شأن الثورة في طلب الملك إذا كانت مدعومة بالحق أو شبهه . وليس
في قصة المتنبي أمارة من ذلك . إذا فقد كان المتنبي شاذاً في طلب الملك .

أما إذا سائرنا من يقول إنه ادعى النبوة وآتى الناس بقرآن يقول فيه . . والنجم
السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لني أخطار . امض على سنك،
واقف أثر من كان قبلك من المرسلين . فإن الله قامع بك زيف من ألدنى الدين ،
وضل عن السبيل ، فأمر المتنبي في هذه الحال هين علينا ، لا نعي بالتماس التوجيه
لهذه النزعة ولا نحاول ربطها بالهمة أو الطموح : إذ أن كل ما يعد من باب
الطموح فهو موصول بالعقل ، مؤيد بالفكرة ، وإن كان إلى حد بعيد ، وعلى جانب
من التأيد وإلهام ضعيف . فأما دعوى النبوة - بعد ما كان من دخول الناس أفواجا
في دين الله ، وبعد ثلاثة قرون لا تزيد دين محمد إلا تأييداً وتمكيناً - فإن شأن
المتنبي يسهل علينا جداً ولا نجد مشقة في الحكم عليه . هو مجنون حتماً إن كان
قد صح منه هذا ، أما الذين اتبعوه - إن صح أن قد اتبعه أحد - فهؤلاء إنما اتبعوه
للعبث به والسخرية منه وانتظار مصيره . وهم أول الأمر وآخره من أولئك الضلال ،
الفارغى اليد من الأعمال ، الذين ربما طمعوا في أن يكون لهم معه غنم من سطو ،
أو عدوان على سرب آمن .

ورأينا أن نستبعد على المتنبي هذه النزعة ، بل نقول : إن أعداءه صوروا شذوذه
في طلب الولاية بهذه الصورة ، نكايته به أو التماسا لعذر أنفسهم إذا هموا بقتله أو
قتل أتباعه ، ولكن شأن المتنبي وأتباعه كان أهون من كل ذلك .

وبما شذ فيه المتنبي ، كبره وتعاضمه ، وليس الكبر شذوذاً دائماً ، فإن من
الناس من يحسن منهم ذلك ويكون مألوفاً للناس منهم . بل منهم من لا يحسن به
التواضع كما يحسن به الكبر . وهؤلاء هم الملوك الذين ارتفعوا فوق مراتب
الناس ، وقد جرت العادة باحتجابهم وتركهم المشى في الأسواق ، وألف الناس
منهم قلة القول وتجنب الهذر ، فلو أن أحدهم حضر الأسواق وابتذل نفسه في
خلاط العامة لكان ذلك منه شذوذاً ، كما يكون شذوذاً من أمر الرجل من السوق ،
أن يتشبه بالملك فيحتجب ويرفع عن أنداده أو من هم فوقه .

وإنما عددنا كبر المتنبي الذي أثر عنه شذوذاً ، لأننا لانجد له من حياته ومنزلته

بين الناس ما يبرره ، ويوجد للمتنبي شبهة في التمسك به .

لم يكن المتنبي من الثراء بحيث لا يكون في جلساته أثرى منه ، ولم يكن من العلم بحيث لا يكون منهم من هو أعلم منه ، ولم يكن من الشاعرية بحيث تزل جميع الأقدام عن موقفه ، ولكنه كان متكبرا على كل جليس ، شاعرا بأنفه على كل ذى جاه أو منزلة ، وقد يكون للمتنبي شبهة إذا تكبر على هؤلاء ، ولكن ما شبهته إذا تكبر على الملوك ؟ ما شبهته في أن يخالف سنة الشعراء في حضرة سيف الدولة ؟ فقد كانوا جميعا يقبلون البساط بين يديه ويقفون للإشاد ، فأما المتنبي فلم يكن ينشده إلا جالسا وهو متقلد سيفه . وقد لاحظ ذلك بعض الحاضرين مرة حين كان المتنبي ينشد قصيدته :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّمَنُ فِي الْعَدَا
فقال : لو أنشدتها قائما لأسمعت الناس . فقال له أبو الطيب : أما سمعت أولها ؟ يريد أن هذه عادته ، ولا سبيل إلى تغيير العادة ، فاستحسن هذا الجواب منه وعد من بدائعه .

ولتقف أمام هذه القصة فهى في نظرنا - مضمومة - إلى غيرها - دليل تكبره لا كبره ، وآية تكلفه لا طبعه ، لو كان هذا طبع المتنبي للزمه في حضرة كافور ، فقد كان يقف للإشاد ، وما أذله إلا حرصه وطمعه أن ينال ولاية منه ، وإلا فقد كان سيف الدولة أولى بالهيبة ، لفحولته وعزة نفسه وشجاعته . فإذا كان المتنبي قد جرى على ما ألوف الناس حين أنشد كافورا وهو واقف ، فقد شذ عنه حين فعل ما كان يفعل بحضرة سيف الدولة . كذلك كان شاذا ، حين أبى مدح غير الملوك ، فلم يصحح لإلحاح أبي القاسم بن عباد ، حين ألح عليه في زيارته وعاهده أن يشاطره ماله ، ولكن العظمة التى نخلها المتنبي لنفسه جعلته يأنف من مدح ابن عباد . والشذوذ قد يحمل صاحبه على الامتناع من ورود الماء على شدة الظما ، فليس الكبر فى مثل هذه الأحوال كبرا ، ولكنه خطرات من الوسواس وخيال من الوهم ، يصور لصاحبه العظمة ، مصحوبة بركوب الرأس ، وتنكب الطريق .

وقد شذ المتنبي في شجاعته ، والشذوذ فيها يسميه علماء الأخلاق تهورا ، وهو مذموم قدر امتداح الشجاعة ، وهو دليل على الرعونة إذا دلت الشجاعة على الوقار والثبات . شذ المتنبي في شجاعته فيما نعلم شذوذين ، أحدهما حين ثبت مع سيف الدولة في سعة من الجنود فتمكنوا من اختراق صفوف الأعداء والنجاة . هذا شذوذ إلى حد . شذوذ أدركته الروية آخر الأمر ، وإلا فقد كان ينتهي بالجنون إذا ثبت لهؤلاء الأعداء حتى يصيبه الردى . وما من العقل استدعاء الموت بمثل هذه المواقف . وقد يكون لسيف الدولة مبرر في موقفه ؛ فهو صاحب الملك ، لا عار عليه أن يبدل في سبيله نفسه ، لأن بالملك حياة نفسه ، فأما هذا الضيف الطارىء ، الذى يتمرس بمعاناة الحروب ويتفكه باللقاء ، فهو إذا حارب فلغير عداوة سابقة أو ثار قديم ، وإنما يحارب بجمالة لصاحبه وإظهارا لقوة قلبه ، فوقفه تمثيل من أول خطواته إلى آخرها ، لذلك كان شذوذا من المتنبي غير مقبول أن يثبت وقد انهزم قواد الجيش وانحاز أبطاله .

أما ثانى الموقفين ، فهو موقفه حين عاد من فارس ، وحقائبه بُجُرْ بالأموال ، التى أفادها من عضد الدولة وابن العميد ، وفى طريقه إلى السكوفة أعداء له ، أو أعراب أول صفاتهم قطع الطريق ، فلم يُصنع إلى نصيح الناصحين ، ولا استمع إلى إرشاد المرشدين ؛ بل نطق خلفاً من القول ، ودل على غرور مابعده من غرور ، حين قال وقد ذكر يأس بنى ضبة ، وعداوة فاثك بن أبى جهل منهم . لو أن ميخضرتى هذه ملقاة على الفرات ، وبنو ضبة مُعْطَشُونَ بِخِمْسٍ ، والماء يلبع كبطون الحيات ، ما جرؤ لهم ظِلْفٌ ولا خُفٌ أن يَرِدَهُ ، ثم سار على هداية هذه الضلالة من رأيه ، حتى لقي حتفه كما قدر النصحاء . وقد كان يقدر له الفرار فالنجاة . لولا ضلالة أخرى ، وخرق جديد عرض له ، أبى معه إلا أن يكون . من بين الشعراء - صادقاً فيما يدعى ، حين هم بالفرار فذكره غلامه بقوله :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرَاطُ وَالْقَلَمُ
فثبت وقال : . قتلتنى . قتلك الله ! ، وقاتل حتى قتل .

شذوذ المتنبي في أقواله :

كلامنا في هذا الشذوذ يتناول ثلاثة مناح : الفكرة ، اللفظ المفرد ، التركيب .
ولسنا ندعى أن كل ما كان من شذوذ المتنبي في هذه النواحي كان متكلفا متصنعا
ومجتلبا اجتلابا ، بل تؤمن بأن بعض ذلك وقع منه بغير تعمد ، مثل اتحاته
ناحية التقسيم المنطقي والتحديد الفلسفي بكلمة « أول ، والثاني ، في قوله :

الرأى أَيْ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ ، وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

أليست هذه لغة المنطق وتقسيم الفلسفة ، وهي لاشك رطانة في الشعر ، إذا
قيست إلى تلك الصياغة العربية ، التي صاغها البحترى في ذات المعنى ، حين قال :

وَيَوَدُّ الْمَدُوُّ لَوْ تَضَعِفُ الْجَيْشَ عَلَيْهِمْ وَتَصْرِفُ الْآرَاءَ

نعم هذا المعنى هو ذاك ، ولكن الشاعر المطبوع يأتي به نتيجة بلامقدمات ،
أما الشاعر المصنوع فانه يأتي به كما ترى محدودا بأول وآخر .
كذلك خذ مثلا تعليله في قوله :

وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْيُونِ جُفُونِهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِل

فهو يعمل باللام ، ثم بمن في سياق سقيم ، لا تألف مثله في شعر الشعراء ، أو
خذ مثلا استعماله لمشتقات فعل الكون ، التي أكثر منها الفلاسفة وأهل المنطق ،
كقوله :

إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنْتَ فَبَرِّئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ

لم تلفت الصاحب بن عباد في البيت إلا كلمة حينئذ ، فقال : إنها هنا أنفر
من عز مؤفات ، وأنا موافقه فيما رأى ولكني أقول : إن أس الثقل في كلتي
كان وكائن .

هذا وأمثاله في شعر المتنبي شذوذ غير مقصود ، لأن الرجل تأثر فيه بدراسة
الفلسفة ، وترديد ألفاظها وأساليبها . ومهما يحاول المرء لعبارة الرقي فهو مأخوذ
بأساليب لا يستطيع الخلاص منها ، لكثرة دورانها على لسانه وطرقها لسمعه .

أما الشذوذ المتعمل الذى كان يقصد به الإغراب ، و يروى فيه عن تلك الروح المتعمدة على النظام ، النافرة من العادة ، فذلك كثير فى كلامه .

فمن ذلك استعماله الكلمات التى هى من التوغل فى الغرابة بحيث قل أن تجددها فى شعر جاهلى من شاعر معروف بعنجهيته ، وليس معقولا أن تكون هذه الكلمات وردت فى شعر المتنبي ، من فرط علمه باللغة وإحاطته بغريبها ومألوفها ، حتى اشتبه عليه واستويا فى نظره . ولكن الشذوذ هو الذى جعله يحرص على جمع تلك الكلمات وتفريقها فى شعره ، حتى يلتفت الناس إليه ، ويشغلوا به ، ومن ذلك كلمة ابتشاك بمعنى كذب فى قوله :

وَمَا أَرْضَى لِمَقْلَتِهِ بِحُلْمٍ إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمُهُ ابْتِشَاكَ

قال الثعالبي : « لم أسمع فى هذا اللفظ شعرا قديما ولا محدثا سوى هذا البيت ، ومن ذلك كلمة التوراب بمعنى التراب فى قوله :

أَيَقْطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إِلَى الْأَكْلِ ؟

قال صاحب : « ومن أطم ما يتعاطاه ، التفاصح بالالفاظ النافرة ، والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء ، وغذى لبن ، لم يطاء الحضر ، ولم يعرف المدر . فمن ذلك كلمة التوراب . وليس ذلك سائغا لمثله وهو وليد قرية ومعلم صبية . »

أريد أن أنبه الذين ظنوا أن مرجع غرابة المتنبي بدويته ونشأته ، فاندفعوا يحكمون أسباب الربط بين النشأة والمصير . أريد أن أنبههم إلى أن هذا إنما كان من المتنبي تكلفا ظاهرا ، حكم به قبلنا الذين عاشروه ، فلم يستسيغوا أن يكون علمه باللغة ، ونشأته بين أهلها داعية إلى ما كان منه من هذا الإغراب ، فالصاحب يقول فى مناسبة استعمال المتنبي لآخاء جمعا لاخ فى قوله :

كُلُّ أَخَائِهِ كَرَامُ بَنِي الدُّنْيَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الْكَرَامِ^(١)

(١) يلاحظ أن البيت ورد فى الديوان « كل آبائه ، ولعل ما علق عليه صاحب رواية أخرى للبيت

لو وقع الآخاء في رائية الشماخ لاستنقل فكيف بأنيات منها :
 قَدْ سَمِعْنَا مَا قَلْتَ فِي الْأَحْلَامِ وَأَنْلَنَّاكَ بِذَرَّةٍ فِي الْمَنَامِ
 والكلام إذا لم يتناسب زَيْفَتُهُ جَهَابَتُهُ وَبَهْرَجَتُهُ نَقَادُهُ ،

ومن شدوذه الذي عرف به أكثر مما عرف باستعمال الغريب ، ذلك التعقيد في الأساليب ، والاتواء في التعابير ، مما يسميه علماء البلاغة تعقيدا لفظيا ، إن كانت الجناية فية على اللفظ ، ومعنويا إن كانت الجناية على المعنى . وهذا الشدوذ في المتنبي ، لا يكاد ينكره معجب به ، متعصب له ، مهما احتال لذلك والنس العلل بكبر عقله ودقة فهمه .

هذان النوعان من التعقيد ، عرفا في العربية من شعراء عرفوا بالشدوذ ، وإن شدوذهم لا يقاس إلى شدوذ المتنبي . ألسنا نعثر بأمثلة من ذلك للفرزدق في قوله :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُؤَامُهُ حَيَّ أَبُؤُهُ يُقَارِبُهُ
 وقوله :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُؤُهُ، وَلَا كَانَتْ كَلِيبُ تُصَاهِرُهُ
 وقوله :

تَعَشَّ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونُنِي نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذُبُ يَصْطَحِبَانِ
 وما أدعى أني استقصيت ما أثر عن الفرزدق من ذلك ؛ ولكني لا أكاد أعد له غير ما ذكرت إلا بيتا أو بيتين ، والفرزدق معروف بالشدوذ كما قلنا ، أليس هو الذي أكثر من الغريب عامداً حتى قالوا : إنه ، أحيا في شعره ثلث العربية ، ؟ أليس هو الذي شذ في سرقاته فكان يغتصب الشعر من قائله ويتهدهه إذا ادعاه بعد ؟ أليس هو الذي يقول في ذلك : أحسن السرقات سرقة لا توجب حداً ؟ يريد سرقة الشعر واغتصابه .

ولسنا في صدد الحديث عن الفرزدق حتى نعد نواحي شدوذه ؛ ولكننا نقول : إنه لما كان شاذاً تجلى شدوذه في تعقيد ، كذلك المتنبي شذ كثيراً ، فعقد كثيراً ،

وارتاح إلى حيرة الناس في فهم شعره ، وكثرة سؤا لهم له عن مراده ، ولم يستطع
كتمان الغبطة بهذا ؛ فقال :

أَنَا مُمِلٌّ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

سيقول المحتجون للمتنبى ما شاءوا وشاءت لهم فلسفتهم ، سيقولون : إن هذا
كان من المتنبى فرط ذكاء ، وفرط امتلاء بالمعاني ، وفرط حقد على الأيام ،
وإنه شينشنة أخزم ، وجمجمة موتور ، ونفثة مصدور . ولكن ، بعض هذا أيها
المعجبون ! وهوناً ما أيها المخدوعون بتمويه هذا الرجل وشعبته ، فهذا الرجل
كان يسهر في تعويج هذا الكلام وتشويه هذا النظام ، حتى يلتوى على الناس
فيسهروا من جرائه ، ويشقوا بدائه . وإلا فأى حال نفسية أو داع (مهما اشتد)
يحمل قاتلاً على أن يقول :

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ لِيَيْلَتْنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي؟

فهو يتجاوز حدود اللغة ، فيستعمل صيغة أحاد وسداس الدالتين على توارد
المعدود على العدد المصوغة منه ، في معنى العدد ، فيريد من أحاد واحدة فقط ،
ومن سداس ستة فقط ، وهو غير ما شرطوه في استعمال هذه الصيغ ، ثم يحذف
همزة الاستفهام الداخلة على أحاد ، وأصلها أحاد ، وهو كما قالوا ضرورة ؛ ولكنها
محتملة . ثم هو يريد من وراء كل هذا التعقيد أن هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة
تجمع ليالى الدهركه ، وكل ليلة من ليالى الدهر : أى واحدة أم ست ليالٍ في كل
ليلة ، فتكون الليلة سبع ليالٍ أى أسبوعاً .

وبعد ، فاسمع الجليلة التى أثارها المتنبى حول بيته : قال الصاحب بن عباد :
وهذا من عنوان قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب
ما لا يدرك بالارتماطيق ، والأعداد الموضوعه للوسيقى . وقال الواحدى : وقد
أكثرنا فى معنى هذا البيت ثم لم يأتوا ببيان مفيد يوافق اللفظ . وإن حكيت
ما قالوا فيه طال الكلام . وقال الشيخ ناصيف اليازجى شارح ديوانه : ولعمري
ليس مثل هذا مما يدخل فى فضيلة ناثر أو شاعر ، وإنما يصح التكلم به فى مقام

الإلغاز والتعمية ، لافى مقام المدح والتشبيه ، ثم هو - على ما فيه من غموض المغزى وبعد التأويل - لا يخرج عن تجشم عرق القربة فى استنباط الغرض من معنى قوله :
 مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ آيِلِي لَصَبَاحَ لَهُ كَانَ أَوَّلَ يَوْمِ الْحَشْرِ آخِرُهُ
 والفرق بين التعبيرين ظاهر .

وأى داع يدعو إلى كد الأذهان ، بل إلى رَضِّ الأبدان فى فهم قوله :
 وَكُلُّ شَرِيكَ فِي السُّرُورِ بِمُصْبَحِي أَرَى بَعْدَهُ مِنْ لَا يَرَى مِثْلَهُ بَعْدِي
 المصبح هنا مصدر ميمي بمعنى الإصباح ، والمعنى : إذا عدت إلى أهلى ، فسروا من عودتى إليهم ، وسررت ببلقائهم ، فأنى لأز المنغصا لفراق ابن العميد : لأنى رأيت بآبن العميد رجلا لم ير هؤلاء مثله ، لأنه لا نظير له فى الدنيا ، ولا يغرنك قولنا هذا فى بيان البيت ؛ فالوصول إليه عويص . أكثر الشراح من الأخذ والرد فيه . ولا نطيل بذكر شدوذ المتنبي فى هذا الباب فهو أمر شغل الناس طويلا فى غير جدوى إلا حل رموز ، وتفسير رطانة .

حقيقة المتنبي

وبعد فهل كان المتنبي إلا شاعرا له محاسنه ومساويه ، فأما ما كان وما يكون حوله من دعاوى وخصومات ، فذلك شئ . جَسَمه الوهم وبالع فیه ، لما كان عليه المتنبي من شدوذ فى أطواره كلها ، والناس قدما متعلقون بالغرائب ، مندفعون وراء العجائب ؛ فهم إذا سمعوا بمخلوق شاذ الحلقة حبجوا إليه . وبذلوا الجهد فى تطلع طليعه ، وبحثوا عن أصله وفرعه ، فلولا ما سمعناه عن المتنبي من كبره على ضيوفه ، وشموخه بأنفه على قصاص حضرته ، حتى يتخذ مجلسه أعلى من مجالسهم ، ولا يرد سلاما على قادم أو منصرف منهم ، لولا ذلك وأمثاله ما عانا المتنبي أكثر من غيره من الشعراء ، وآية ذلك أنك ترى أكثر الحديث عنه يدور حول غرابته ، وأنواع شدوذه .

حكى لى صديق ، قال : إنه كان يوما ما من صرعى الإعجاب برجل شاذ ، هو طالب . قضى عشر سنوات أو تزيد فى أربع فرق دراسية ، وكان على كثرة الرسوب

والسقوط شامخ الأنف ، مصر الحدد ، ناظرا في عطفيه ، قال صاحبي : وكنت أنا أحد هذه الطبقات التي مرت بهذا الطالب ، فلكتني ضلابة هذا الرسالة (إن صحت هذه الصيغة) وكنت أتفرس فيه ، وأتعرّف مآتي هذه الصفاقة ، التي جعلته ضحوكا مستهينا بهذا الإخفاق ، كأنما شغله معنى أسمى من النجاح ، وغاية أكبر من نيل الشهادة فكنت (بنوع من البله) أكبر فيه هذا المعنى ، وهذا الغرض الذي بدا لي أنه تعلق به ، وأقيس نفسي إليه فأجدني متهما نفسي بالتقصير ، عاضا أصابع الندم ، لأنني خرجت من امتحان الحساب مثلا ولم أحل جميع مسائله ، وربما كان الذي فآتني مسألة أو بعض مسألة ، على حين يترك صاحبنا ورقة الإجابة بيضاء ، ويخرج يقتل شاربته ، ويسير في حوش المدرسة . كأنه حضرة الناظر ، حين يتمشى معجبا بآثار نظامه ، وإحكام ترتيبه ، قال صاحبي : خرجت من المدرسة ، وخرجت من الطبقات العشر التي مرت بهذه الصخرة الصماء ؛ وكنا نجلس على بعض القهوات ، حول هذا الراسب الذي لا يذوب ولا ينحل كبره ، وكأننا نحن الراسبون وهو الناجح ، نجلس كما يجلس خاق الله . أما هو فيتصدر المجلس ، ولا يزال يحتج على سخونة الماء ، ورداءة البن ، ويستدعي صاحب القهوة وعمال المقصف والندل ، كأنما هو أمير من الأمراء ، سمح فجلس على قهوة في باب الخلق يوما ما ، والسر العجيب أن كان هؤلاء يصيخون لإشارته ، ويجيبون نداه ، وربما طلبت أنا كوب الماء ، أو فتجاة القهوة التي سأدفع فيها قرشا مثل قرشه ، فلا يجاب طلبي إلا بعد حين ، وبعد طول إلحاح ، وإذا جلسنا حول هذا الأخ فإنه يستسيغ أن يحجب وجهه عن جلسيه بصحيفة يقرأها الساعة والساعتين ، لا يهتم أن يحيي صاحبه القادم عليه بكلمة ، أو يرد على خطابه ولو بإشارة ، وإذا فرغ من الصحف ظل ناظرا في السماء ، كأنما ركب رأسه خطأ ، فكان ذقنه في حذاء جمجمته عرضا ، وأما شفته السفلى (وقد صيرها مشفرا بما أطال من مطها) فقد برزت نحو إصبعين عن شفته العليا ، فهو دائما مبرز . وقد بلغ من كبره أن كان تنفسه كله زفرات وشهقات ؛ فلا بد أن تسمع صوت نفسه خارجا وداخلا ، وصاعدا وهابطا .

قال صاحبي : لم يكن في هذا المخلوق حسن يجذب إليه الإخوان ، ولا أدب

يجمع حوله الأخدان، ولا شيء مما يروق الناس في الناس، ولكنها الغرابة والشدوذ
أسراني حيناً، حتى فككت قيودهما عن نفسي، وسئمت منظر هذا المخلوق، ولكن
غيري لا يزال واقفاً في الأسر بحالسه ويتعلق به، ويروي غرابته وأمثلة شدوذه
معجبا؛ لأنه لم يسأم بعد ذلك الشدوذ.

هذا شأن الناس مع كل شاذ، يجعلون العجب به في موضع السخرية منه،
والالتفاف حوله بدل الانصراف عنه.

وأقول: لو أن شعر المتنبي ألقى إلى خالي الذهن من أطواره وأحواله، لكان
حكم الناظر فيه، أن المتنبي رجل من الناس، وشاعر من الشعراء، أجاد المدح أو
بالغ فيه، ووصف الحروب فأبدع في وصفها، وهجاً فأمض وأخش، ولكنه
تغزل فكبا، ودل على خشونة وتنطع، وله إلى جانب ذلك كثير من حوشية في
الالفاظ، وتعقيد في الأساليب.

هذا هو المتنبي، ولكن الطبول التي قرعها لنفسه، وردد الناس صداها في عصره
وبعده، هي التي ألفت في روع الناس أنه شاعر لا كالشعراء، وإنسان لا كالإناس.

محمود مصطفى



المرأة في شعر المتنبي

بقلم منى علامه

المدرس بالمدرسة الحديبية

(١) الشعر والتاريخ:

يرى جماعة من الأدباء ، أن يكون تراث الشاعر من الشعر ، صورة تعبر عن حياته ، وقصة تحكى تاريخه . يقرؤه الأديب فتمر على صفحات ذهنه الحوادث التى أحاطت به ، والأمانى التى كانت تتلجج فى صدره ، والمؤثرات الضاحكة أو الباكية التى لا يسه . يمر به كل أولئك كما تمر أطياف القصة على سببية (١) الخيالة ، كأنك تقرأ الشاعر فيوحى إليك شعره بما هو الحق من خلقه ونفسه وحياته . فإذا انطوى الشعر على عاطفة مشبوبة ، وقلب مسته لوعة الحب ، فالشاعر فى نظرهم عاشق مدله ، وغزله يعبر عن الحق ، ولا ينطق عن الباطل . وإذا تحدث الشاعر عن الندى والجود ، وأفاض مزهداً فى حب المال ، مرغبا فى شراء الحمد والثناء ، فهو كريم معطاء ، لا يعلق غبار الشح بثيابه ، ولا يحوم طائف التفتير حول مائدته . وهذا رأى مقبول إلى حد غير بعيد ؛ لأن الشاعر لو عرف أن التاريخ من ورائه يرصده ، ويثبت فى صحائفه كل حركة من حركاته ، ويدون فيها ما قدمت يداه فى غدوه ورواحه - لنظر فى مرآته ، ونظم من صور الحياة ما يبدو له فى وجهها ، فاستوحى الحقيقة ، ونكب عن الكذب والبهتان ، واستبقى لنفسه من الحياة الصاخبة الزائلة ، حياة أخرى مستقرة خالدة .

يد أن كثيرا من الشعراء ، لم يفتنوا لعين التاريخ الساهرة ، وميزانه العدل ،

(١) السببية : الشقة الرقيقة . والمراد لوح الخيالة .

فانحرفوا عن جادة الحق ، وصدروا عن غير ما يدور في نفوسهم ، وما تنطق به حياتهم ، وانحدروا في أودية الخيال الكاذب ، الذي لا تجمع خيوطه من لباب الحقيقة ، ولا يبنى هيكله من معدن النفس ، فخرتهم التاريخ ، وصبغ بالزور والدعوى الكاذبة مآثرهم .

(٢) أبو العتاهية بين الشعر والتاريخ :

إن شعر أبي العتاهية ، يحدثنا عنه ، أنه كان يدعو الناس إلى تحرير أنفسهم من رقّ المال ، ويقرر أنه لا يملك منه إلا الذي ينفق في وجوه الخير ، وأنه ليس يملك ما يحبسه منه ويضن به ، لأنه لم ينفقه في مبرة ، أو يجتن منه ثمرة ، ويستحث ذوى الثراء على المبادرة إلى الإنفاق فيقول :

إذا المرء لم يُعْتَقِ من المال نفسه تملكه المال الذي هو مال لكة
ألا إنما مالى الذى أنا مُنْفِقٌ وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق ، وإلا استهلكته مهالكه

هنا تتورحمية التاريخ ، ويغيطه كذب أبي العتاهية ، فينشر على الناس له صحيفة سوداء مسطرة بالحرص والشح ، ويقول لهم : (إنه حبس (١) في داره سبعا وعشرين بكرة (أو أربعائة وخمسة آلاف جنيه) لا يأكل منها ولا يشرب ولا يزكى ، وكان دائم الحرص دائم الجمع ، شحيجا على نفسه ، لا يشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ، وكان له خادم أسود طويل ، كأنه محراك أثون ، يجرى عليه كل يوم رغيفين لا يشبعانه . واستشفع الخادم لدى أبي العتاهية ، بأعز أصدقائه ، لعله أن يزیده رغيفاً فأبى ، حتى أهلكه الجوع ، وكفنه في إزار وفراش خلق) فلو ضاع سجلّ الزمان ، وسير الرجال من يد التاريخ ، وبقي للناس دواوين الشعراء لقدسوا أبا العتاهية ومجدوه ، للأريحية والمروءة التى تفجر من شعره . وتتدفق من ثنايا قريضه .

(١) راجع أخبار أبي العتاهية في الجزء الثاني من الأغاني .

(٣) تحكيم التاريخ في الشعر :

من أجل هذا ، فإنني لا أميل إلى الإسراف في الاعتماد على قضايا الشعر ، في دراسة الرجال ، واستنباط أحكام منها ، تكون دستوراً للرأى ، أو رائداً للحقيقة . كما أنى لا أميل إلى أن تتنازعنا الشكوك ، وتتجاذبنا الظنون ، فيما نقرأ من شعر السالفين فيغطى سوء الظن على درك ما فيه من مقاصد تهدى إلى الحق ، وتثير طريق البحث . وإنما أدعو إلى الرجوع إلى التاريخ ، واستلهاهم البيئة التى درج الشاعر فيها ، ومعرفة العوامل التى ألهمته ، ثم يقوم تراثه من الشعر بعد ذلك ، مقام الشاهد على ما تنطق به حوادث الزمان والمكان ، فإن استبهمت صحائف التاريخ ، وعميت مسالك بيئة الشاعر ، والتبست علينا حياته فلم نستطع إلى حقيقة أمره سيلاً - استضاءنا بنور العقل ، واستنجدنا بروح العصر ، فميز زيف القول من خالصة .

وقد يكشف الشعر عن ناحية من نواحي الشاعر ، ويشف عن بعض ماطوته خفايا الأمور ، وملابسات الحياة ، فى حنايا صدره ، فلم يتجاوب فى الهواء صده ، ولم تتناولهُ أقلام المؤرخين ، ولكن ذاع سره فى تضاعيف السطور ، وسطعت رائحته من أكام القصائد ، كما تلمح ذلك من بعض مطاليع أنى الطبيب ، فى مدح كافور ، فإنها تتم عن سخرية ، وتعريض خفى ، وإن لم يكن أحد دون أن المتنبى عقب اتصاله بكافور قد يرم به ، أو سخر منه ؛ لأنه كان إذ ذاك موصولاً منه بأمل ، ومحباله لرجاء يحققه ، وغاية ينشدها ، كما يظهر ذلك من قوله :

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
أَمَّا تَغْلَطُ الْآيَّامُ فِيَّ بِأَنْ أَرَى بَنِيضًا تُنَائِي ، أَوْ حَبِيْبًا تُقَرِّبُ ؟
وقوله :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عُصْلَاكَ ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَا ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

فإن من يدرس حياة كافور ، وكيف توصل إلى حكم مصر ، ويقرأ هذه الآيات ، يكاد يوقن أن المتنبي يخفى فيها أشد العجب ، من ارتقاء مثل كافور إلى الملك ، واستوائه على عرش مصر . وقد تكون في الشاعر نزعة قوية إلى الشعر في جهة خاصة ، فيعرض إليها من المؤثرات ما يحمد ناراها ، ويطنق أنوارها ، ويطنق عليها سواها من نواحي القول ؛ إلا أن جمراتها المطمورة تحت تراب المؤثرات ، قد ترسل ومضات باهتة في ظلام الحوادث ، ينفذ على ضوئها المتبصر إلى الوقوع على جديد في شاعريته ، ما كان ليظهر بالنظر الطائر ، والدرس السريع .

مكتم التاريخ على شعر المتنبي :

والمتنبي من أولئك الذين صدق التاريخ ما سجل الشعر لهم من صفات كثيرة . فإن شعره ينبئك أن الحق الذي كان يأكل صدور أولئك الذين يسامونه فلا يسمون إليه ، قد جر عليه ويلات كثيرة ، وجرت عنه غصص الهم . وأن نفسه الطموح وروحه الوثاب ، طوّحاه في كل قطر ، وعرضاه لغول المهالك . وأن معايشته للبلوك والأمراء ، طارت بنفسه فوق مستوى من عاصره من الشعراء ؛ وأن انغماره في حومة الوغى ، ووقوع الطعان والكفاح والغلاب في أفق ناظره هيأ له دقة الوصف ، وأمداه بفيض من المعاني والتخيل ، أندرته على إخراج صور فنية عالية ، تمتنع على من عداه . وأن تمرده على عصره ، حدا به إلى التمرّد على شعره ، فأرسله كما يهوى ، لا كما ينبغي . وأنه بشعره بنى الصرح الذي بلغ به أسباب المجد ، وشخذ السيف الذي سقاه كأس المنون . هذه الأمور كلها تدافع إلى ذهن من يتفحص شعر أبي الطيب ، وتعلق بخاطر من يقرأ تاريخ أبي الطيب ، فقد أدى التاريخ شهادته عليها طبق الشعر ، وأثبت توقيعه في ذيلها .

في شعر المتنبي صور مختلفة ، ملائمة لألوان نفسه ، تمثله أحسن تمثيل : في كبريائه وطموحه ، وتعسفه واضطرابه ، وركوبه رأسه ؛ إلا أن ناحية أخرى من

شعره ، لا نملك القول في أنها كانت صدى لما يجيش بالنفس ، أو تصويراً لما يلهب فيها من عاطفة ، ولهذا كانت مزاجاً من الصبابة والتصاني ، والرقّة والجفوة ، والعمل والطبع . تلك هي ناحية المرأة ، أو ناحية التغزل بالمرأة ، وهي ناحية لا نكاد نعثّر على شاعر من شعراء العربية أغفلها ، حتى المتصوفين والمتشائمين منهم ؛ فهي من النواحي الجديرة بالنظر في دراسة الشاعر . ونحن لا نستطيع القول .

المتنبي عاش حياته ، لم ينبض فؤاده بخفقات الحب ، ولم تسكن المرأة في شعاب قلبه ، وهو شاعر مرهف الحس ، مكتمل الانسانية ، عظيم الرجولة . غير أن التاريخ أثبت للمتنبى من الصفات التي لازمته من حدائته إلى أن لقي حتفه ، ما شغل باله ، وامتلك زمام له ، فلم ينفذ إلى قلبه سحر المرأة ، ولم تلهب فيه عواطف الغرام ؛ لأن نزوعه إلى المجد ، وتطلعه إلى الرياسة لم يدع للمرأة سلطاناً على قلبه ، ولم يشب فيه عواطف الهوى ولوايح الصبابة . هذا إلى أن أبا الطيب كان من ذوى المبادئ ، سنّ لنفسه سياسة خاصة ، وجمع كل جهوده على تحقيقها فعاش يتغنى إليها الوسائل ، ومات ولم يفز منها بطائل ، عاش مشغولاً بالإمارة فهو ما بالملك ، طلبه في البادية ففر فيها طلابه ، وازدهته الخيلاء في حضرة سيف الدولة فردّه على أعقاب ، وخيّل إليه أن في كافور غفلة تتيح له أن ينزع منه ولاية ، فرأى في الأستاذ داهية الدواهي ، ثم غادر مصر يجر أذيال الحنية ، ويلتمس النجاة في جنح الظلام ، وتيه الفياثي والقفار ، إلى أن رمت به الأقدار شريداً بين العراق وفارس ، حتى اغتاله الناقمون عليه والموتورون منه .

هذه الحياة الصاخبة الجائحة المفرّعة ، أبت على المتنبي أن يصنع إلى الحب ، وأن يستجيب إلى صوت العاطفة ، فلم يكن الغزل الصميم من الأغراض التي تشغل باله ، أو تحوّل في صدره .

غزل المتنبي بين العاطفة والتقليد :

وما أثر من غزل المتنبي ، إنما قاله محافظة على عمود الشعر ، وإثارة لاسلوب القدامى . لأن اقتفاء أثر أبي تمام ، ومقامه في البادية ، وتعصبه للعرب ، حبّ إليه اتباع سنن الشعراء الأقدمين . ولقد كان معظم حساده من العلماء والشعراء

يودون أن يحيد المتنبي قيد شعرة عن عمود الشعر المأثور، فيهمجوا عليه بالنقد والتجريح، ويأخذوه بالزراية والتقييع. ومن أحق من المتنبي بإحياء سنة العرب في شعرهم، وهو العربي لحماً ودماً، والبدوي ثقافة ورواية، والمتنبي في ظل دولة بني حمدان العرية. لهذا كله كان يصطنع الغزل اتباعاً لسنن المتقدمين لاستجابة للعاطفة، ولا تلبية لدواعي النفس. والشعراء - إلا قليلاً منهم - جروا على هذه السنة في بدء القصائد بالغزل، حتى التزم الشعر العربي منذ وجد إلى عهد غير بعيد طريقة واحدة. ولا يخالف هذا الرأي ما ألف من شذوذ المتنبي، فإن هذا الشذوذ كان فيما يعمد إليه من الغموض والإيهام، أو الخروج على قانون الصرف والإعراب، لكنه كان في الغالب محافظاً على اتباع النظام المأثور للقصيدة والخضوع إلى أحكام هذا النظام.

تلوه غزل المتنبي على حسب ظروف حياته :

على أن هذه الحياة المعقدة الملونة، أثرت في غزل المتنبي، وصبغت بألوانها، كما صبغت سائر شعره، فغزله في صباه، ليس كغزله بعد أن اكتمل عقله وتم نضجه، وغزله في مدح من يحبهم ويرضى عنهم، يختلف عن غزله في مدح من يزدرهم ويشنؤهم، وإنما سبق إلى مدحهم مدفوعاً برغبة الحصول على المال، أو دفع الأذى عن نفسه، فالمتنبي في غزله، هو المتنبي في سائر شعره، فيه الغث والسمين، وفيه الذوق السليم، والخاطر السقيم، وفيه المعنى الشريف، والفكر الدقيق، والمنهج الواضح، وغزله في مدح سيف الدولة الحمداني، وعضد الدولة البويهى، كان أقل قدراً وأكثر سقطاً وسخفاً من الغزل الذي قاله في مدح كافور وأبي العشائر وأبي شجاع فاتك، ومن إليهم من طبقة الأمراء أو القواد الذين كانوا أقرب إلى نفسه، وأدنى إلى مرتبته. فإذا أردنا أن نلتمس العلة لذلك رأيناه في شبابه كان يتناول إلى ما يحول في ذهنه من المعاني، فتقصر عن تحديدها قوالب اللفظ، لأن ملكة النظم لم تسلس قيادها له، ومسالك التعبير لم تذلل لمقريحته ولسانه، وقد يرفع نفسه إلى ما وراء مقدورها، ويكلف مسجته ما ليس

في طبعها ، من التأنق في الخطاب ، وتوخى مواضع الإحسان والإعجاب ، فيقع له من السفساف ما لا يتصور أن يصدر مثله من أقل الشعراء .

والمتنبى في صباه قد ضم ثيابه على الغرور ، وأعجب كل الإعجاب بما يبدو من خطره ، فلا يسمح أن ينظر فيه بنقد أو تغيير ، فجاء الكثير من شعره مستغلق المعنى ، خفى الغرض ، لا لأنه كان عميق الخيال ، دقيق الفكر ، بل لأنه ضعيف التأليف ، مضطرب التعبير ، ولهذا قال الواحدى : « لو طرح المتنبى شعر صباه من ديوانه لكان أولى ، وسأقدم لك بينة من هذا الشعر تدعم ما أرى ، ولن ألجأ إلى ما شاع من شذوذ المتنبى . وما اشتهر من إبهامه على ألسنة الأدباء ، لاستجرك إلى التصديق ، وأبعث فيك النفور منه ، واكن ها هي ذى آيات في صدر قصيدة مدح بها على بن منصور الحاجب ، واستجادها السامعون ، وأجيز عليها بدينار واحد من الممدوح ، لأنه لم يكن من الذين يستطيعون الشعر ، أو يتذوقون حلاوته . والمعنى الذى تدور عليه هذه الآيات هو (أنه فداء الحسان اللاتى رحلن عنه يخطرن فى جلايب الحرير ، وجعلن وجناتهن الوردية تسلب عقله وقلبه ، فأثرن الشجاع الجرى الذى كان ينهب الناس ، فأصبح نهبا لهؤلاء الحسان . إنهن يحيين بوصالهن ، ويقتلن بهجرهن ، ويظهرن غرائب الدلال ، وقد أردن أن يقلن لى وهن مرتحات : تفديك نفوسنا ، ولكنهن خفن عين الرقيب ؛ فأثرن إلى ذلك بوضع أيديهن على صدورهن . لقد كنت أخشى على ثغورهن أن تذوب من حر أنفاسى ، فلما ارتحلن عني . ذبت من الشوق إليهن) هذا موجز قصته فى هذه الآيات :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غوارباً	اللابساتُ من الحريرِ جلابياً
المنهياتُ عقولنا وقلوبنا	وجناتهن الناهياتُ الناهياً
الناعماتُ ، القاتلاتُ ، المحيياتُ	تُ ، المبيداتُ من الدلالِ غرائباً
حاولن تفديتي ، وخفن مراقباً	فوضعن أيديهن فوق ترائباً
وبسمن عن بردٍ خشيتُ أذييه	من حرِّ أنفاسي ، فكنتُ الذائباً

وهي خواطر شاب يغريه من المرأة جلابها ، ووجنتها ونعومتها ، لم يتكرر فيها جديداً ولم يجاوز بها نوازع الشباب ، والافتتان بجسم المرأة واحرار وجنتها ، تمر منها على أفكار سطحية . لا تند عن أذهان من تعودوا نظم الكلام ، وصبه في مسابك البحور والقوافي ، ولا تهب منها ريح الخيال الرائع . لا تسمع فيها خفقات قلب محب ، أو عاطفة نفس حساسة . وهي آيات خمسة فيها سلع رخيصة لا تروج في سوق الشعر ، ولا يقبلها ذوقه ، فإن الثقل والابتذال يجثمان منها على صدر القارئ من (جلابيا . وكنت الذائبا) وإن إبهام المعنى ، وكدة الذهن في الوصول إليه ، يذهب بصره حينما يقرأ :

المنهباتُ عُقُولُنَا وَقُلُوبُنَا وَجَنَاتِنِ النَّاهِيَاتِ النَّاهِيَا

وإن تكرار منهبات ، وناهيات ، وناهيا ، في بيت واحد ينقض إليك الشعر وصناعته ، وقراءته وكتابته ، ولولا أن مثل هذه الآيات تتوشح باسم المتنبي ، ويحيط بها دالة من صيته وجلاله - لما رُزقت بقاء ، ولذهبت كما يذهب الزبد جفء . ولقد كنا نتمس المعاذير المتنبي في مثل هذا الإسفاف والالتواء والغموض والإيهام ، لو أنه حاول معنى دقيقا ، أو عاجل خيالا عميقا ، فاستعصى عليه اللفظ ، ونفر منه البيان ، ولكن ، أي عذر لمن يردد هذه المعاني التافهة ، ويلقي عليها الغموض بسوء أدائه ، وضعف أسلوبه ؟

تأثير أبي تمام في غزل المتنبي :

ولقد أساء المتنبي في شبابه إلى شعره ؛ لاتباعه سنن أبي تمام ، وتوخي طريقته ، وترسم آثاره ، والطبع على غرار . لأن شهرة أبي تمام في هذا العهد قد طبقت الآفاق ، وملأت سمع الزمان ، ومنزلته بين أهل اللغة والأدب في هذا العصر ، لا يطمح إليها إلا كل بعيد الهمة ، فسيح أفق الأمل ، كالمثني . ومن ذا يتعلق بأذيال الشهرة ، ويركب إليها ظهر كل شمس وذلول غير المتنبي ؟ لقد كان أبو تمام يتحذاق في أسلوب الخطاب ، ويرسل فيه صوت الطبل ؛ خصوصا في مطالع القصائد .

وكان مولعا بالتتقيب عن حوشى الألفاظ ، والبحث فى زوايا الإغراب ،
 فيثير منها الصيغ الشاذة ، والتراكيب الجافية ، ثم يتخذ من البديعيات والزينة
 اللفظية مراهم تلين هذه الجفوة ، وتخفف من وقع هذه الكزازة ، فأراد المتنبي
 أن يكون كذلك ، حتى يقول الناس : إن أبا تمام بعث من مرقده ، فى أسلاخ
 المتنبي وأجلاده ، فاشتد طلبه للصنعة اللفظية ؛ اقتداء بأستاذه ، إلا أن المتنبي لم
 يكن فى سجيته قبول هذا المسلك ، لما كان عنده من بداهة الخاطر ، وحدة البادرة ،
 فأضرب به التكلف والتعمل ، وسنعرض عليك صوره غزلية من قصيدتين متحدتين
 فى الوزن والروى ، ترى فيها مقدار ما أساء المتنبي إلى طبعه ، وأزرى بشاعريته ،
 حينما قسرها على التقليد ، وهبط بها فى مهوى المحاكاة :

قال أبو تمام يمدح أبا المغيث موسى ، بعد هجائه : —

أَقْشَيْبَ رَبْعَهُمْ أَرَاكَ دَرِيسَا	وَقَرَى ضِيُوفَكَ لَوْعَةً وَرَسِيْسَا
وَلَنْ حُبِسْتَ عَلَى الْبَلَى - لَقَدْ اغْتَدَى	دَمْعَى عَلَيْكَ إِلَى الْمَمَاتِ حَبِيْسَا
قَدِمًا ، كَأَنْ أُمَيِّمَ كَانُوا سَاكِنَا	لَكَ ، وَالْعَالِيقُ الْآلَى ، وَجَدِيْسَا
وَأَرَى رَسُومَكَ مَوْحِشَاتٍ بَعْدَمَا	قَدْ كُنْتَ مَأْلُوفَ الْمَحَلِّ أَنْيْسَا
وَبَلَاغًا ، حَتَّى كَأَنْ قَطِينَهَا	حَلَفُوا يَمِينًا أَخْلَقْتَكَ غَمُوسَا
أَتُرَى الْفِرَاقَ يَظُنُّ أَنَّى ذَاهِلٌ	عَنْهُ ، وَقَدْ لَمَسَتْ يَدَاهُ لَمِيْسَا
رُودٌ ، أَصَابَتْهَا النَّوَى مِنْ خُرْدٍ	كَانَتْ بِدَوْرٍ دَجْنَةٌ وَشُمُوسَا
يَبْضُ يُدِرِّنَ عَيُونَهُنَّ إِلَى الصَّبَا	فَكَأَنَّهُنَّ بِهَا يَدْرِنَ كَثُوسَا
وَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى	وَجَنَاتِهِنَّ ضَحَى أَبُو قَابُوسَا
قَدْ أَوْتَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَهْجَةً	وَدَدًا ، وَحَسَنًا فِي الصَّبَا مَغْمُوسَا
لَوْلَا حَدَاتُهَا ، وَأَنَّى لَا أَرَى	عَرْشًا لَهَا ، لَظَنَنْتَهَا بَلْقِيْسَا

ماذا تسمع من هذا الشعر ، وماذا ترى ؟ تسمع قعقة ولا ترى طحنا ،
 يطرُق سمعك جرس ، دريسا ، وريسا ، وبلاغا ، والعاليق الآلى ، وجديسا ،
 وبودور دجنة ، وشموسا ، . فتظن أنك تسمع شيئا ، فإذا سكن هذا الطنين حول

مسمعك ، فلن تجد شيئا . وكان أبو تمام رجلا فخرا ، زاهر البحر . لا يعظم عليه أن يقيم لك الدنيا ويقعدها بالفاظه ؛ إذا كان مدوحه لا يملا نفسه ، ولا يدخل في قلبه ، وهذا أبو المغيث ، قد لطنه أبو تمام بهجائه ، وأقذع في تجريحه ، ثم عن له أن يسترضيه ويمدحه ؛ ليصلح من نفسه ، ويستل من ضغنه . فذق عليه طول الألفاظ ، ورعود الأساليب ؛ لأن المعاني لا تصدقه ، والخيال لا يواتيه . ولقد أراد السيد المتنبي أن يعارض أبا تمام في هذه القصيدة في مدح محمد بن زريق الطرسوسي فقال :

هَذِي ، بَرَزْتُ لَنَا ، فَهَجَّتْ رَسِيْسَا	ثُمَّ اثْنَيْتِ ، وَمَا شَفَيْتِ نَسِيْسَا
وَجَعَلْتِ حَظِّي . نَكَحَ حَظِّي فِي الْكَرَى	وَتَرَكَتِنِي لِلْفَرْقَدَيْنِ جَلِيْسَا
قَطَعْتِ ذِيَاكَ الْخُمَارَ بِسَكْرَةٍ	وَأَدْرَتِ مِنْ خَمْرِ الْفِرَاقِ كُثُوْسَا
إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً - فَإِنَّ مَدَامِعِي	تَكْفِي زَادَ كُمْ ، وَتُرْوِي الْعِيْسَا
حَاشَا لِمِثْلِكَ أَنْ تَكُونَ بِخِيْلَةٍ	وَلِمِثْلِ وَجْهِكَ أَنْ يَكُونَ عَبُوْسَا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكَ أَنْ يَكُونَ مُنْعَاً	وَلِمِثْلِ نَيْلِكَ أَنْ يَكُونَ خَسِيْسَا
خَوْذُ جَنَّتِ يَنِي وَيَنْ عَوَازِلِي	حَرْبَا ، وَغَادَرَتِ الْفَوَادُ وَطِيْسَا
يَبْضَاءُ يَمْنَعُهَا (تَكَلَّمَ) دَلُّهَا	تَبِيهَا ، وَيَمْنَعُهَا الْحِيَاءُ تَمِيْسَا
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا	هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَايِنُوْسَا

ما كان أغناك يا أبا الطيب عن التردى في حفرة التقليد ، لقد أصبحت غرابا وأنت قطاة ، إن لك من حدة الذهن ، وسجية النفس ، وسرعة الخاطر ما يلبسك ثوب الشاعر ، فكيف تسير في فيافي أبي تمام ، وتسرى في دجاه ، وهو الذي لقح الشعر في زمانه بلقاح الفساد ، وأفشى فيه جرائم الصناعة ، لقد طرت في جوه فلم ترتفع إلى سمائه ، وإن كنت في قصيدتك أبين منه شاعرية ، وآنسَ

لفظاً ، ولكنك أسففت وتفلسفت ، فسقطت وجاوزت حد المألوف في نظم الكلام ، حينما قلت : « خسيسا ، وتميسا ، وجالينوسا ، ولقد كنت سخيفاً السخف كله ، فازريت بعقريتك وحكمتك حينما قلت :

حَاشَا لِمَلِكٍ أَنْ تَكُونَ بِخِيَلَةٍ وَلِمِثْلِ وَجْهِكَ أَنْ يَكُونَ عَبُوسًا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكَ أَنْ يَكُونَ مُمْنَعًا وَلِمِثْلِ نَيْلِكَ أَنْ يَكُونَ خَسِيسًا
أى « شويعر أو متشاعر » - كما يقول المتنبي - يعظم عليه أن ينظم مثل هذا الكلام في فتوره وفسولته وتفاهته ؟ .

وإنا لنغبط المتنبي حقه ، إذا قلنا : إن كل غزله في صباه ضربت عليه الصناعة والتعمل رواقاً ستر بهاءه ، وذهب بجماله ، أو قلنا : إن كل غزل جال بخاطره في صباه لم يفصح عنه لفظه ، أو لم تتجمله عبارته فسارت فيه الظنون . تجببط في يدها الحدس والتخمين . وإن لآبي الطيب في الشباب لغزلاً ، لا يدرك مداه في السلاسة والانسجام ، وتصوير إحساس النفس وعواطفها ، تصويراً صادقاً ؛ لأنه تحاشى فيه التقليد ، وسار وراء طبعه ، فجاء مثلاً كاملاً للفصاحة والفن ، كقوله :

عَزِيزُ إِسْمٍ مَنْ دَاوَاهُ الْحَدَقُ النَّجْلُ	عَيَّاهُ بِهِ مَاتَ الْمُحِبُّونَ مِنْ قَبْلِ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إِلَيَّ ، فَمَنْظَرِي	نَذِيرٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْهَوَى سَهْلٌ
وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ بِمَدِّ لَحْظَةٍ	إِذَا نَزَلَتْ فِي قَلْبِهِ رَحَلَ الْعَقْلُ
جَرَى حُبُّهَا تَجَرَّى دَمِي فِي مَفَاصِلِي	فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بِهَا شُغْلُ
سَبَّحَنِي بِدَلِّ ذَاتِ حُسْنٍ ، يَزِينُهَا	تَكْحُلُ عَيْنَيْهَا ، وَلَيْسَ بِهَا كُحْلُ
كَأَنَّ لِحَاطَ الْعَيْنِ فِي فَتْكِهِ بِنَا	رَقِيبٌ تَمَدَّى ، أَوْ عَدُوٌّ لَهُ ذَحْلُ
وَمِنْ جَسَدِي لَمْ يَتْرُكِ السَّقَمُ شَعْرَةً	فَمَا فَوْقَهَا ، إِلَّا وَفِيهَا لَهُ فِعْلُ
إِذَا عَذَلُوا فِيهَا ، أَجَبْتُ بِأَنَّهُ :	حُبِّيَّتَا ، قَلْبَا ، فَوَادَا ، هَيَا جُمْلُ !

كَأَنَّ رَقِيًّا مِنْكَ سَدَّ مَسَامِعِي عَنِ الْعَذْلِ، حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ
كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي، فَيَبْنِيهِمَا فِي كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ
أَحِبُّ الَّتِي فِي الْبَذْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

ألا ترى أنك حينما تقرأ هذه القطعة ثم تقرأ القطعة السينية السابقة ، تزعم أن المتنبي قد لبس بردين ، وتقمص شخصيتين ، وأنه في القطعة الأولى من سُرَّاق القوافي ، المتطفلين على موائد غيرهم ، والمتحلين للصبابة والغرام ، وأنه من الذين يقيمون هيكل القصائد من أحجار صماء ، لاهية في جسمها ، ولا ماء في وجهها ؟ هذا إلى فساد المعنى ، واضطراب المبني ، وغثاثة اللفظ ، وسقم الأداء . وهو في القطعة الثانية محب تجده صادق الحب ، يصدر عن معين النفس وفيض الخاطر . وينساب منه القول ، انسياب العذب الزلال الصافي على حصباء كالدرر ، فهذي ساحرة بصفائها ، وتلك فاتنة ببياضها . وقد أجرى قصة هذه الآيات حول اللحاظ الفاتكة ، والأحداق القاتلة ، التي أصابته فأردته ، وامتزجت نصالها بلحمه ودمه ، فأصبح أسيرا لها ، مشغولا بها عن سواها ؛ حتى احتل السقم كل جزء من جسمه ، وأصبح اللحظ شديد السطوة ، قوى الشر ، كأنه الرقيب يقتحم المنزل ، ويهتك الستر على حين غفلة ، أو العدو تثير الريبة حفيظته ، وتبعث تقمته ، وهو إلى هذا العذاب الذي يلقاه من سهام طرفها ، لا يسمع فيها لوم عاذل ، أو قول كاشح ، ولكن الأنين الذي ينبعث من أعماق قلبه ، وصميم نفسه ، يهتف بفؤاده وبجبيته ؛ لأن كليهما ممتزج بالآخر امتزاجا ، لا يفصله عذل أو ملام ، فكأنها سيطرت على كل حواسه ، فسدت عن العذل مسامعه ، وحالف السهد مقاته ، وهو لم يذكر لك منها غصن البان . والردف الثقيل ، والخضر التحيل ، ولم ينبق رضا بها ولم تطربه منها وسوسة السوار والخلخال ، إلى غير هذه الأوصاف الجسمية التي تقرأها لأدعياء الشعر ، كأنهم يصفون دمي الشمع في حانوت مثال ، ولكنها ألوان النفس ، وخفقات القلب ، ورواية الحب العف البريء ، ساقها في لفظ حر وعبارة مصقولة ، هي السجرا أو أغرب ، لا ترى

في قوافيها قلقة ولا ضعفا ، ولا فتورا ولا نفورا . فعلى هذا نستطيع بحق أن نقول : إن المتنبي يسف ويسف ، ويتخبط في غزله ويضعف ، إذا حاول الصنعة أو جنح إلى التقليد ، ويسمو ويحيد ، ويقوى ويستقيم ، ويأسر ويبتكر ، إذا أطلق لسجيته العنان ، وجرى وراء خاطره . ومشى في ركاب طبعه .

ليقل من شاء : إن الحب لم يخامر قلب المتنبي ، وليقل من شاء : إنه كان غير مفتون بالمرأة ؛ بل إنه كان يزدرىها ويزنها وزن المتاع الرخيص ، ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه في أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يحملك بعد قراءته ، على أن توقن بأنه الفن والابتكار ، وغاية القدرة على الصقل والإخراج ، حتى لتظن أنه ممزوج بروح العاطفة ، وأن شاعريته سمت به عن جو الصبابة والغرام ، إلى سماء الوحي والإلهام ، وما علينا إذا كان المتنبي أحب أو لم يحب ، مادنا نقع في كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة ، وأرق ما يفيض به شعور المحبين .

وقد تجاذبه الصنعة المتكلفة والطبع النقي ، فترى له في بيتين متالين حنظلة إلى سكرة ، أو حصاة إلى جوهرة ، على أنه بما يدعو إلى العجب أن يتوج المتنبي كثيرا من غرر قصائده وطرائف غزله بطلاسم ومعميات ، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من تأثره بأبي تمام كما نوهنا : اقرأ البيت الأول من القصيدة التالية واقرأ البيت الثاني منها ، فلن تجد بينهما قرابة أو صلة ، فالأول لغز مقفل ، لارابطة بين عروضه وضربه ، ولا قوة في نسجه وسبكه ؛ على حين ترى البيت الثاني يهتز فرحا ومرحا في شطره الأول ، ويتماسك رصانة وجزالة في البيت الثاني ، وبينهما رباط قوى ، من اتصال متين ، ومعناه في لفظه يرغمك على أن تسمعه ، ومالى أطيل عليك القول في الشرح والتعليق ، وتلك آياته التي أعنى :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبْرِيحُ	أَغْدَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَغْنُ الشَّيْخُ ؟
لَعِبَتْ بِمَشِيَّتِهِ الشُّمُولُ ، وَغَادَرَتْ	صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ، لَوْلَا الرُّوحُ !
مَا بَالُهُ ؟ : لَا حَظَّتْهُ فَتَضَرَّجَتْ	وَجَنَانَتُهُ ، وَفَوَادِي الْمَجْرُوحِ

وَرَمَى، وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ، فَصَابَتْنِي سَهْمٌ يُعَذِّبُ، وَالسَّهَامُ تُرِيحُ
قَرُبَ الْمَزَارِ وَلَا مَزَارَ، وَإِنَّمَا يَغْدُو الْجَنَانُ، فَلَلْتَقِي، وَيَرُوحُ
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفْنَا تَعْرِضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ
لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُولُ تَقَطَّعَتْ نَفْسِي أَسَى، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ
وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا حَسَنُ الْعَزَاءِ - وَقَدْ جُلِينَا - قَبِيحُ
فِيدُ مُسْلَمَةٍ، وَطَرْفُ شَاخِصٍ وَحَشَا يَذُوبُ، وَمَدْمَعُ مَسْفُوحُ
يَجِدُ الْحَمَامُ، وَلَوْ كَوَجْدِي لَا نَبْرَى شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنُوحُ

إنه في البيت الأول يريد أن يقول ، ليكن تبريح الهوى وما يلقي العاشقون من جهده وأذاه شديداً عنيفا مثل ما ألقى منه ، وإلا فليس فيهم عاشق مثلي .
أقظنون هذا الرشا الذي أحبه يتغذى كما تتغذى غزلان الصحراء بنبات الشيح ؟
كلا ، إنه يأكل من قلبي ويتغذى بفؤادي حتى أنحلني وأمرضني ، فانظر أى مناسبة بين مصراعى هذا البيت ، وأين موضعهما من بداهة أبى الطيب ؟

ولا يفوتنا - قبل أن نغادر غزل المتنبي في صباه - أن نذكر له قدرته على تصوير مواقف الوداع ، وعبث الشباب ، ولوعة الغرام ، تصويرا دقيقا ، يجمع شتى المعاني في بيت واحد ، ويطويها تحت كلمات قليلة ، وينتقي لها من الألفاظ الموسيقية ما يلائم طبع الموقف الذي يصوره ، ويصوغها في مقاطع مرقصة ، ونبرات تهز الشاعر وتنعش النفس ، تقرأها فكأنك تمر على قصة طويلة ذات فصول وأحداث ، فتؤمن بان المتنبي في مثل هذه الأبيات شاعر روائى ، ومصور موسيقى ، يحكى أن المتنبي برح به الحب ، وأذوى عوده الوجد ، حتى انبرى جسمه ، واصفر وجهه ، فلما بصرت به محبوبته على هذه الحال ، أنكرت ما به ، وجزعت لمصابه ، وتساءلت في غيظ وإشفاق : ترى ، من الجانى المتجرم الذى صيره إلى ما أرى ، وأصابه بما أذهلنى ؟ ثم أرسلت من فؤادها زفرات مستعرة حرقت كبدها جزعا عليه

ورحمة به ، فاجابها المتنبي في ذلة وانكسار ، وقد أنكر جزعها ، واستشفع بحاله اليها : إن من جنى على السقم والنحول هو من يعجب لحالي ، ويشفق بما بي ، هو أنت يا قاتلي ! إن بدع المتنبي وإعجازه يسوق اليك هذه القصة كاملة في بيت واحد :
قَالَتْ - وَقَدْ رَأَتْ أَصْفَرَ أَرَى - مَنْ بِهِ ؟

وَتَنَهَّدَتْ ، فَأَجَبَتْهَا : الْمُتَنَهَّدُ !

وقد أراد مرة أن يحكى امتناع ظيئته عليه ، ونفورها منه ، وأنه إذا ضاق ذرعا بقنصها فنفر منها ، وانتبذ مكانا بعيدا منها ، دنت منه لتخدعه ، وتوقعه في شركها ؛ فإذا هم أن يدنو منها نفرت هي منه وهربت من بين يديه ، فإذا أراد مداعبتها أجفلت وجفت ، وإذا هم أن يقبلها أبت وامتنعت . هذه الصورة العابثة المأجنة الحائرة المستهرة يصورها لك المتنبي في قوله :

أُنْأَيْتُهُ فَدَنَا ، أذْنَيْتُهُ فَنَأَى جَمَشْتُهُ فَنَبَا ، قَبَلْتُهُ فَأَبَى !

أرأيت جرس المقاطع ، وحسن المطابقة والمقابلة ، كيف وقع في موضعه وحل في مكانه ؟ وكيف اختار أرق الألفاظ وأسهلها على السمع ، ليصور بها موقف العبث واللغو ، وكيف أنها تطرب وترقص من لا يرقص ؟

هات الراسمة وخذ متحايين في موقف وداع ، فید إلى يد تقبض كل منهما على الأخرى بجمرة وتحرق ، وعین إلى عین ، تقرأ كل منهما في الأخرى لوعة البین وتباريح الفراق ، وهات أشعة ، إكس ، لترى بها كيف تصطلي الأحشاء بنار الغرام ، ثم هات منديلک وامسح عن عین كل منهما عبرة تترقق ، ودمعة تتحدر ، هات كل أولئك . فلن تبلغ في دقة تصوير الموقف ما بلغ المتنبي بقوله :

فَيَدُ مُسَلِّمَةٍ ، وَطَرْفُ شَاخِصٍ وَحَشًا يَذُوبُ ، وَمَدَمٌ مَعَ مَسْفُوحٍ

هناك من المعاني ما يدور في كل خاطر ، ومن الأشباح ما يقع أمام كل ناظر ، ولكن لأبي الطيب افتنان ومهارة ينفثان السحر في معانيه البديهية ، فيجعلها جديدة طريفة ، شديدة الوقع ، عذبة اللحن في أذن السامع كقوله :

نُعْجُ مَحَاجِرُهُ، دُعْجُ نَوَاطِرُهُ مُمْرُ غَفَائِرُهُ، سُوْدُ غَدَائِرُهُ
 ماذا في هذا البيت ، غير أنها بيضاء المحاجر ، سوداء النواظر ، حمراء القناع ،
 فاحمة الشعر ؟ ولكن الجمال فيه جاء من السبك الحسن والموسيقى البديعة .

غزل المتنبي في صراع سيف الدولة :

إذا سمعت أن سيف الدولة رفع أبا الطيب مكانا عليا ، لم يبلغه سواه من
 الشعراء ، وأنه أفاض عليه الخير وأغدق عليه من العطاء ، وأنه ترك غرائزه
 تنفس بالتيه والخيلاء ، فكان ينشده جالسا ويلزمه في حله وترحاله ، ويقاسمه
 طعامه وشرابه ، ويشهد سراهه وضراهه - ظننت أن الفنَّ والإجادة والطبع ،
 والقدرة على التصرف بأزمة الكلام ، لزمَت شعر أبي الطيب في هذا العهد وعلى
 الأخص غزله ونسيبه ، فإذا مضيت في قراءة مدائح سيف الدولة سبق إلى ذهنك
 خواطر ثلاثة : -

• أولها ، التحرر من الغزل في مطالع معظم مدائحه ، والهجوم على المديح
 فجأة في كثير منها .

• ثانيا ، ظهور الصنعة والتكلف ، والخروج إلى ما وراء الطبع والسجية في
 هذا الغزل القليل ، وصوغه من الألفاظ ذات الطنين ، التي لا تشتف منها معنى
 رقيقا أو خيالا عميقا ، ولا تدرك في جرسها اتساقا أو انسجاما .

الخاطر الثالث : دوران الألفاظ البدوية ، في كل غزل تقدم مدح سيف الدولة
 وهذه الألفاظ لا تكاد تراها بتلك الكثرة إلا في شعر الجاهليين : كالطلل
 والركب ، والربع والرسم ، والسحاب والرياح ، والوحش والآرام ، والطاعنين
 والدمن والعربات والآكوار . وهذه الملاحظات التي تبدو للقارئ في مدائح
 أبي الطيب لسيف الدولة ، تدعو إلى النظر ، والتماس العلة ، لأن أبا الطيب - كما
 قلت - من الذين يؤثرون النسيج على منوال الشعر المأثور ، وهو الذي يقول
 • إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم ، فما باله ينجح عن طريقه ، ويميل عن مبدئه ؟
 الحق أن أبا الطيب لم يكن قريير العين ، ينام ملء جفونه عن شوارد القوافي - كما

يزعم - وهو في صحبة سيف الدولة ؛ ذلك بانه كان يقف بباب سيف الدولة ، عند اتصال المتنبي به ، أفاضل العلماء والأدباء والشعراء ، وكلهم حاقده عليه ، لمكاته من الأمير ، وكلهم ملتصق للهنات والسقطات في شعره ؛ هذا إلى أن سيف الدولة نفسه كان أديبا شاعرا ، وأن كثيرا من أهل بيته كانوا أدباء وشعراء ، ومنهم من كان يفوق المتنبي في شعره أحيانا ، ويعرض لشعره بالنقد والتزيف ، كأبي فراس ، فكانت هذه الأمور كلها تحمل المتنبي على كد ذهنه ، وشحذ قريحته ، والمبالغة في التحري ، وقسر الألفاظ على ما لا تتحمل من المعاني ، وضغط المعاني تحت ماتكره من الألفاظ ، فتقلب سجيته صنعة وتكلفا ، ويتورط فيما كان يتوقاه ويدل الناس على عييه ، ويمهد لهم سبيل نقده . وكان خصوم المتنبي يرغبون في إحراجه ، فيعمدون إلى الاقتراح عليه أن يمدح سيف الدولة لحادثة تطرا ، أو أمر يحدث ، فلا يسعفه الزمن ، ولا تنيله القريحة ما يريد ، من غزل أو تشبيب ، فيدعو هذا وذاك إلى المديح رأسا ، أو التعرض لذكر الحرب أو الطرد ، أو التعريض بمحمد خصومه عليه ، فيعرض مكرها عن الغزل والمديح ، إلى الغرض المقصود . ولقد كان أبو الطيب مفتونا بالبدواة ، شديد الاعتزاز بالعروبة ، وكان سيف الدولة هو الباقي من فلول القوة العربية ، وعليه تعقد الآمال ، وبه يناط الرجاء في إعادة ما اندثر من مجد قومه ، والتسلط على ما تمزق من ملكهم ، فكان المتنبي يشنى فؤاد سيده بذكر الصحراء وما إليها ، مما يرتبط بقومه ، ويتصل بعهدهم السالف . ليعث فيه حمية العصية ، فيذكر الدمن والأطلال ، والركب والآرام ، فلم يوفق المتنبي لارضاء الفن ، لأن المؤثرات التي كانت تحيط به ، وضعته تحت عوامل ترضى الظروف ، وتغضب الشعر ، وتدل على القدرة على نظم الكلام ، وطول البال وسعة الاطلاع على مفردات اللغة ، ولكنها لا تدل على روح شاعر أو طبيعة موهوب ، فأين تشبيهه في مدح الأمير أبي الحسن بن طنج ، قبل أن يتصل بسيف الدولة ، وقبل أن ينتشر في الآفاق صيته حيث يقول : -

دِيَارُ اللَّوَاتِي دَارُهُنَّ عَزِيْزَةٌ بِطُوْلِی الْقَنَا یُخَفِّظُنَّ ، لَا بِالتَّائِمِ
حِسَانُ التَّنْبِي ، یَنْقُشُ الْوَشْیَ مِثْلَهُ - إِذَا مِسنَ - فِیْ أَجْسَامِہِنَّ النَّوَاعِمِ -

وَيَبْسِمَنَّ عَنْ دُرٍّ تَقْلَدَنَّ مِثْلَهُ كَانَ التَّرَاقِي وَشَحَّتْ بِالْمَبَاسِمِ
 أين هذا من غزله في مدح سيف الدولة حيث يقول:
 بِلَادٌ إِذَا زَارَ الْحَسَانَ بَغِيرَهَا حَصَى تُرْبَهَا ثَقْبُهُ لِلْمَخَانِقِ
 سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلْبُلِي مَلِيحَةً عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَغْدِهَا ضَوْءُ صَادِقِ
 سِهَادٌ لِأَجْفَانٍ، وَشَمْسٌ لِنَاطِرٍ وَسُقْمٌ لِأَبْدَانٍ، وَمِنْكَ لِنَاشِقِ
 وَأَغِيدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ، وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ
 في أول بيت من القطعة الأولى ، يتغنى بأن ديار من يحبهن عزيزة منيعة ؛
 تحميهما الرماح الطويلة ، لا التهامم والعود ، فهذا معنى شريف في لفظ ظريف ،
 وسبك رصين .

وفي البيت الأول من القطعة الثانية ، حيث يمدح سيف الدولة ، يتغنى بأن
 هذه البلاد إذا حمل حصاها إلى النساء الحسان في بلد آخر ، جعلته قلائد ؛ لحسنه
 ونفاسته ، فأين هذا المعنى من الذي قبله ؟ وأين التعقيد والاتواء والخفاء في هذا
 البيت ، من وضوح أبلج مثل غرة الصبح ، وأشهر من شمس النهار في البيت الذي
 قبله ؟ وأين الخيال الرائع والأنوثة الفاتنة ، والانسجام العذب الذي يلقاك
 حينما تقرأ :

حِسَانُ الثَّنْيِ يَنْقُشُ الْوَشْيَ مِثْلَهُ إِذَا مِسْنٌ فِي أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ
 وَيَبْسِمَنَّ عَنْ دُرٍّ تَقْلَدَنَّ مِثْلَهُ كَانَ التَّرَاقِي وَشَحَّتْ بِالْمَبَاسِمِ
 ألا ترى أن ، الثنْيِ والوشْيِ والدر والتراقي والمباسم ، كلها خلقت للغزل
 وصيغت من معدن الرقة . فإذا وضعتها إلى جانب ما في الآيات الأخرى من
 قطر بلي وكاذب وناشق وعادل وفاسق ، أيقنت أن المتنبي غير شاعر فيها وأنه
 يصدر عن غير طبع . وأكثر ما قال في سيف الدولة من غزل لا يخلو كما قلت من
 الألفاظ البدوية كقوله :

ذِكْرُ الصَّبَا وَمَرَاتِعِ الْآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

دِمَنْ تَكَاثَرَتِ الْهُمُومُ عَلَى فِي عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثُرِ الْأَوَامِ
وَكَاَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا تَبْكِي بِعَيْنَيَّ عُزُورَةَ بْنِ حِزَامٍ

وبما يسترعى النظر ، أن غزله في مدح ابن العميد كان سخيفاً ، فقد كان يعلم أن ابن العميد أديب شاعر ، وكان هذا العلم يخرج منه من طبعه ، إلى التكلف الممقوت ، والصناعة الرخيصة .

وكان يمدح عضد الدولة أيضاً مكرهاً متكلهاً ؛ لكرامته الفرس .

وإليك قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ، وهو في الكوفة ، بعد عودته من مصر ، وهي قصيدة تفيض رقة وسلاسة وحمية واشتياقاً ، لأن البعاد أثر فيه ، والأيام نالت منه ، والغربة هذبت من شموسه وهي ؟

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوِيَّارَ سُولُ ؟ أَنَا أَهْوَى ، وَقَلْبِكَ الْمَتَبُولُ !
كُلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثَتْ إِلَيْهَا غَارَ مِثْنِي وَزَادَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ يَدُنَا الْأَمَانَاتِ عَيْنَا هَا وَخَانَتْ قُلُوبُهُنَّ الْعُقُولُ
تَشْكِي مَا اشْتَكَيتُ مِنَ أَلَمِ الشَّوْقِ قِ إِلَيْهَا ، وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبِي فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ
زَوْدِنَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَاذَا مَ فَحَسَنُ الْوُجُوهِ حَالُ تَحْوُلُ

إن ذكرى الماضي وما عانى المتنبي في غربته ، ذلك من جموحه وأذلت عواطفه ، فصاغ ألحانه في هذه القصيدة من ذوب القلب ، وخلاصة الشعور ، وصميم النفس .

« وخلاصة القول ،

١ - أن شعر المتنبي سجل لتاريخه ، صورة لنفسه ، إلا غزله ؛ فإنه كان ألواناً على حسب الظروف والأحوال ، ولم يؤثر أنه وقع في شرك الغرام أو لبي داعي الصباية .

- ٢ -- كان المتنبي في صباه يقلد غزل أبي تمام في أحيان كثيرة، فيتكلف ويسخف، فإذا ما سار وراء طبعه رأيته يرق ويلطف .
- ٣ - للمتنبي في صباه قدرة على تصوير الوداع ولوعة الغرام وعبث الشباب تصويرا دقيقا لم يسبق إليه ، وكان يعتصم بالموسيقى والفن إذا لم يسعفه المعنى الدقيق والخيال العميق .
- ٤ - كانت المنافسة الشديدة بينه وبين الشعراء في بلاط سيف الدولة تحمله على الصنعة والتكلف فيقع في التعقيد .
- ٥ - إن العطاء الجزل، وخلو الجوله في مصر، جعل غزله في كافور من حر القول، وخير القريض، فلما رحل إلى خراسان أعاده الخصوم من الشعراء إلى التكلف .
- و كنت أود لو أجد الوقت والذهن المستريح ، لأكتب في غزل المتنبي خيرا من ذلك ، ولكنه جهد المقل ، وبضاعة المكدرود .

مسن علوانه



إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ

بقلم

محمد يوسف المعجوب

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية الاميرية للبنات

مِنْ عَالَمِ الْخُلْدِ نَحْوَ الْعَالَمِ الْفَانِي أَشْرِقَ ، وَأَسْعَدَ بَوَاحِي مِنْكَ تَبْنَانِي
 وَاشْرُ عَلَى مُهْجَتِي سِحْرَ الْقَرِيضِ ؛ فَمِنْ صَفَى لَحْنِكَ قَدْ أَصْفَيْتُ وَجْدَانِي
 أَشْرِقَ عَلَى ؛ فَأَنْتَ الثَّوْرُ يَغْمُرُنِي وَأَنْتَ مَشْرَعُ آمَالِي وَتَخَنَانِي
 عَلَّمْتَنِي الْمَجْدَ فِي الدُّنْيَا فَعِشْتُ بِهِ هَيْمَانَ : أَهْوَاهُ فَتَاكَ - وَيَهْوَانِي ^(١)
 أَلْهَمْتَنِي الْحُبَّ فِي الدُّنْيَا فَرُحْتُ بِهِ مُرَدِّدًا لِأَغَارِيدِي وَالْحَانِي
 عَلَّمْتَنِي : كَيْفَ أَجْزَى النَّاسَ وَدَّهْمُ بَمَا أَرَادُوا ، عَلَى شَكِّ وَإِيمَانٍ ^(٢)
 وَكَيْفَ أَسْكِنُ سِرِّي مَوْضِعًا عَجَزْتُ عَنْ أَنْ تُسَاوِرَهُ رَاحِي وَنَدْمَانِي ^(٣)
 وَكَيْفَ أَغْنِي عَنْ الْوَطَانِ إِنْ جَحَدْتُ قَدَرِي الْأَصَاحِبُ مِنْ أَهْلِ وَأَوْطَانٍ ^(٤)

إشارة إلى قول أبي الطيب :

- (١) : ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتك البكر
- (٢) : ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
- وصرت أشك فيمن أصطفيه ؛ لعلني أنه بعض الأنام
- (٣) : وللسر مني موضع لا يناله نديم ، ولا يفضي إليه شراب
- (٤) : غنى عن الأوطان ، لا يستغزني إلى بلد سافرت عنه إياب

وَكَيْفَ أَصْدَى، فَلَا يَهْفُو الْفَوَادُ إِلَى وَرْدٍ يُكَدِّرُهُ تَعْيِيرُ مَنَانٍ^(١)
 وَكَيْفَ أَمْنَحُ مِنْى الْخَوْدَ سَاعَتَهَا وَكَيْفَ أَنَاى وَأَعْلَى (بَعْدُ) بُنْيَانِي^(٢)
 وَكَيْفَ أَلْقَى زَمَانِي غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ رُوحِي فِيهِ جُثْمَانِي^(٣)

يَا «أَحْمَدَ» الْقَوْمِ آثَارًا، وَأَبْعَدَهُمْ شَاوَا، وَأَخْلَدَهُمْ فِي عُمُرِهِ الثَّانِي
 مَرَّتْ بِكَ الْأَلْفُ، لَمْ يَنْسَ الزَّمَانُ وَلَا أَبْنَاؤُهُ وَحَى غَيْثٍ مِنْكَ هَتَّانِ
 وَمَا السُّنُونُ - وَإِنْ طَالَتْ - بِمَاحِيَةٍ ذِكْرَكَ. أَنَّى، وَأَنْتَ الْهَادِمُ الْبَانِي؟
 هَدَمْتَ نَجْدَ أَنْاسٍ كَانَ غَرَّهُمْ زَيْفٌ مِنَ الْجَاهِ لَمْ يُدْعَمْ بِأَزْكَانِ
 فَرُخْتَ تُصْلِيهِمْ بِالْقَوْلِ مُنْصَلِتًا أَقْوَى وَأَفْتَكَ مِنْ مَشْبُوبِ نِيرَانِ
 حَتَّى تَرَكْتَ وَجْوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْقَوْمَ فِي حَيْرَةٍ أَوْ مَسَّ شَيْطَانُ^(٤)!
 سَلَّ مَنْ مَدَخْتَ، وَسَائِلَ مَنْ هَجَوْتَ، وَمَنْ رَثَيْتَ، كَيْفَ مَضَى كُلُّ بِعْمُونٍ :
 أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مِنْ عَرْشٍ وَتِيْجَانِ أَبْقَى عَلَى مُدَحِّوَا
 وَبَاءَ بِالْعَارِ مَنْ كَلَّتَ الْهَجَاءُ لَهُمْ فَسَالَمُوكَ عَلَى خِزْيٍ وَخِذْلَانِ
 وَفَازَ بِالْخُلْدِ مَنْ صُغَّتِ الرِّثَاءُ لَهُمْ فِي رَائِعِ الْقَوْلِ، مِنْ دُرِّ وَعَقِيَانِ

إشارة إلى قول المتنبي : -

- (١) : وأصدى ، فلا أبدي إلى الماء منه وللشمس فوق اليعملات لعاب
 (٢) : وللخود منى ساعة ، ثم بيننا فلاة ، إلى غير اللقاء تجاب
 (٣) : لا تلقى دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
 (٤) : لا تترك وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

فَكَيْفَ يَنْسَاكَ دَهْرٌ قَدْ تَرَكْتَ بِهِ فَيَضَامِنَ الشَّعْرُ يَسْتَقِي كُلُّ وَجْدَانٍ ؟
وَمَا السُّنُونُ إِذَا مَارُحْتَ تَحْسُبُهَا ؟ أَلْفٌ كَعَامٍ - إِذَا مَرَّتْ - وَأَلْفَانِ .

نَمُرُ بِالزَّمَنِ الْبَاقِي ، فَنَحْسِبُهُ يَفْنَى ، وَمَا نَحْنُ إِلَّا الْجَانِبُ الْفَانِي !
الدَّهْرُ أَبْقَى - عَلَى الذِّكْرِ - وَأَخْلَدَ مِنْ جِسْمٍ ، يُطَالَعُنَا فِي زِيٍّ إِنْسَانِ !
جِسْمٌ يُضِيءُ إِلَى حِينٍ ، وَيَفْجُوهُ غُولُ الْفَنَاءِ ، فَيَمْسِي رَهْنًا أَكْفَانِ
مَنْ ذَا يُخْلِدُ رُوحَ الْمَرْءِ ، إِنْ فَنِيَتْ دُنْيَا الْجُسُومِ ، وَرَاحَتْ طَيِّئَ نِسْيَانِ ؟
الشَّعْرُ يَذْكُرُهَا ، وَالشَّعْرُ يَنْشُرُهَا ، وَالشَّعْرُ يُضْفِي عَلَيْهَا ظِلَّهُ الْحَانِي ،
وَيُسْمِعُ الدَّهْرَ وَالْأَجْيَالَ آيَتَهَا فَيَاضَةً بِشَجِيٍّ اللَّحْنِ فِتَانِ !

الشَّعْرُ كَالدَّهْرِ - إِنْ أَبْدَعْتَ آيَتَهُ - كِلَاهُمَا فِي سِجِلِّ الْخُلْدِ صُنُوانِ !
مَا الْحُسْنُ ؟ مَا الرُّوضُ ؟ مَا الْأَزْهَارُ بِاسْمَةٍ ؟ مَا الطَّيْرُ سَاجِدَةً فِي ظِلِّ أَغْصَانِ ؟
مَا الْجَذُولُ السَّلْسَبِيلُ الْعَذْبُ مُطَرِّدًا ؟ مَا الدَّوْحُ ؟ مَا الرُّوحُ مِنْ وَرْدٍ وَرِيحَانِ ؟
مَا هَذِهِ كُلُّهَا - إِنْ رُحْتَ تَطْلُبُهَا - إِلَّا إِذَا شَفَّ عَنْهَا رُوحُ فَنَانِ ؟
وَمَنْ ، سِوَى الشَّاعِرِ الْمُوهُوبِ ، يُبْدِعُهَا لَحْنًا ، يَنْبِيءُ إِلَيْهِ اللَّاغِبُ الْعَانِي ؟ ؟ .

يَانَا بَهَ الذِّكْرُ ، صَوَّرْتَ الْحَيَاةَ عَمَّا يَظَلُّ مُعْتَلِجًا فِي كُلِّ وَجْدَانِ :
إِنْ نَتَشَدُّ الْحِكْمَةَ الْوَضَاءَ جَانِبَهَا نَظْفَرُ بِهَا مِنْكَ ، فِي حِذْقٍ وَإِتْقَانِ
وَأِنْ تَطَالِعَ فُؤَادًا خَاجَةً ، وَجَدْتَ لَدَى يِيَانِكَ عَنْهَا خَيْرَ مِعْوَانِ

أَذْرَكَتْ سِرًّا وَجُودٍ كُنْتَ تَقْطَعُهُ وَثَبًا ، وَغَيْرُكَ فِيهِ أَلْعَاجِزُ الْوَانِي
عُمْرٌ ، تَمَنَيْتَ أَنْ لَوْ نِلْتَ مُدَّتَهُ فِي غَيْرِ جِيلٍ زَنِيمِ الْأَصْلِ خَوَّانٍ^(١)
لَمْ يُمَهِّلُوكَ بِهِ ، فَاغْتَالَ جَاهِلُهُمْ حَيَاةَ فَضْحَى وَأَجْيَالٍ وَأَزْمَانٍ !
لَكِنْ بِحَسَبِكَ مَا خَلَفْتَ مِنْ أَثَرٍ نَحْيًا بِهِ بَيْنَ أَغْصَانٍ وَأَفْئَانٍ
وَيَسْتَقِي وَرْدَهُ الْفَيَاضَ فِي شَفَفٍ وَلَهْفَةٍ ، كُلُّ صَادِي الرُّوحِ ظَمْآنٍ ..

قُمْ ؛ تَبْصِرِ الشَّرْقَ رَاحَ الْيَوْمِ مُحْتَظِلًا يَشْدُو بِذِكْرِكَ : مِنْ شَامٍ لِبَغْدَانٍ
وَفِي حِمَى وَضْرٍ ، كَمْ دَارٍ ، لَكَ اخْتَشَدَتْ جُمُوعُهَا الْغُرُ ، مِنْ قَاصٍ وَمِنْ دَانٍ
وَفِي رَبَى الْقَرْبِ ؛ حَيْثُ الصَّخَبُ صَافِيَةً حَيَاتُهُمْ ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَعِيدَانٍ
مَا كَرَّمُوكَ بِهِمَا ، لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ قَدْ كَرَّمُوا ، وَأَقَامُوا خَيْرَ بُرْهَانٍ !
أَلَسْتَ مَا نَحِ فَضْحَاهُمْ نَضَارَتَهَا بِمَا ضَرَبْتَ بِهِ فِي كُلِّ مِيدَانٍ ؟

أَوْفَى وَأَكْرَمُ دَارٍ ، بَاتَ يُسْعِدُهَا صَفِيٌّ نَبْعِكَ فِي قَوْلٍ وَتَبْيَانٍ
« دَارُ الْعُلُومِ » عِتَادُ الشَّرْقِ ؛ مَنْ نَهَضَتْ بِالْمُسْتَفِيضِينَ : مِنْ شِعْرِ وَعِرْفَانٍ .
تُكْرَمُ الْيَوْمَ فِيكَ الْمَجْدُ ، يَنْفَعُهُ أَبْنَاؤُهَا الصَّيْدُ : مِنْ قُسٍ وَحَسَانٍ
« صَحِيفَةٌ » ، هِيَ أَصْفَى مَا نَقَدَّمُهُ ؛ حَتَّى يَكُونَ اللَّقَا فِي الْعَالَمِ الثَّانِي .

محمد يوسف المحجوب

إشارة إلى قول المتنبي :

(١) وقت يضع ، وعمر ايت مدته في غير أمته من سالف الامم

استدراك

لسبب خارج عن إرادتنا وقعت الأخطاء الآتية ، فتداركناها هنا :

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
١٩	٥	حسداً	حسداً	٩٩	٩	والرفهنية	والرفهنية
٢٥	١١	القضم	القضم	٩٩	١٧	نزاع	نزوع
٢٥	٢٠	النصال	النصال	٩٩	١٩	ويم	وأم
٢٩	١٠	هوان	هوان	٩٩	٢٠	وأكرم	وأكرم
٣٠	٣	فلَم	فلِم	١٠٠	٤	شرقي	شرقي
٣١	٤	صامت	صامت	١٠١	٨	فليُسعد	فليُسعد
٣٢	١٠	تفلح	تفلح	١٠١	١٨	عقال	عقال
٣٤	١٢	يذبحون	يذبحون	١٠٣	٧	إذا أقيسوا	إذا قيسوا
٣٨	١٢	زياد	زياد	١٠٤	٢٠	وشكى	وشكا
٤١	١٤	إذاً	إذا	١٠٨	١	فاذا	فلما
٤٤	٢١	النخ	المنخ	١٠٨	٣	أحاطه	حاطه
٤٥	١٨	عدو	عدو	١٠٩	٤	كافور	كافوراً
٥٨	١٠	النبوع	النبوغ	١٠٩	١٢	وشعر	وشعر
٦٢	١٤	بأنفس	بأنفس	١٠٩	١٧	المواضع	المواضع
٧٢	١	الرعء والبرق	البرق والرعد	١١١	٥	الأيام	الأنام
٩١	١٦	الاخشيدي	الاخشيدي	١١٢	٩	شخصية	حيثية
٩٤	١	بعده	بعده	١٥٢	١٢	جيش	جيشين
٩٥	٩	تعدّه	تعدّه	١٧٣	١٣	الرواية	الدوران
٩٨	١٤	إحسانه	إحسانه	١٩٣	٣	والتنبي	والتنبي
٩٩	٤	يعده	يعد	١٩٦	٢٣	وريسا	وريسا
٩٩	٤	يشرف	تشرف				

فهرس العدد الرابع من السنة الثانية

الصفحة	الموضوع	الكاتب
٣	الخطب الجلال	محمد على مصطفى رئيس التحرير
٤	دمعة دار العلوم على جلالة الملك الراحل (قصيدة)	على الجارم بك
١٠	تقديم	مدير الصحيفة (نجيب ختانه)
١٣	ذكرى المتنبي	رئيس التحرير
١٥	المتنبي (قصيدة)	محمود حسن إسماعيل - طالب بدار العلوم
١٧	أبو الطيب المتنبي	الدكتور أحمد ضيف - الأستاذ بدار العلوم
٢١	نشأة المتنبي	الشيخ عبد الوهاب النجار الأستاذ بدار العلوم سابقا
٢٣	ثقافة المتنبي	على النجدي ناصف - مفتش المعارف بملوى
٥٣	سر العبقريّة في المتنبي	طه طه عبد الفتاح - المدرس بينها الثانوية
٦٧	سر نبوغ المتنبي	على الجارم بك - المفتش بوزارة المعارف
٧٩	المتنبي وكافور	محمد هاشم عطية - المدرس بدار العلوم
٩٠	المتنبي في مصر	أحمد أحمد بدوى - بمدرسة بنى قادن الابتدائية
١١٣	المتنبي في مصر	على النجدي ناصف - مفتش المعارف بملوى
١٣٢	الوصف في شعر المتنبي	المتولى قاسم - مدرسة محمد على الملكية للبنات
١٧٠	شذوذ المتنبي	محمود مصطفى - المدرس بكلية اللغة العربية
١٨٨	المرأة في شعر المتنبي	حسن علوان - المدرس بالحدويّة
٢٠٨	إلى أبي الطيب (قصيدة)	محمد يوسف المحجوب - محمد على الملكية للبنات
٢١٢	استدراك	